جامعة الأزهر
كلية أصول الدين والدعوة الإسلامية
بطنطا

قصد السبيل
فى
التفسير الموضوعى لآى التنزيل

للأستاذ الدكتور

جودة محمد أبواليزيد المهدى

أستاذ التفسير وعلوم القرآن الكريم
وعميد كلية القرآن الكريم بطنطا
وعضو اللجنة العلمية الدائمة للتفسير وعلوم القرآن
وعضو المجلس الأعلى للشئون الإسلامية

١٤١٨هـ - ١٩٩٨م



«كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولوا الألباب»
(ص: ٢٩)

«ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين»
(النحل ٨٩)

«إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً كبيرا»
(الإسراء ٩)

«وعلى الله قصد السبيل»
(النحل ٩)

صدق الله العظيم

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم .. وتمهيد :

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد المبعوث رحمة للعالمين . أرسله الله بالحق بشيرا ونذيرا وداعيا إليه بإذنه وسراجا منيرا وأنزل عليه القرآن العظيم : معجزة فوق المعجزات . وآية جامعة الآيات !! وكتابا مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه ، يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم .

أما بعد : —

فما أجدر أمة شرفت بهذا القرآن العظيم وحظيت بهذا النور المبين ، بأن تلتف حوله . تقتبس من ضيائه ، وتقتات من هديه ، وتستمد ذاتيتها النورانية من إشراقه ، لأنه معقد سموها وعزها ، ومناط سعادتها ، وسؤددها ومنار رشدها ، وهديها وعماد صلاحيتها وخيريتها وأفضليتها على سائر الأمم . إنه القرآن المجيد حبل الله المتين الذى من اعتصم به فقد هدى إلى صراط مستقيم .

ومن واجب أمة القرآن وهى تنشد قوام صلاحيتها ومقومات خيريتها ، وارتقاء مكانتها تحت الشمس فى عالم اليوم أن تحقق أولا ذاتيتها القرآنية بكل ما تحمل هذه الكلمة من معنى ، فذاك هو السبيل الوحيد الذى لا بديل له لتحقيق ما تنشده من أمن وعز وتقدم ورخاء وارتقاء إلى أوج

الكمال الذى تكفل به هذا الكتاب العزيز الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد .

إن القرآن الكريم هو دستور الحياة المثالية للفرد والأمة معا ، ودائرة التنزيل قد وسعت العالم بأسره ، وما ضاقت عن شىء منه : (ما فرطنا فى الكتاب من شىء)(١) . (ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شىء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين)(٢) : (وكل شىء فصلناه تفصيلا)(٣) ولكن : (أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها)(٤) ؟ ؟ (ولقد ضربنا للناس فى هذا القرآن من كل مثل لعلهم يتذكرون)(٥) :

إنها دائرة مركز الإشعاع القرآنى التى يشع ضياؤها فى العالمين (تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا)(٦) ، (أن هو إلا ذكر للعالمين)(٧) .

هى الدائرة التى تشع منها أضواء الهدى العقائدى والهدى التشريعى والهدى الأخلاقى .

هى دائرة النور والهداية التى تكلفت بإصلاح الأمة جملة وتفصيلا ، ومن أصدق من الله قيلا : وهو القائل سبحانه : (إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم) (٨) .

أجل : أنه القرآن الذى تخشع له الجبال وتتصدع من ثقله ، ومن

---

(١) سورة الأنعام / ٣٨ — (٢) سورة النحل / ٨٩

(٣) « الإسراء / ١٢ — (٤) « (محمد) / ٢٤

(٥) « الزمر / ٢٧ — (٦) « الفرقان / ١

(٧) « (ص) / ٨٧ — (٨) « الإسراء / ٩

خشية الله : (لو أنزلنا هـذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله)(١) .

أنه القرآن العظيم : المحيط الجامع لأسرار الوجود ، الذى تغيض أنهار الأفـكار دهشة من بعد أغواره ، وتجفل قوافل العقـول دون الوصول إلى مشارف قراره ، وكيف لا وقد قال قائله جل شأنه : (ولو أن قرآنا سيرت به الجبال أوقطعت به الأرض أو كلم به الموتى ، بل لله الأمر جميعا)(٢) .

هو الشفاء والرحمة لمن آمن بما فيـه : (وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين)(٣) .

فمتى تفىء أمة القرآن إلى أمر ربها وإلى كتابه لتتبوأ ذروة الخيرية على جميع الأمم وتحظى بوعد ربها فى كتابه العزيز : (كنتم خير أمة أخرجت للناس . . .)(٤) ؟؟

وإذا كان الاعتصام بـكتاب الله تعالى والاسترشاد بهديه هو واجب أمة القرآن قاطبة فإن ثمة واجبا خاصا يقع على عاتق أهل القرآن الذين هم أهل الله وخاصته ، أولئك الذين تقلدوا شرف التنسك فى محراب التنزيل وتخصصوا فى خدمة كتاب الله تعالى ودراسة علومه وطمحوا فى نيل الإرث المحمدى فى الدعوة إلى الله على بصيرة ،

---

(١) سورة الحشر/٢١: قال الإمام ابن عباس رضى الله عنهما فى تفسيرها: (قال : لو أنى أنزلت هـذا القرآن على جبل حملته إياه لتصدع وخشع من ثقله ومن خشية الله) أنظر تفسير ابن كثير ٨/١٠٤

(٢) سورة الرعد/٣١ وجواب (لو) فى الآية الـكريمة محذوف وتقديره (لـكان هذا القرآن)

(٣) سورة الإسراء / ٨٢ .

(٤) سورة آل عمران / ١١٠ .

أولئك لهم دور خطير وتبعات جسام تقاس على قدر عظم الرسالة وشرف الغاية التي تغيوها ، فقد روى عن الإمام مالك رضى الله عنه أنه قال: (بلغنى أن العلماء يسألون يوم القيامة عما يسأل عنه الأنبياء(١) .

إذا كانت تلك هى مسئولية العلماء عامة فكيف بمسئولية علماء التنزيل خاصة ؟؟

إن أولى متطلبات هذا الدور الذى يضطلع به أهل التنزيل تتمثل فى إخلاص النية لله وابتغاء وجهه تعالى بالعلم والتقرب إليه بالعمل طمعا فى فى شرف الانتساب إليه كما ورد فى الحديث الشريف (إن لله تعالى أهلين من الناس ، أهل القرآن هم أهل الله وخاصته)(٢) .

وثانى متطلبات هذا الدور : تتمثل فى البحث الدائب والعكوف على مأدبة التنزيل والغوص فى بحار علومه واستيعاب مناهج تفسيره وإدراك جوانب إعجازه والتمرس بلغته وتدبر وجوه خطابه وفقه أحكامه إلى غير ذلك من أنواع علومه المترامية الأطراف .

وعلى عاتق علماء التنزيل والباحثين فى علومه تقع مهمة كبرى فى هذا الصدد وهى إحياء التراث القرآنى بجوانبه المتشعبة وتحقيق ما أوشك أن يندثر من أضابيره ، ففى خزائن دور الكتب المنبثة فى أقطار العالم كنوز من التراث القرآنى والتفسيرى يرجع بعضها الى عصر التابعين وتابعيهم وتضم محصلات علوم السلف فى فقه التنزيل . وإحياء هذا التراث أمانة فى عنق أهل العلم بقدر ما هو إحياء للقلوب والأرواح المتعطشة لأنوار الفرقان .

ثم تأتى قمة الدور الرئيسى الذى يضطلع به المتنسكون فى محراب التنزيل

---

(١) أنظر حلية الأولياء لأبى نعيم الأصبهانى ٦/٣١٩ .

(٢) رواه النسائى وابن ماجه والحاكم وخرجه عنهم الحافظ المنذرى فى الترغيب والترهيب ٣/١٧١ .

مبنية على الركيزتين السابقتين ليكتمل بالدعائم الثلاثة دور الداعية القرآني في الدعوة إلى الله على بصيرة :

ألا وهى تجسيد الهدى القرآنى بصورته الوضاءة المشعة فى شتى آفاق الحياة وفى مختلف الجوانب التى يتقلب فيها الإنسان المعاصر وإبراز ماخفى عن عالم اليوم من جوانب الهدى القرآنى وأبرز هذه الجوانب يتمثل فيمايلى :

(أ) الجانب العقدى : المتعلق بقضايا الإيمان الدائرة حول محاوره الثلاثة (الالهيات . النبوات - السمعيات من البعث ونحوه) ولابد من معالجة هذه القضايا على بساط البحث القرآنى وفى ضوء الوحى وحده بحيث لا يكون العقل هو القاضى فى تلك القضايا - بل يقتصر على دوره المشروع كأداة مجندة لفهم الوحى لامدخل لها من ذاتها فى الحكم أوالتقنين للجانب العقدى الذى تكفل به الوحى كلية .

ولا ينبغى إطلاقا أن تتجاوز تلك الأداة حدودها بالتحول إلى دور التأثير الذاتى وتنتهك حرمة النص بالتأويل الجامح والشطط الفكرى الآبق عن رحاب الوحى الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

(ب) الجانب التشريعى : الذى يتناول الأحكام العملية للفرد والمجتمع وهو الجانب الفقهى الذى يشمل العبادات والمعاملات والحدود والأحوال الشخصية والمعاملات بكافة أنواعها ، فقد تكفل القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة التى هى بيان للقرآن بكل ما يتعلق بهذا الجانب من مختلف الزوايا والأبعاد وقد تفرد اتجاه تفسيرى للبحث فى هـذا الجانب وهو (تفسير الأحكام) الذى وجه مفسروه عنايتهم إليه من الزوايا الفقهية المذهبية المختلفة .

(ج) الجانب الأخلاقى : الذى يعنى بتربية الأمة أفرادا وجماعات ومعالجة النفس الإنسانية من أدوائها ونوازعها الشريرة ، ويهذبها ويكملها

بالفضائل الإسلامية، وربط الإنسان بالمسئولية والجزاء ويكفل له دوافع الخير والرشد فى نفسه وبيئته ومجتمعه.

ومن أجل الدراسات القرآنية المعاصرة فى هذا الجانب دراسة الدكتور محمد عبد الله دراز رحمه الله (دستور الأخلاق فى القرآن).

الدراسات السابقة

وجماع مقاصد هذا الجانب يتمثل فى إصلاح داخل الفرد وتعميق صلته بالله تعالى واستثارة روحه وقلبه ووجدانه فيكون العبد صالحا مع الحق ومع الخلق.

وهذا هو نفسه مقصد التصوف الإسلامى كما يتجلى فى مرآة قمم التصوف الإسلامى كالإمام الغزالى والحارث المحاسبى وأبى طالب المكى والإمام الشعرانى رضى الله عنهم. كما ينعكس جليا فى تفاسير الإمام الفخر الرازى والإمام البيضاوى والإمام الآلوسى وغيرهم رضوان الله عليهم أجمعين.

وبالنظرة العلمية المتفحصة فى هذه الجوانب الثلاثة نجد أنها هى نفسها أمور الدين الثلاثة التى وردت فى حديث سيدنا جبريل عليه السلام وهى (الإسلام - الإيمان - الإحسان).

فالجانب العقدى هو جانب الإيمان، والجانب التشريعى هو جانب الإسلام والجانب الأخلاقى الصوفى هو مقام الإحسان مقام: (أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك) وجملة الجوانب الثلاثة هى جماع أمور الدين قاطبة.

وإبراز هذه الجوانب بفروعها وشعبها وقضاياها الكلية والجزئية المختلفة من المنطلق القرآنى الرحيب بالمعالجة العلمية الدقيقة الفاحصة المتعمقة هى المهمة الملحة والمسئولية المنوطة بأهل التنزيل وبالدعاة فى عالم اليوم. فى العصر الذى أنشبت فيه المادية الملحدة أظفارها وتمنطقت بالسفسطة الجدلية العقيمة، لتخرب العقائد وتقوض دعائم الإيمان. وفى الوقت الذى اقتحمت جيوش الغزو الثقافى حصون العلم والمعرفة بالتشكيك والتضليل.

من هؤلاء وأولئك سوى علماء القرآن والسنة وحراس العقيدة ؟؟
من لهم سوى الدعاة إلى الله على بصيرة ؟؟

من ثم حق على القرآنيين أن يبرزوا هداية التنزيل فى إطارها الموضوعى الذى يتناول تلك الجوانب الرئيسية من زواياها وشعابها المختلفة ليثبت لعالم اليوم أن كتاب الله هو مصدر النور والهداية الصالح لكل زمان ومكان إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

وإن هداية القرآن فيها من الشمولية والسعة ما يستوعب كل قضايا ومتطلبات العصر وكل عصر .. وأنه لا بديل لشرع الله فى دنيا الناس ولا مناص من الحساب عليه فى أخراهم .

وهذه خطوة على طريق التفسير الموضوعى أستعين فيها بالله واستجدى عونه ومدده وتوفيقه فإن كان الإحسان فمنه الفضل وله الحمد والشكر وإن كان التقصير — وهو دأب من لم يعصم من البشر — فمن ضعف القاصر والله الغافر .

وأسأل الله تبارك وتعالى أن يهبنى إخلاص النية والعمل وأن يجعله متمحضا لوجهه الكريم وأن يمنحنى فيه التوفيق والرشد والسداد أنه تعالى خير مسئول وأكرم مأمول .

وصلى الله تعالى على عين أعيان خلقه وسراج أفقه المتقدم من نور ضيائه سيدنا محمد المصطفى وعلى آله وصحبه وأتباعه وورثته أهل الصدق والوفاء دائما وسلم .

فى الرحاب الأحمدى المبارك
ثانى عشر ربيع الأول
سنة ١٤٠٠

د . جوده محمد أبو يزيد المهدى
رئيس قسم التفسير وعلوم القرآن الكريم
بكلية أصول الدين والدعوة الإسلامية بطنطا

مدخل إلى التفسير الموضوعى

يجدر بنا — قبيل خوض غمار مباحث التفسير الموضوعى — أن نلقى الضوء الكاشف على بعض المعالم البارزة التى لابد من تصورها واستكشاف آفاقها ولو برؤية شمولية تحقق الإفادة منها فى تطبيق المنهج العلمى السديد فى دراسة تلك المباحث ، وتتمثل هذه المعالم المدخلية التى نطوف حولها فى جملة مباحث :

(المبحث الأول) : حول التعريف العلمى للتفسير

يطلق التفسير لغة ويراد به الإيضاح والتبيين . إذ هو مأخوذ من الفسر وهو الكشف والبيان قال ابن منظور : (الفسر : البيان ، فسر الشىء يفسره — بالكسر — ويفسره — بالضم — فسرا ، وفسره : أبانه ، والتفسير مثله .) ثم قال فى نفس المادة والموضع : (الفسر : كشف المغطى ، والتفسير : كشف المراد عن اللفظ المشكل)(١) وقيل — كما فى الإتقان — إن الفسر مقلوب السفر فتقول أسفر الصبح إذا أضاء .

ويذكر الأستاذ أمين الخولى : أن مادتى (ف س ر) و : (س ف ر) تلتقيان فى معنى الكشف ، ثم نرى : السفر الكشف المادى والظاهر . والفسر : الكشف المعنوى والباطن والتفعيل منه — التفسير كشف المعنى وإبانته)(٢) .

وهذه المفارقة بين الفسر والسفر — إن سلمت — لاشك وجيهة . بيد

---

(١) أنظر لسان العرب ٦/٣٦١ .

(٢) مناهج تجديد /٢٧١

أن الاستعمال اللغوي لا يظاهر ذلك فيما نرى ، إذ أن أبا حيان — في البحر — يذكر أن التفسير ينطلق على التعرية للإنطلاق ويقول : (قال ثعلب : تقول : فسرت الفرس : عريته لينطلق في حصره وهو راجع لمعنى الكشف ، فكأنه كشف ظهره لهذا الذي يريده منه من الجري)(١) .

ومن ثم نتبين أن التفسير — المأخوذ من الفسر — يطلق في اللغة على الكشف الحسي كما يطلق على الكشف المعنوي ، وإن كان إستعماله في المعنويات أكثر فشوا . وقد ورد لفظ التفسير في التنزيل بمعنى الإيضاح والتبيين في قوله تعالى (ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيرا)(٢) .

ثم ننتقل إلى التعريف الإصطلاحي للتفسير عند العلماء ، وهنا نجد العلماء ينقسمون إلى فريقين في هذا الصدد :

ففريق يرى : أن التفسير شأنه شأن العلوم الشرعية واللغوية والأدبية كالحديث الشريف وعلم اللغة والأدب ونحوها : من قبيل التصورات التي لا يتكلف لها حد ولا بيان موضوع ولا مسائل : إذ ليس لهذه العلوم — في نظرهم — قواعد ولا ملكات ناشئة من مزاولة القواعد كغيرها من العلوم العقلية أو التي أمكن لها أن تشابهها .

ومن نص على هذا المسلك وسلك هذا الاتجاه : كل من : العلامة السيالكوتي(٣)

---

(١) أنظر البحر المحيط ١/ ١٣

(٢) سورة الفرقان / ٣٣

(٣) هو عبد الحكيم بن شمس الدين الهندي من علماء سيالكوت التابعة للاهور (ت. سنة ١٠٦٧) له عدة مصنفات نفيسة منها (حاشية على تفسير البيضاوي) و(حاشية على المطول) وهو : شرح تلخيص المفتاح في البلاغة ، (أنظر ترجمته في الاعلام للزركلي ٣/ ٢٨٣)

فى حاشيته على المطول ، وصاحب (المبادىء النصرية)(١) .

فقال الأول فى حاشيته : «وما قالوا من أمر أن لكل علم مسائل : فإنما هو فى العلوم — الحكمية ، وأما العلوم الشرعية والأدبية فلا يتأتى فى جميعها ذلك ، فإن علم اللغة : ليس إلا ذكر الألفاظ ومفهوماتها وكذا التفسير والحديث »(٢) وذكر الثانى أنه يكتفى فى إيضاح التفسير بأنه بيان كلام الله تعالى ، أو بأنه : المبين لألفاظ القرآن الكريم ومفهوماتها(٣) .

أما الفريق الثانى — ويمثله جهابذة من المحققين كالشريف الجرجانى وغيره — فيرى أن تفسير القرآن الكريم من قبيل التصديقات لا التصورات ، وذلك : لأنه يتضمن الحكم على الألفاظ بأنها مفيدة لهذه المعانى .

ومن ثم : يكون التفسير متضمنا المسائل الجزئية مثل قول المفسر : (الاسم) : الدال على المسمى والله علم على الذات الأقدس ، (والرحمن) : هو المتفضل بالاحسان ، و: (يا أيها الناس) : خطاب لأهل مكة ، و(يا أيها الذين آمنوا) خطاب لأهل المدينة وهكذا فما لا شك فيه أن هذه قضايا جزئية ، ولابد معها من قواعد كلية وملكات ناشئة عن مزاولة تلك القواعد ، ومن ثم يتأتى وضع حد وتعريف إصطلاحى للتفسير(٤) . وهذا هو الاتجاه السديد الذى أخذ به المحققون .

---

(١) هو الشيخ نصر الحوبحى الأزهرى الشافعى مصنف (المبادىء النصرية لمشاهير العلوم الأزهرية) وقد فرغ من طبعه سنة ١٣٠٥ (أنظر إيضاح المكنون ذيل كشف الظنون ٤٢٣/٢

(٢) حاشية عبد الحكيم على المطول / ٤٩١ — ٤٩٢ وأنظر التفسير والمفسرون للدكتور محمد الذهبى ٣١/١

(٣) أنظر المبادىء النصرية/٢٥-٢٦/ط الخيرية سنة ١٣٢٠ وأنظر مناهج تجديد لأمين الخولى/٢٧٢

(٤) أنظر التفسير والمفسرون للدكتور محمد الذهبى ١٤/١ ، ٣١

أبي حيان — الزركشي — محمد علي سلامه

حين نستعرض التعاريف الاصطلاحية التى وضعها العلماء للتفسير : نجدها مع إتحاد المرمى والهدف تتفاوت فى إستيعاب حد المعرف وشمول ما صدقاته فى الدلالة على ماهيته وأوفى ماوقفنا عليه بذلك تعريف أبي حيان فى تفسيره (البحر المحيط) إذ قال :

« التفسير : علم يبحث فيه عن كيفية النطق بألفاظ القرآن ومدلولاتها وأحكامها الافرادية والتركيبية ومعانيها التى تحمل عليها حالة التركيب وتتمات لذلك » .

ثم أخذ فى تخريج مضامين تعريفه قائلا :

« فقولنا (علم) : جنس يشمل سائر العلوم ، وقولنا : (يبحث فيه عن كيفية النطق بألفاظ - القرآن هذا هو علم القراءات ، وقولنا :(ومدلولاتها) : أى مدلولات تلك الألفاظ ، وهذا هو علم اللغة الذى يحتاج إليه فى هذا العلم ، وقولنا : (وأحكامها الافرادية والتركيبية) هذا يشمل علم التصريف وعلم الاعراب وعلم البيان وعلم البديع ، (معانيها التى تحمل عليها حال التركيب) : شمل بقوله (التى تحمل عليها) : مالادلالة عليه بالحقيقة ومادلالته بالمجاز ، فإن التركيب قد يقتضى بظاهره شيئا ويصد عن الحمل على الظاهر صاد فيحتاج لأجل ذلك أن يحمل على غير الظاهر وهو المجاز .

وقولنا : (تتمات لذلك) : هو معرفة النسخ وسبب النزول وقصة توضح بعض ما انبهم فى - القرآن ، ونحو ذلك »(١) .

أما الزركشى : فقد عرف التفسير بأنه (علم يعرف به فهم كتاب الله المنزل على نبيه محمد ﷺ وبيان معانيه واستخراج أحكامه وحكمه) ثم قال : (وإستمداد ذلك من علم اللغة والنحو والتصريف وعلم البيان وأصول الفقه والقراءات ، ويحتاج لمعرفة أسباب النزول والناسخ والمنسوخ)(٢) .

---

(١) أنظر البحر المحيط لأبى حيان ١/١٣-١٤

(٢) أنظر البرهان للزركشى ١/١٣

ثم يأتى تعريف صاحب (منهج الفرقان)(١) متضمنا ـ رغم اختصاره ـ لمضمون رائع جدير بالمراعاة ، إذ عرفه بأنه : (علم يبحث فيه عن أحوال القرآن المجيد من حيث دلالته على مراد الله تعالى بقدر الطاقة البشرية)(٢) ، فإن قوله (بقدر الطاقة البشرية) يفيد أن هذا العلم لا يعطى القطع بأن مراد الله تعالى من كلامه هو كذا على وجه التحديد والحصر وهذا غير قادح فى التفسير كعلم ، كما لا يقدح فيه عدم الوقوف على ما استأثر الله تعالى بعلمه من متشابه التنزيل فذاك ـ بلا ريب ـ فوق طاقة البشر .

تلك أهم وأدق التعاريف العلمية الاصطلاحية للتفسير ، وهى التى تحدد مجال هذا العلم الشريف ووسائله ، ولابد من الوقوف عليها بين يدى البحث فى اى منهج من مناهج التفسير من حيث أن تمثل الماهية بالرؤية العلمية هو المنطلق الصحيح لخوض أى جانب من جوانبها المتعددة وارتفاقها فى تصور الباحث ضرورة لرؤية ابعادها المترامية .

(المبحث الثانى) النشأة والمسار التاخى للتفسير .

نزل هذا القرآن المبين على النبى الأمين سيدنا محمد ﷺ نورا على نور فتكفل صلوات الله وسلامه عليه بالبلاغ وبالبيان كما أمره ربه عز وجل : (ياأيها الرسول بلغ ما أنزل اليك من ربك)(٣) ، (وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل اليهم ولعلهم يتفكرون)(٤).

---

(١) مصنف (منهج الفرقان فى علوم القرآن) هو الشيخ محمد على سلامة وقد وضعه لطلاب تخصص الدعوة والارشاد بكلية أصول الدين .

(٢) انظر منهج الفرقان ٢ / ٦ وانظر مناهل العرفان ١ / ٤٧١ والتفسير والمفسرون ١ / ١٥ .

(٣) سورة المائدة / ٦٧ .

(٤) سورة النحل / ٤٤ .

(وما أنزلنا عليك الكتاب إلا لتبين لهم الذى اختلفوا فيه وهدى ورحمة لقوم يؤمنون)(١).

فكان الرسول الأعظم ﷺ هو المفسر الأول لكتاب الله تعالى والمبين لهديه بما أراه الله من نوره، يقول إمامنا الشافعي رضى الله تعالى عنه: (كل ما حكم به رسول الله ﷺ فهو مما فهمه من القرآن، قال الله تعالى: (انا انزلنا اليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله..)(٢)، وروى أبو داود فى سننه عن المقدام بن معد يكرب عن رسول الله ﷺ أنه قال: (ألا انى أوتيت الكتاب ومثله معه، لا يوشك رجل شبعان على أريكته يقول: عليكم بهذا القرآن. فما وجدتم فيه من حلال فأحلوه، وما وجدتم فيه من حرام فحرموه، ألا لا يحل لكم الحمار الأهلى ولا كل ذى ناب من السباع ولا لقطة معاهد إلا إن يستغنى عنها صاحبها، ومن نزل بقول فعليهم ان يقروه، فان لم يقروه فله أن يعقبهم بمثل قراه)(٣)، قال الخطابى: قوله (أوتيت الكتاب ومثله معه) يحتمل وجهين من التأويل.

أحدهما: أن معناه: أنه أوتى من الوحى الباطن غير المتلو مثل ما أعطى من الظاهر المتلو.

والثانى: أنه أوتى الكتاب وحيا يتلى: وأوتى من البيان مثله، أى: أذن له أن يبين ما فى الكتاب فيعم ويخص، ويزيد عليه ويشرع ما فى الكتاب، فيكون فى وجوب العمل به ولزوم قبوله كالظاهر المتلو من القرآن)(٤).

---

(١) سورة النحل / ٦٤.

(٢) سورة النساء/ ١٠٥.

(٣) أخرجه ابو داود فى سننه (باب فى لزوم السنة) ٤/ ٢٧٩ ط التجارية بتحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد.

(٤) انظر مقدمه تفسير القرطبى ١/ ٣٨.

وروى الأوزاعى عن حسان بن عطية قال : (كان الوحى ينزل على رسول الله ﷺ ويحضره جبريل بالسنة التى تفسر ذلك)(١) .

من ثم كان الرسول الكريم صلوات الله وسلامه هو المصدر الأول — بعد القرآن نفسه — للصحابة رضوان الله عليهم فى تبيان كل معانى التنزيل وألفاظه جملة وتفصيلا ، فصب فى صدورهم أنوار التنزيل حتى وعوا من علومه وحقائقه ودقائقه ماتنوء بحمله الجبال . فها هوذا باب مدينة العلم سيدنا على كرم الله وجهه يقول :(والله مانزلت آية إلا وقد علمت فيم أنزلت ، وأين أنزلت إن ربى وهب لى قلبا عقولا ولسانا سئولا)(٢) .

وقد روى عن أبى الطفيل أنه قال (شهدت عليا يخطب وهو يقول : سلونى ، فوالله لاتسألونى عن شىء (٣) إلا أخبرتكم ، وسلونى عن كتاب الله فوالله مامن آية إلا وأنا أعلم أبليل نزلت أم بنهار أم فى سهل أم فى جبل) (٤) .

ولم يكن سيدنا على — كما حسبه البعض — أقل تفسيرا للقرآن من الإمام ابن عباس رضى الله عنهما فمع أن النبى ﷺ قال للإمام ابن عباس عليه رضوان الله (نعم ترجمان القرآن أنت)(٥) .

---

(١) نفس المصدر ٣٩/١ .

(٢) أخرجه الإمام السيوطى عن أبى نعيم فى الحلية انظر الاتقان ٢٠٤/٤ .

(٣) فى رواية القرطبى (فوالله لاتسألونى عن شىء يكون إلى يوم القيامة إلا حدثتكم به) تفسير القرطبى ٣٥/١

(٤) انظر الاتقان ٢٠٤/٤ .

(٥) نفس المرجع ٢٠٥/٤

يروى عن ترجمان القرآن نفسه أنه قال : (ما أخذت من تفسير القرآن فعن على بن أبى طالب) (١) .

وفى نفس النطاق تتجلى شهادة الكبار للكبار من أهل البيت المحمدى الأخيار فكان سيدنا على كرم وجهه يثنى أيما ثناء على علم الإمام ابن عباس ويحض على أخذ التفسير عنه ويقول (ابن عباس كأنما ينظر إلى الغيب من ستر رقيق (٢)) .

ومع باب مدينة العلم وترجمان القرآن نجد . جمهرة من أعلام الصحابه رضوان الله عليهم بحارا فى علوم التنزيل وجبالا راسيات فى فقة تفسيره وأحكامه ومعرفة وجوه خطابه على رأسهم تتمة العشرة الذين توفرت المصادر على اعتبارهم أشهر مفسرى الصحابة وتعيينهم كما فى (الاتقان) : الخلفاء الأربعة وابن مسعود وابن عباس وأبى بن كعب وزيد بن ثابت وأبو موسى الاشعرى وعبد الله بن الزبير رضى الله عنهم أجمعين (٣) .

كان هؤلاء وغيرهم من أعلام الصحابة اوعية العلم المحمدى الذين استظهروا التنزيل ونهلوا تفسيره وعلومه من سيد الخلق ﷺ فكان دأبهم أن يفقهوا ما يحفظون من آى القرآن الكريم أولا بأول كما روى التابعى الجليل أبو عبد الرحمن السلمى رضى الله عنه أنه قال : (حدثنا الذين كانوا يقرئوننا القرآن كعثمان بن عفان وعبد الله ابن مسعود وغيرهما : أنهم كانوا إذا تعلموا من النبى ﷺ عشر آيات لم يجاوزوها حتى يتعلموا مافيها من العلم والعمل .

---

(١) انظر تفسير القرطبى ١/٣٥

(٢) نفس المرجع .

(٣) انظر الاتقان ٤/ ٢٠٤

قالوا : فتعلمنا القرآن والعلم والعمل جميعا (١) ،

ومن ثم :ـ لهذا ولغيره من الأدلة والقرائن يترجح لدينا : أن النبي ﷺ قد تناول القرآن الكريم كله بالبيان للصحابه رضوان الله عليهم ولم يكلهم إلى أنفسهم فى تفسيره وبيانه كلا أو بعضا ، خلافا لمن زعم قصر بيانه ﷺ على بعض القرآن دون البعض ، كيف وقد صرح التنزيل بشمول تبيينه صلى الله عليه وسلم لكل ما نزل إليهم فى قوله سبحانه (لتبين للناس ما نزل إليهم) ؟؟

فلم يقتصر إذا تفسيره ﷺ للقران على ما أورده أصحاب الجوامع والسنن فى الحديث الشريف تحت عنوان (كتاب التفسير) ونحوه بل الشواهد قاضية بالشمول والاستيعاب فى البيان بدليل تحرج كبار الصحابة عن الإدلاء فى معانى التنزيل بأى رأى كما روى عن سيدنا أبى بكر رضى الله تعالى عنه أنه قال (أى سماء تظلنى وأى أرض تقلنى إذا قلت فى كتاب الله برأيى (٢) ،

أجل : كيف يعتمد هؤلاء الصحابة العظام على غير الوحى فى تفسير الوحى ؟؟ وكيف يدخلون العقل والرأى ـ فى وجود النص — لفهم وفقه التنزيل والقاعدة السائدة : أنه : (لا اجتهاد مع النص) ؟

أن مصدر النص بين أظهرهم فهل يتركونه ـ وهو المعصوم من الخطأ ﷺ ـ إلى عقال العقل وتحكيم الرأى ؟؟

يبدو أن المتأخرين الذين يذهبون إلى أن النبى صلى الله عليه وسلم لم

---

(١) انظر تفسير ابن كثير ١/١٣ والتفسير والمفسرون ١/٤٩-٥٠ .

(٢) انظر البرهان للزركشى ٢/١٦٢ وساقه ابن كثير بسنده فى تفسيره (١/١٦) بلفظ (إذا قلت فى كتاب الله بما لا أعلم) .

يبين لأصحابه من معانى التنزيل إلا القليل (١) : لم يستوعبوا مدى حرص الصحابة رضوان الله عليهم - بل وسلفنا الصالح - على منهج (الاتباع) فذهبوا يقللون من شأن هذا المنهج بزعم أن فيه الغاء للعقل، وفى هذا لعمرى تجن على منهج الأصحاب رضوان الله عليهم وفى نفس الوقت أهدار لقدسية النص وحرمته !.

إن الصحابى الجليل سيدنا عبد الله بن مسعود رضى الله تعالى عنه قد بلغ من استقصائه لعلم التنزيل وحرصه على منهج (الاتباع) فى تفسيره وفقهه انه كان يقول : (والذى لا إله غيره : مانزلت آيه من كتاب الله إلا وأنا أعلم فيمن نزلت وأين نزلت ؟ ولو أعلم مكان أحد أعلم بكتاب الله منى تناله المطايا لأتيته)(٢) !

إن المنهج الحقيقى بالاتباع هو (الاتباع) وقد فهم الراسخون فى العلم أبعاد هذا المنهج عند الصحابة فاتخذوا موقفهم التقويمى العلمى لمرويات الصحابة - فى التفسير خاصة - على أساسه ، يقول الحافظ الحاكم النيسابورى فى المستدرك على الصحيحين - : (ليعلم طالب الحديث : أن تفسير الصحابى الذى شهد الوحى والتنزيل - عند الشيخين - حديث مسند)(٣) .

ومن هذا المنطلق كانت نشأة التفسير فى جو الوحى مرتكزة على أقوم الأسس وأرسخ الدعائم ثم تلت مرحلة عهد الصحابة مرحلة التفسير فى عهد التابعين وهم الذين تتلمذوا على أيدى الصحابة واستوعبوا منهم فقه التنزيل بالمأثور عن سيد الأمة ﷺ فكان أعلام التابعين أوعية لعلم الصحابة رضوان الله عليهم ، يلازمونهم وينهلون من ينابيعهم الدفاقة بالورد وكان جل اعتمادهم فى فقه التنزيل على الأثر أيضا - وإن نازع فى ذلك بعض العقليين

---

(١) انظر هذا الاتجاه بأدلته المرجوحة فى (التفسير والمفسرون ١/١٥ .
(٢) انظر تفسير ابن كثير (المقدمة) ١/١٣ .
(٣) انظر تدريب الراوى فى شرح تقريب النواوى للحافظ السيوطى ١/٢٩٢-٢٩٣ .

وبين أيدينا من الأدلة والشواهد مالايدع لذى منصف مرية : فهاهو ذا الإمام مجاهد أعلم التابعين بالتفسير وهو الذى قال عنه الإمام الثورى رضى الله عنه (إذا جاءك التفسير عن مجاهد فحسبك به)(١) !! وكان معتمد كل من الإمامين الشافعى والبخارى وغيرهما من أهل العلم فى التفسير (٢): يروى عنه الفضل بن ميمون أنه قال : « عرضت المصحف على ابن عباس ثلاث عرضات ، أقف عند كل آية منه ، وأسأله عنها : فيم نزلت ؟ وكيف كانت »(٣)

ويروى الإمام ابن جرير بسنده عن ابن أبى مليكه : قال (رأيت مجاهداً سأل ابن عباس عن تفسير القرآن ومعه ألواحه ، قال : فيقول له ابن عباس أكتب . حتى سأله عن التفسير كله)(٤) .

ومما يجسد منهج (الإتباع) فى هذه المرحلة أيضاً : ماصرح به قطب آخر فى مدرسة الإمام ابن عباس التفسيرية وهو مولاه عكرمة البربرى ، الذى قال عنه الشعبى: (مابقى أحد أعلم بكتاب الله من عكرمة)(٥) ايقول عكرمة رضى الله عنه :(كل شىء أحدثكم فى القرآن فهو عن ابن عباس)(٦) إنه شرف المتابعة . وأنه الإنصاف وأمانة العلم !!

ليتنا نتعلم من الكبار إنكار الذات وعزو الحق لأهله !!فثمة الشرف الحقيقى والمجد الرفيع ،

---

(١) انظر الاتقان ٤/٢١٠
(٢) نفس المصدر .
(٣) انظر تفسير ابن كثير ١/١٥ .
(٤) انظر الاتقان ٤/٢١١ ،
(٥) نفس المصدر ،
(٦) نفس المصدر .

ولقد تخصص بكل علم من أعلام مفسرى الصحابة ثلة من التابعين يحملون علمه وينهلون من معينه وكان الصحابة رضوان الله عليهم قد تفرقوا ـ بعد انتقال النبى الكريم صلوات الله وسلامه عليه إلى جوار ربه — فى البلاد والأمصار التى فتحها الله على المسلمين ، فتكونت المدارس العلمية التفسيرية التى تحمل كل منها طابع رائدها الصحابى وعلمه .

فكان بمكة : مدرسة ترجمان القرآن : الامام ابن عباس رضى الله عنهما ، وينتمى إليها جمهرة من التابعين ، على رأسهم : مجاهد وعطاء وعكرمة وسعيد بن جبير وغيرهم .

وكان بالمدينة المنورة : مدرسة الإمام أبى بن كعب رضى الله عنه وينتمى إليها من أعلام التابعين كل من : أبى العالية الرياحى ، ومحمد بن كعب القرظى وزيد بن أسلم وغيرهم .

وكان بالعراق : مدرسة الإمام عبد الله بن مسعود رضى الله عنه : ومن أبرز أعلامها من التابعين : الامام الحسن البصرى وقتادة ومسروق والشعبى وغيرهم ، وكان الازدهار العلمى بهذه المدارس لا يحده تصور ، فقد أثرت محصلات هذه المدارس التفسيرية سجل التراث القرآنى بنفائس المرويات وروائع المأثورات .

وقد زعم الكثيرون ممن أرخوا لنشأة التفسير القرآنى أن عصر التدوين للتفسير لم يبدأ إلا بعد عصر الصحابة والتابعين ، حيث ابتدأ التدوين لحديث سيدنا رسول الله ﷺ فكان التفسير بابا من أبواب الحديث الشريف فى الجوامع والمسانيد(١) ، حتى لقد بلغ الأمر بأصحاب (مبادىء

---

(١) ممن ذهب إلى هذا كل من : أحمد أمين فى فجر الإسلام /٢٠٦ والدكتور محمد الذهبى فى التفسير والمفسرون ١٤١/١

العلوم) أن عدوا واضع التفسير — بمعنى جامعة لا مدونه — الامام مالك ابن أنس رضى الله عنه(١) .

وهذا الاتجاه — فى نظرنا — إجحاف بالحق التاريخى لنشأة التفسير كعلم مدون ، لأنه يسلب عن عصر التابعين حقا ثابتا للعيان يتمثل فى نتاجهم التفسيرى المصنف .

ولقد مر بنا ما أثبته ابن جرير فى مقدمة تفسيره مرويا عن أبى مليكة من قوله (رأيت مجاهدا سأل ابن عباس عن تفسير القرآن ومعه ألواحه قال : فيقول ابن عباس : اكتب . . حتى سأله عن التفسير كله) أليس هذا تصريحا لا يداخله اللبس فى أن مجاهدا قد دون التفسير كله عن الإمام ابن عباس رضى الله عنهما فى ألواحه ؟؟

وأنى يتسنى إنكار ما أثبته صاحب (كشف الظنون) من (تفسير أبى العالية الرياحى) برواية الربيع بن أنس عنه(٢) ، ومن (تفسير الحسن البصرى)(٣) و (تفسير زيد بن أسلم)(٤) و (تفسير عكرمة)(٥) عن الإمام ابن عباس رضى الله عنهما و (تفسير قتـــادة بن دعامة السدوسى)(٦) و (تفسير مجاهد)(٧) ؟؟ .

وتأكيداً لذلك : فقد ظهر فى المكتبة القرآنية — حديثا — بعض هذه

---

(١) انظر : المبادىء النصرية/٢٦ ومناهج تجديد لأمين الخولى/٢٧٣

(٢) انظر كشف الظنون ١/٤٤١

(٣) نفس المصدر ١/٤٤٦

(٤) نفس المصدر ١/٤٤٨

(٥) نفس المصدر ١/٤٥٣

(٦) نفس المصدر ١/٤٥٦

(٧) نفس المصدر ١/٤٥٨

التفاسير مطبوعة ، كما عنى بعض الدارسين والباحثين بالدراسة المنهجية الجامعية لبعضها كذلك(١) .

ومن ثم يتأكد ثبوت التدوين المستقل للتفسير فى عصر التابعين الأمر الذى يترتب عليه قوة التوثيق(٢) لما روى عن الصحابة والتابعين فى التفسير .

ثم اتخذ التفسير مساره بعد عصر التابعين رضوان الله عليهم ، حيث اتسع نطاق التدوين فيه لدى أتباع التابعين كالأئمة : سفيان الثورى وابن عيينة ومقاتل بن سليمان ومحمد بن السائب الكلبى وشعبة الحجاج ووكيع بن الجراح وعبد الرازق بن همام وغيرهم فتدفقت فى تفاسيرهم محصلات التفسير بالمأثور عن التابعين بمختلف مدارسهم وبالأسانيــد المتصلة كالمرويات الحديثية .

غير أن طابع التفسير فى هذه المرحلة قد شابه - فى قليل منه - بعض التلوين المذهبى كما فى تفسير مقاتل، كما امتدت ظاهرة النقل عن أهل الكتاب وهى التى واكبت التفسير المأثور منذ عصر الصحابة فى إطار من الضوابط العلمية ومن منطلق تسويغ النبى ﷺ لهذا النقل بالحديث الشريف : (بلغوا عنى ولو آية وحدثوا عن بنى إسرائيل ولا حرج ، ومن كذب على متعمدا فليتبوأ مقعده من النار)(٣) .

---

(١) ظهر الآن تفسير مجاهد مطبوعا كما أجريت دراسة جامعية (للماجستير) عن تفسير قتادة .

(٢) من مترتبات هذا التوثيق : اندفاع ما ذهب إليه أمين الخولى فى مناهج تجديده (ص ٢٧٦) من أن النقل التفسيرى لم يعتمد على أساس من الثقة وطيد) .

(٣) رواه البخارى فى كتاب بدء الخلق انظر الجامع الصحيح ٢٠٧/٤ ط الشعب .

بيد أن هذه الضوابط لم تحظ — بعد التابعين بما حظيت به من المراعاة في عصر الصحابة وتابعيهم .

ثم جاء من بعدهم إمام المفسرين محمد بن جرير الطبري المتوفى سنة ٣١٠ هـ فكان نقطة تحول في تاريخ التفسير ، إذ جمع في تفسيره أقوال السلف في التفسير بأسانيدها الثابتة مع التعرض لتوجيه تلك الأقوال والترجيح بينها وإبراز وجوه الإعراب ودقة الاستنباط فكان كما قال عنه الإمام السيوطي : (وكتابه أجل التفاسير وأعظمها)(١) ، ويعد الطبري فيه جامعا بين المنقول والمعقول(٢) .

وفي المرحلة الرابعة للتفسير وهي مرحلة ما بعد أتباع التابعين : جاءت طبقة من المفسرين تحررت من الإسناد وعنيت بحشد الآراء بتراء فتسرب الدخيل إلى التفسير وعز تمييز الصحيح من العليل وأخذت الإسرائيليات تغزو حرم التفسير بخيلها ورجلها فكانت بحق نقطة التحول العكسي ضد الاتجاه المحافظ والملتزم .

ثم كانت أوسع المراحل في حياة التفسير تلك التي امتدت من العصر العباسي إلى عصرنا الحاضر حيث أخذت الحركة العلمية في مستهل العصر العباسي في الازدهار ونشط التدوين في علوم اللغة والفقه وبرزت الفرق الكلامية ، وتدفقت روافد الفلسفة بقيام حركة الترجمة وأخذت العقائد والآراء المذهبية تغزو العلوم الإسلامية وتمتزج بها وبرز الجانب العقلي فيها فقام إلى جانب الاتجاه النقلي الأثري في التفسير اتجاه التفسير الاجتهادي

---

(١) انظر : الاتقان ٢١٢/٤

(٢) برز الطبري في تفسيره بالجمع بين العقل والنقل وتفرد بذلك عن جمع من المفسرين من طبقته وهم الذين عنوا بإيراد الروايات التفسيرية المسندة إلى الصحابة والتابعين كابن أبي حاتم وابن ماجه والحاكم وابن مردويه .

وهو مايعرف بالتفسير بالرأى فظهر مفسرون برعوا فى علوم مختلفة فأفرغ كل منهم وسعه فى تجسيد الجانب الذى برع فيه فى تفسيره فظهرت التفاسير اللغوية والنحوية والبلاغية والفقهية والقصصية والصوفية والكلامية والفلسفية والعلمية ثم الأدبية البيانية ذات الطابع النفسى والاجتماعى التى برزت فى عصرنا هذا ، ووجد لكل اتجاه من هاتيك الاتجاهات مدرسته التفسيريه التى يمكن إفراد منهجها بالبحث والتقويم العلمى ، ولا يتسع نطاق المقام ههنا بالطبع لتصنيف النتاج التفسيرى داخل تلك الأطر والاتجاهات بمدارسها المتعددة .

بيد أننا فى هذا المدخل سنكتفى بتوضيح أن هذا النتاج المتعدد الجوانب والألوان والمدارس قد تدفق فى مئات المصنفات التفسيرية(١) سالكا أربعة مناهج رئيسية فى دراسة ومعالجة للمباحث والموضوعات القرآنية .

أولا : المنهج التحليلى وهو المنهج الرئيسى الأشمل والأسبق إلى الوجود وهو الذى يلتزم فيه المفسر يتتبع آى التنزيل الحكيم - حسب ترتيبها المصحفى - بالكشف والبيان معنيا بتحقيق المفردات ودلالاتها اللغوية ثم بإبراز دلالاتها التركيبية ، ومايستنبط منها من معان وحكم وأحكام فى فى ضوء البيان القرآنى والنقل الصحيح عن النبى صلى الله عليه وسلم والصحابة والتابعين ، ومايعين على ذلك من علوم ومعارف ومايفتح الله به من نور لفهم كتابه العزيز .

---

(١) حسبنا دلالة على ثراء هذا النتاج التفسيرى : أن نعلم أن عالما واحدا وهو أبو بكر بن الأنبارى المتوفى ٣٢٨ هـ : كان يحفظ مائة وعشرين تفسيرا للقرآن الكريم بأسانيدها المتصلة (انظر : انباه الرواة للقفطى ٣ / ٢٠٣) .

وقد اتسع اطار هذا المنهج التحليلى لاستيعاب كافة ألوان التفسير ومذاهبه من التفسير بالمأثور والتفسير بالرأى ومايندرج تحته من اتجاهات محمودة أو مذمومة تجسدت فى مختلف ألوانه البلاغية والكلامية والصوفية والفقهية والفلسفية والقصصية والعلمية والأدبية فزخرت بها المكتبة القرآنية حافلة بالعطاء المتعدد الجوانب(١)

وثانياً : المنهج الإجمالى : وهو منسوب إلى الإجمال ، لأنه مقابل للمنهج التحليلى الذى يعد تفصيلا له. فالمفسر بهذا المنهج : يعنى بذكر مايفهم من كلام الله تعالى ـ وفق ترتيب الآيات الكريمات فى المصحف كسابقه ـ مع بيان غريب الألفاظ والاعتماد على أرجح الأقوال ـ وذكر مايكشف المعنى من سبب نزول أو قصة متعلقة بالآية الكريمة والتنبيه على القراءات المختلفة المشهورة وإعراب ماتمس إليه الحاجة وكل ذلك بتعبير وجيز مركز وسرعة خاطفة ، وقد يعطى فى بعض المواضع صورة مجملة عن طائفة من الآيات تجمل ما اشتملت عليه من معان(٢) ومن أبرز مايتمثل فيه هذا المنهج تفسير الوجيز للإمام أبى الحسن الواحدى وتفسير الجلالين .

وكذا تفسير القرآن الكريم لمحمد فريد وجدى

---

(١) فى الاعتقاد أن هذا المنهج غنى عن ايراد الأمثلة لألوانه المتعددة ومع ذلك فمن نافلة القول أن اللون البلاغى يتمثل فى مثل تفسير الكشاف للزمخشرى، والكلامى فى تفسير الفخر الرازى والصوفى فى تفسير أبى عبدالرحمن السلمى والفقهى فى تفسير القرطبى وأحكام القرآن لابن العربى والقصص فى تفسير الخازن ، والفلسفى : فى تفسير ابن سينا واخوان الصفا والعلمى فى تفسير الجواهر .

(٢) انظر مقدمة الإمام السيوطى رضى الله عنه لتفسير الجلالين وانظر التفسير الموضوعى للدكتور أحمد الكومى ص ٩

وثالثها : المنهج المقارن

وهو الذى يعنى فيه المفسر بإبراز أكثر من رؤية تفسيريه واحدة للآية أو الآيات التنزيلية فيستحضر ما كتبه مفسران أو أكثر فى تفسير النص فى موضع واحد ، ويعترف على خصائص المعالجة التفسيرية لذلك النص فى كل من التفسيرين أو التفاسير التى هى موضع المقارنة . ثم يبرز المقارن بالنظرة التحليلية النقدية الفاحصـــة — ما هنالك من تمايز أو اتفاق أو اختلاف ، ويحسد أو جسه التفوق والقصور والتأثر والتأثير .

ويتجلى ثراء هذا البحث التفسيرى المقارن فى أوج أزدهاره وعطائه : كلما اتسع مجال المقارنه وعظم التنوع والتقابل بين التفسيرين المقارنين فى مجال التفسير بالرأى خاصة ولا سيما فى المضمار المذهبى العقدى ، وفى الاتجاهات العلمية المتباينة التى حمل أصحابها ألوية التبريز فيها فتدفقت فى تفاسيرهم خصلات تلك العلوم والثقافات المتعـــددة ، كالتفاسير اللغوية والنحوية والبلاغية والكلامية ونحوها .

ورغم رحابة ساحة البحث فى مجال التفسير المقارن : فإن الدراسات الجادة فيه كانت إلى عهد قريب جد نادرة (١)

---

(١) من تلك الدراسات التفسيرية القديمة التى تنتمى — بسبب — إلى المنهج المقارن : مصنف العلامة محمد بن يوسف الشامى الصالحى المتوفى سنة ٩٤٢ المسمى (الاتحاف بتميز ماتبع فيه البيضاوى صاحب الكشاف) ومنها : (الدر الثمين فى بعض ما ذكره أبو حيان وعارضه السمين) للعلامة بدر الدين الغزى المتوفى سنة ٩٨٤ وكلا المصنفين مثبت بفهرس الخزانة التيمورية . ومنها : تعليقة الشيخ رضى الدين المقدسى على تفاسير : الكشاف والبيضاوى وأبى السعود التى يذكر فيها أقوالهم الآية قائلا . قال الكشاف ، وقال =

بيد أنها ارتقت من الندرة إلى القلة مع بزوغ حركة البحث الجامعى فى التفسير ، إذا اتجهت الرسائل الجامعية فى تناولها لمناهج المفسرين إلى الأخذ - غالبا - فى المقارنه بين المنهج الذى هو موضع البحث وبين منهج مناظر لمفسر آخر .

وفى ضوء تلك المقارنة تتجلى أبعاد التفوق والقصور ومعالم التبريز ونقاط الضعف فى كليهما وتبلغ المقارنة أوج نضجها باكتمال اداة المفسر المقارن وحيدته وموضوعيته العلمية ، ومن أبرز الأمثلة لهذه الدرسات المعاصرة فى مكتبة التفسير القرآنى (منهج ابن عطية فى تفسير القرآن الكريم) و (الحاكم الجشمى ومنهجه فى تفسير القرآن) و (الرازى مفسرا) و (القرطبى ومنهجه فى التفسير) [1] وغير ذلك .

ولا تزال ساحة هذا الميدان فى حاجة إلى الفرسان من أهل القرآن .

وأما رابع هذه المناهج التفسيرية : فهو : (منهج التفسير الموضوعى) الذى هو موضوع بحثنا وهو ما سنتعرف عليه فى :

= القاضى ، وقال المفتى ثم يأخذ فى المحاكمة بينهم . (انظر كشف الظنون ١/٦٦) ومنها أيضا : (المحاكمات بين أبى حيان ابن عطية والزمخشرى) للشيخ يحي الساوى وهو مخطوط بمكتبة الأزهر .

(١) مؤلفو هذه الرسائل الأربع على الترتيب هم الدكاترة : عبد الوهاب فايد وعدنان زرزور - ومحسن عبد الحميد - كلية الآداب ببغداد - ثم الدكتور القصبي زلط

المبحث الثالث

التفسير الموضوعى للقرآن الكريم

فى هذا البحث : نتناول - بعون الله سبحانه - هذا اللون التفسيرى القديم والجديد معا بإلقاء الضوء عليه من عدة زوايا رئيسية تتمثل فى النشأة والتعريف والمنهج ، وما تعوز الحاجة إلى تعرفه بين يدى الخوض فى عباب الموضوعات التى يوفق الله تعالى لدراستها .

أما عن زاوية النشأة والتدرج التاريخى :

فإن جذور هذا اللون التفسيرى ملتفة بجذور التفسير التحليلى ومنوطة بها ، وكلاهما سقى فى الأصل بماء واحد هو البيان القرآنى والتفسير النبوى ، والتفت الساق بالساق حتى امتزج الصنوان وتلازما .

بيد أن مراعاة الترتيب القرآنى المصحفى قد مكنت للون التحليلى من السيادة والبروز حتى بطن اللون الموضوعى فى أحشائه أو لازمه فى خفاء مطاوعاً له فى نسقه إبان نشأته ولم يتخلف عنه - فى هذه النشأة - فى الوجود ؛ لاقتضائه له ضرورة ولزوما من حيث إن القرآن الكريم يفسر بعضه بعضا ، ولذلك قال أثبات علماء التنزيل : - « من أراد تفسير الكتاب العزيز طلبه أولا من القرآن ، فما أجمل منه فى مكان فقد فسر فى موضع آخر ، وما اختصر فى مكان - فقد بسط فى موضع آخر منه »(١) ومن ثم ألف ابن الجوزى - فى القرن السادس - كتابا فيما أجمل فى القرآن فى موضع وفسر فى موضع آخر منه ونقل عنه الامام السيوطى فى الاتقان فى نوع المجمل (٢) .

---

(١) أنظر الاتقان للامام السيوطى : النوع الثامن والسبعون ٤/١٧٤

(٢) نفس المرجع

ومن أمثلة ذلك: قوله تعالى (مالك يوم الدين)(١) نجد يوم الدين مفسرا في قوله سبحانه:

(وما أدراك مايوم الدين. ثم ماادراك مايوم الدين، يوم لاتملك نفس لنفس شيئا والأمر يومئذ لله)(٢) وقوله تعالى: (فتلقى آدم من ربه كلمات)(٣). نجد تفسير الكلمات فيه في قوله تعالى: (قالا ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين)(٤).

ومن ذلك أيضاً: ماأخرجه الإمام أحمد والشيخان عن ابن مسعود رضى الله عنهم قال: لما نزلت هذه الآية: (الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم)(٥) شق ذلك على الناس فقالوا. يارسول الله: وأينا لايظلم نفسه؟ قال: إنه ليس الذى تعنون، ألم تسمعوا ما قال العبد الصالح: (إن الشرك لظلم عظيم)(٦)؟ إنما هو الشرك»(٧).

ولقد كان من محتمات وجود التفسير الموضوعى منذ فجر النشأة التفسيرية توقف فهم النص القرآني - على حقيقته - على إدراك الملابسات والمناسبات والأسباب التى أحاطت به، ولاسيما عند التصدى لتفسير آيات الأحكام

---

(١) فاتحة الكتاب ٤

(٢) سورة الأنفطار ١٧-١٩.

(٣) سورة البقرة ٣٧ ؛

(٤) سورة الأعراف ٢٣.

(٥) سورة الأنعام ٨٢.

(٦) سورة لقمان ١٣.

(٧) الاتقان ٤/٢٠٢.

يعتريها النسخ أو التخصيص فلا يمكن الوقوف على الحكم الشرعى المحكم فيها دون استجماع سائر النصوص التى تعرض للحكم ومعرفة السابق منها واللاحق فى النزول للوقوف على الناسخ والمنسوخ .

ولنأخذ مثلا : عدة المتوفى عنها : لا يتسنى الوقوف عليها من قوله تعالى (والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا وصية لأزوجهم متاعا إلى الحول)(١) لأنها نسخت بالآية الكريمة الأخرى : (والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشرا)(٢) .

وكذا حكم الخمر : لا يتسنى الوقوف عليه من قوله تعالى (يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس وإثمهما)(٣). أو من قوله تعالى : - (يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون)(٤) إلا بضميمة الآية الثالثة المحكمة والناسخة لهما وهى قوله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون) (٥) .

إن استجماع النصوص المتناولة للحكم ههنا ودرسها موضوعيا ضرورة لا مندوحة عنها لرؤية التدرج التشريعى فى حكم الخمر ولو اقتصر فى تعرف الحكم على النظر فى الآيتين الأوليين لما وقف على التحريم القاطع الذى استفيد من الآية الثالثة .

---

(١) سورة البقرة ٤٠ .
(٢) سورة البقرة ٢٣٤
(٣) سورة البقرة ٢١٩ .
(٤) سورة النساء ٤٣
(٥) سورة المائدة ٩٠ .

وبديهى أن تلك النظرة الموضوعية الشاملة كانت متوفرة بصورتها المثلى لدى الصحابة والتابعين وسلف الأمة الصالح الذين أوتوا من قوة الحافظة والقدرة الفائقة على استيعاب النصوص واستحضار الأشباه والنظائر القرآنية لكل اية بل ولكل لفظة فى التنزيل، حتى أننا لنجد فى القرن الثانى الهجرى مثلا عالما كمقاتل بن سليمان البلخى الذى صنف كتابا قيما فى (الوجوه والنظائر فى القرآن)(١) سلك فيه منهجا رائعا فأبرز فيه ما يمكن أن يسمى: (كليات القرآن) فيقول مثلا: (كل شىء فى القرآن « الأتراب »: يعنى مستويات فى الملاذ بنات ثلاث وثلاثين... وكل شىء فى القرآن « الأجداث »: يعنى القبور... والآء الله: يعنى: نعماء الله...» حتى أحصى له من هذه الكليات على حرف الألف اثنتان وثلاثون كلية(٢)!! وهكذا تبرز الاحاطة والموسوعية لدى أساطين علم التنزيل منذ القرن الثانى، فكان لدى السلف من الرؤية الموضوعية للتنزيل ما يتمكنون به — فى اقتدار — من استحضار ما يرتبط بموضوع الآية — من جميع جوانبه — من آيات أخرى تتكافل فى ابراز التكامل الموضوعى، وهذه ملكة وهبية ومنحه الهية حظى بها سلف الأمة الذين طلبوا العلم لله!!

واذا كان ترتيب القرآن الكريم فى المصحف قد ترك الترتيب الزمنى لنزول الآيات، وترك وحدة الموضوع فلم يلتزمها مطلقا ففرق الحديث عن الموضوع الواحد فى سياقات عديدة ومقامات مختلفة وهذا سر من أسرار إعجازه —.

---

(١) نشر هذا الكتاب حديثا بتحقيق د. عبد الله شحاته بعنوان (الاشباه والنظائر فى القرآن الكريم).

(٢) انظر مقدمة الأشباه والنظائر ص ٦٠ وانظر مصنفات (مقاتل) القرآنية فى (طبقات المفسرين) للداودى ٢/١ ٣٣ تجد فيها (متشابه القرآن) و (الناسخ والمنسوخ) و (الجوابات فى القرآن) وغيرها.

فإن اسلافنا عليهم الرضوان كان لديهم الاستحضار الكامل لأطراف كل موضوع كما قدمنا — ثم توفر لهم بالاضافة لتلك النظرة الشاملة: منهج التقصى الجزئى لآى — التنزيل وموضوعاته ، وذلك بتمكين العلوم العقلية والفلسفية التى جلبتها حركة الترجمة وازدهار التدوين العلمى فى العصر العباسى ، ويمكننا القول بأن هذا المنهج ليس الا محاولة تعويض كسبى عن بعض ما كان لدى الصدر الأول من السلف من ملكة وهبية وسليقة فطرية .

ولقد أثبتت بعض الدراسات فى (مناهج التفسير) ان الجاحظ — الذى يمثل طابع المدرسة العقلية فى التفسير — قد مارس اللون الموضوعى فى معالجاته القرآنية الممتدة فى تصانيفه لا سيما فى (الحيوان فتحدث مثلا عن موضوع (النار) فى القرآن الكريم مبررا مواطن تعظيمها فيه بادئا ببنى اسرائيل ونار القربان ثم معرجا على نار سيدنا موسى ثم نار سيدنا ابراهيم عليهم السلام ثم متناولا تنويه التنزيل بمنافع النار وهكذا ، وقد مارس هذا المنهج أيضا فى موضوع الملائكة والعذاب وغير ذلك(١) .

ونجد على امتداد المسار التاريخى للتفسير القرآنى وعلومه أعلاما تناولوا جوانب موضوعيه للتنزيل وأفردوها بالبحث والتصنيف ،

فى أواخر القرن الثالث — واوائل الرابع — نجد لأبى زيد البلخى سنة ٣٢٢ عدة مصنفات قرآنية تدور فى فلك التفسير الموضوعى وبعضها يسبر غور مقاصد التنزيل ويجسد موضوعاته من خلال سورة منه وهى أم القرآن ، فمن مصنفاته : — (بيان ان سورة الحمد تنوب عن جميع القرآن) وعنوانه يدل على نهجه الموضوعى ، ومنها (الحروف المقطعة فى أوائل السور) ومنها (قوارع القرآن) و (غريب القران) وغير ذلك(٢) .

---

(١) انظر : مناهج التفسير للدكتور مصطفى الصاوى الجوينى / ١٥٨

(٢) انظر : طبقات المفسرين للداودى ١ / ٤٣

ونجد فى القرن الرابع أيضا : مصنفا لابى منصور الازهرى ت. سنة ٣٧٠ هـ هو كتاب) الروح وما ورد فيها من الكتاب والسنه)(١) وليت التاريخ قد حفظ لنا مثل هذه الكنوز النادرة ! !.

وفى القرن الخامس : نجد أثباتا ممن ولجوا البحث الموضوعى فى القرآن الكريم . فبعضهم صنف فى (أسباب النزول) كأبى الحسن الواحدى و بعضهم الف فى : (الناسخ والمنسوخ) كهبة الله بن سلامة (ت سنة ٤١٠) .

وبعضهم صنف فى الوجوه والنظائر والمتشابه والغريب كأبى عبد الله الدامغانى (ت سنة ٤٧٨) صاحب (معرفة الوجوه والنظائر)(٢) والراغب الاصفهانى (ت سنة ٥٠٢ هـ) صاحب (المفردات) .

وفى القرن السادس : نجد — بالاضافة الى ابن الجوزى (ت ٥٩٧) الذى صنف كتابا (فيما أجمل فى القرآن فى موضع وفسر فى موضع اخر منه) — علماء اخرين أثروا الجانب الموضوعى القرآنى بتصانيفهم كأبى القاسم السهيلى (ت سنة ٥٨١ هـ) صاحب : (الاعلام بما فى القرآن من الأسماء والأعلام)(٣).

كما حظى القرنان السادس والسابع بمفخرة الاسلام الامام فخر الدين الرازى (ت سنة ٦٠٦ هـ) الذى جسد فى تفسيره العظيم معالم الوحدة الموضوعية للتنزيل وأبرز سريان هذه الوحدة فى كل سورة بتحليل رائع يربط فيه أصول الموضوعات بفروعها المتشعبة، فجاء تفسيره موسوعة تحليلية موضوعية فى آن واحد فجزاه الله عن القرآن واهله خيرا .

وفى القرن الثامن : نقف أيضا على تصانيف فى إطار التفسير الموضوعى

---

(١) نفس المرجع ٢ / ٦٢ .

(٢) أنظر : الحركة العلمية فى التفسير وعلوم القرآن الكريم فى القرن الخامس فى كتابنا (الواحدى ومنهجه فى التفسير) ص ٢٧ - ٤٥ ط : المجلس الاعلى للشئون الاسلامية .

(٣) انظر : طبقات المفسرين للداودى ١ / ٢٦٧ .

من ابرزها كتاب (التبيان فى أقسام القرآن) لابن القيم (ت سنة ٧٥١هـ) الذى تتبع فيه موضوع القسم فى التنزيل فى شتى مواضعه بالبحث والتحليل ..

ثم يستوقفنا فى هذا القرن على وجه الخصوص: الامام ابو اسحق الشاطبى (ت سنة ٧٩٠) الذى جسد الوحده الموضوعية فى القرآن فى كتابه (الموافقات)(١)

وفى القرن التاسع : نجد للشيخ مجد الدين الفيروز أبادى (ت سنة ٨١٧هـ) كتابا حافلا فى ميدان التفسير الموضوعى هو :(الدر النظيم المرشد الى مقاصد القرآن العظيم)(٢) .

وهكذا تتتابع الأبحاث والتصانيف الموضوعية للتنزيل عبر القرون والعصور مندثر اكثرها حتى يصبح العثور على أسمائها ضربا من الكشف العلمى ، ويصير وجدان هذه الاسماء فى بطون الأسفار من باب التعريف على الأثر الذى يدل على المسير !!

ثم جاء عصرنا فارتأى العلماء والباحثون أن حاجة هذا العصر ماسة الى هذا اللون الموضوعى الذى يتحتم إحياؤه — على اسس منهجية جديدة — لمقتضيين رئيسيين :—

أولهما : افتقاد ملكة الاستحضار الموضوعى للنصوص القرآنية المتعلقة بالموضوع الواحد ، وإعواز القدرة العلمية المتمكنة من استبطان الرؤية الموضوعية داخل المعالجة التحليلية الأفقية الشاملة ، كما كان ذلك متوفرا بالملكة الفطرية لدى الصدر الأول . أو بتضافر ثراء القوة الحافظة مع نضج القوة العاقلة كما تسنى لمن بعدهم .

وثانيهما : ابراز هدايه القرآن العظيم — بصورة مباشرة — لترتوى

---

(١) انظر تجسيده للوحدة الموضوعية ووحدة المقصد فى السورة القرآنية فى المسألة الثالثة عشرة من مسائل أصل الادلة (الكتاب): فى (الموافقات ٣ / ٢٧٨) ط صبيح بتحقيق محمد محى الدين .

(٢) انظر : طبقات الداودى ٢ / ٢٧٦ .

منها الانسانية جمعاء فى هذا العصر الذى يئن من ابتعاد اهله عن هدى السماء واخلادهم الى الأرض ، فيتحقق بهذا المنهج الموضوعى :ـ

(أ) تجسيد مقاصد التنزيل وتعميق مفاهيمه فى القلوب والإفهام .

(ب) وإبراز الإعجاز القرآنى فى كل من جوانبه العقدية . والتشريعية ، والأخلاقية .

(ب) وإمداد الداعية إلى الله بذخيرة لاتنفد وبمعين لا ينضب من مدد السماء وهديها المتدفق .

(د) وإزهاق أباطيل المستشرقين والمستفيدين الذين عموا وصموا عن رؤية الحق وسماع صوته فارجفوا بخبهم قبل التنزيل مدعين افتقاد التكامل الموضوعى فى القرآن لقصر أنظارهم عن رؤية الإعجاز فى النظم القرآنى وأسرار ترتيبه ، فكان لابد من إبراز هذا التكامل ليزداد الذين آمنوا إيمانا بعظمة كتاب ربهم وسطوع إشراق هديه وليهوى المكابرون إلى الجحيم .

إنما هو القرآن . . نور الله المشع فى العالمين .

ومن ثم ارتفع فى هذا العصر صوت المناداة بالتفسير الموضوعى ، للقرآن الكريم .

وتجددت الدعوة لإحياء هذا المنهج القديم فى صورة جديدة تستمد مقوماتها الأساسية من تراث الآباء العظام عبر خطى القرون والعصور المتعاقبة مضافا إليها عطاء الأبناء البررة على الطريق ، استرشاداً بنور الله ، وقربانا لقدسه .

فكانت حركة مباركة أسهم فيها الجمع من الباحثين سواء من رحاب الأزهر المعمور أم من خارجه ؛ وتدفقت كتاباتهم فى هذا المجال فمنها من التزم بالمنهج فوفى ومنها من سبقت نيته جهده (ولكل درجات مما عملوا . .) فكان من أبرز ما ظهر فى حقل التفسير الموضوعى — فى هذا العصر من أبحاث ومؤلفات :ـ

١ — تفسير الفاتحة للشيخ محمد عبده : وقد تأثر به الشيخ رشيد رضا في تفسير المنار في العناية بالجانب الموضوعي .

٢ — تفسير القرآن الكريم للشيخ محمود شلتوت : وقد سار فيه على منهاج شيخه محمد عبده .

٣ — المجتمع الإسلامي كما تنظمه سورة النساء للشيخ محمد المدني : وقد أبرز فيه مؤلفه الوحدة الموضوعية للسورة القرآنية .

٤ — الألوهية والرسالة والبعث في القرآن الكريم للشيخ محمد السماحي .

٥ — الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم للدكتور محمد حجازي : وقد عنى مؤلفه بتأصيل المنهج الموضوعي وتطبيقه .

٦ — الإنسان في القرآن الكريم للأستاذ عباس محمود العقاد ،

٧ — المرأة في القرآن الكريم للأستاذ عباس محمود العقاد .

٨ مشاهد القيامة في القرآن الكريم للمرحوم سيد قطب .

٩ — الربا في القرآن الكريم لأبي الأعلى المودودي .

١٠ — مقومات الإنسانية في القرآن الكريم للدكتور إبراهيم مهنا .

١١ — الصبر في القرآن الكريم للدكتور يوسف القرضاوي .

١٢ — التفسير الموضوعي للدكتور أحمد السيد الكومي ، وهو مؤلف قيم لرائد هذا المنهج بكلية أصول الدين .

١٣ — البداية في التفسير الموضوعي للدكتور عبد الحي الفرماوي .

١٤ — الفتوحات الربانية في التفسير الموضوعي للآيات القرآنية للدكتور الحسيني أبو فرحة ، وهو من خير ما ألف في بابه ويقع في جزأين يتوهج فيهما شعاع الروح القرآنية الصوفية :

ثم إلى جانب ذلك يتدفق الآن سيل من الرسائل والأبحاث الجامعية وغيرها متناولا للجوانب الموضوعية فى القرآن الكريم حيث أصبح هذا الميدان متجه الباحثين المعاصرين ، وللدكتور محمد البهى : جهد كبير فى هذا الصدد .

تعريف التفسير الموضوعى وبيان نوعيه :

قدمنا فى المبحث الأول من هذا المدخل : آراء العلماء حول تعريف التفسير القرآنى كعلم مدون يتربع على قمة العلوم الشرعية ، وسقنا ثلاثة من التعاريف التى تجسد حقيقة هذا العلم من رؤى مختلفة فى الزوايا ؛ متحدة فى المقصد .

وأثبتنا فى تناولنا لنشأة التفسير الموضوعى : أنه قرين للتفسير التحليلى فى النشأة والوجود على الحقيقة ؛ وإن بطن فى داخله حينا ثم ظهر موازيا له أحيانا .

بيد أن التسمية الاصطلاحية له بهذا المركب الوصفى : — (التفسير الموضوعى) لم تعرف إلا حديثا فى هذا العصر ، فذهب هذا اللون التفسيرى القديم الجديد إلى الموضوع ، لاتجاه منهج البحث فيه إلى دراسة الموضوع الواحد مكتملا فى القرآن الكريم كله . أو إلى إثبات وبيان الوحدة الموضوعية(١) للسورة القرآنية الواحدة ومن ثم كان للتفسير الموضوعى نوعان : —

---

(١) يعنى بالوحدة الموضوعية — كمركب وصفى — : اتحاد الموضوع الذى ذكر متناثرا ، وتكامل أركانه وأجزائه فى إطار واحد متسق بلا تباين ولا إختلاف

(النوع الأول) — وهو الذى يكاد ينصرف الاسم إليه ، لأنه أشمل من قسيمه ومناط جل مباحث هذا اللون — ويعرف بأنه :

(بيان الآيات القرآنية الكريمة المرتبطة بموضوع واحد فى التنزيل بعد جمعها وترتيبها حسب نزولها — واستنباط ما يتعلق بها من حكم وأسرار ومعارف تتكشف بها جوانب الموضوع وأبعاده المختلفة) .

(النوع الثانى) : هو : (تناول السورة القرآنية بالبيان والكشف عن مقاصدها وأغراضها العامة والخاصة مع ربط موضوعاتها المختلفة ببعضها ؛ وإبراز المقصد الرئيس الذى تحققه السورة الكريمة فى إطاره المتسق) .

وقد أبرز الإمام الشاطبى فى (الموافقات) هذا النوع الموضوعى الثانى مع التطبيق العلمى على بعض سور التنزيل فيقول : (فاعتبار جهة النظم مثلا فى السورة لا تتم به فائدة إلا بعد استيفاء جميعها بالنظر ، فالاقتصار على بعضها فيه غير مفيد غاية المقصود ، كما أن — الاقتصار على بعض الآية فى استفادة حكم ما : لا يفيد إلا بعد كمال النظر فى جميعها .

فسورة البقرة مثلا : كلام واحد باعتبار النظم ، واحتوت على أنواع من الكلام بحسب ما بث فيها ، منها ما هو كالمقدمات والتمهيدات بين يدى الأمر المطلوب ، ومنها ما هو كالمؤكد والمتمم ، ومنها ما هو المقصود فى الإنزال — وذلك تقرير الأحكام على تفاصيل الأبواب — ومنها الخواتم العائدة على ما قبلها بالتأكيد والتثبيت ، وما أشبه ذلك) اهـ .

وقد كان الإمام الفخر الرازى من المبرزين فى بيان هذه الوحدة ،

= والموضوع — فى أى علم من العلوم — هو ما وضع للحمل عليه (للبحث فيه عن عوارضه الذاتية توصلا إلى الغاية المقصودة) . أنظر ، الوحدة الموضوعية فى القرآن الكريم للدكتور محمد حجازى / ٣٣ .

الموضوعية فى السورة القرآنية فى تفسيره، وإن لم يكن أول من ارتاد هذا المجال كما ذهب البعض(١) .

فقد أسلفنا بيان من سبق إلى هذه المعالجة الموضوعية فى القرنين الثالث والرابع كأبى زيد البلخى مصنف : (بيان إن سورة الحمد تنوب عن جميع سور القرآن) .

وعلى الرغم من أهمية دراسة هذا النوع الموضوعى فى التعرف على مقاصد التنزيل فى كل سورة على حدة ، فإن دراسة النوع الأول أعظم طائلا وأتم نفعا وأرحب أفقا وذلك : بيان التكامل الموضوعى فى التنزيل كله ، والتعرف على كافة المعالم والجوانب للموضوع القرآنى بجمع أطرافه المنبثه فى سائر السور والوقوف على كل من الناسخ والمنسوخ إذا كانا فى أكثر من سورة ، وكذا العام والخاص ، والمطلق والمقيد ، ومن ثم دعا إلى الأخذ بمنهج النوع الأول جلة من العلماء المعاصرين لعظم الإفادة منه ، كالشيخ محمد عبده والشيخ محمود شلتوت والأستاذ أمين الخولى والدكتور محمد البهى ، وبعضهم طرق ببحثه كلا النوعين(٢) :

---

(١) ذهب إلى ذلك الدكتور محمد حجازى فى بحثه القيم (الوحدة الموضوعية فى القرآن الكريم) وغيره ،

(٢) ممن تناول النوعين بالبحث من المعاصرين الدكتور محمد البهى فى سلسلة (التفسير الموضوعى للقرآن) حيث أفرد سوراً بالبحث الموضوعى ، كما تناول النوع الأول فى كتابه : (القرآن يقول . .) ومن تناول حديثا النوع الأول أيضا : الدكتور يوسف القرضاوى فى بحثه (الصبر فى القرآن).

« منهج البحث فى التفسير الموضوعى »(١)

يستهدف البحث الموضوعى فى القرآن الكريم — كما قدمنا — بيان هداية القرآن الكريم للإنسانية إلى الكمال المطلق والسعادة والخيرية فى دار الفناء ودار البقاء ، فهو دستور الحياة المثالية المقنن لجميع جوانبها العقدية والتشريعية والأخلاقية .

ولكى يتسنى للمفسر الموضوعى أن يجسد هدى القرآن الحكيم فى جميع هذه الجوانب ويبرز عطاء القرآن الزاخر لا بد له من أن يسير فى دراسته الموضوعية على منهج علمى دقيق وسديد تتفجر به ينابيع الهدى وتتفتح له مغاليق العرفان وتتجلى به روعة هداية التنزيل فى كل موضوع يتطرق البحث إليه ،

وتتمثل معالم هذا المنهج — الذى ارتضاه العلماء حديثا لدراسة التفسير الموضوعى — فيما يلى :

أولا : اختيار وتحديد الموضوع القرآنى الذى يناط به : البحث التفسيرى الموضوعى .

ولحسن اختيار الموضوع أثر بالغ فى ثراء البحث وعظم نتائجه ، ولا سيما إذا كان هذا الموضوع لم يطرق من قبل بالدراسة أصلا ، أو سلط عليه ضوء خافت لم يبرز عطاء القرآن . فيه هنا تكتسب الدراسة جديتها ، وأصالتها ويمتلك — بالمعالجة المنهجية — زمام المبادرة إلى ارتياد آفاق الموضوعية القرآنية التى لا يغيض نبعها .

ثانيا : جمع الآيات القرآنية الكريمة التى تناولت موضوع الدراسة من جوانبه المختلفه ولهذا الجمع وسائل نذكر من أبرزها :ـ

---

(١) هذا المنهج خاص بالنوع الأول وهو الذى إذا أطلق (التفسير الموضوعى) ينصرف إليه غالبا كما قدمنا .

(أ) كتاب (تفصيل آيات القرآن الكريم) للمستشرق الفرنسى (جول لابوم).

(ب) (المستدرك) وهو ملحق الكتاب السابق للمستشرق (أدوار مونتيه) — وكلاهما ترجمة الأستاذ محمد فؤاد عبد الباقى.

(جـ) (تبويب آى القرآن الكريم من الناحية الموضوعية) للدكتور أحمد ابراهيم مهنا وهو دراسة نقدية موضوعية لكتاب (جول لابوم) المذكور آنفا ومتممة له.

(د) (تفصيل موضوعات القرآن الكريم فى الآيات المتوافقة) للشيخ محمد عبد الله الجزار.

(هـ) (المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم للأستاذ محمد فؤاد عبد الباقى.

وأما الطرق الميسرة لجمع الآيات المتعلقة بموضوع البحث — بمعرفة هذه الوسائل — فتتمثل فى :

(أ) أخذ النصوص القرآنية المصنفة تحت عنوان الموضوع من الكتب المبوبة للآيات الكريمة.

(ب) أخذ الآيات المصرح فيها بلفظ الموضوع ومشتقاته من المعجم المفهرس.

(جـ) أخذ الآيات المصرح فيها بلفظ نقيض الموضوع وأضداده من المعجم أيضاً.

(د) أخذ الآيات المصرح فيها بمساوى النقيض.

وللتطبيق نقول. إذا كان البحث الموضوعى مثلا : عن الإيمان فى القرآن الكريم :

فإننا نجمع الآيات التى وردت تحت عنوان (الإيمان) فى المصادر الأربعة الأولى التى أوردناها فى وسائل جمع الآيات الكريمة التى تناولت موضوع الدراسة : ثم :

نأتى إلى مادة (أم ن) ومشتقاتها فى المعجم المفهرس ، فنحصل على الآيات المتعلقة بالموضوع ، وهى لا شك وغيرة ، وكذا نبحث فى مادة (ك ف ر) حيث نحصل على الآيات التى تناولت نقيض الموضوع (وبضدها تتميز الأشياء).

فإذا ما أردنا توسيع دائرة البحث : نبحث فى مادة (جحد) باعتبارها مساوى النقيض وإذا ما أردنا مزيداً من الإتساع(١) : بحثنا أيضاً فى مادة (س ل م) لتحصل على آيات الإسلام باعتبار تلاقية مع الإيمان فى الحقيقة الشرعية . وهكذا . . .

ثالثاً : ترتيب الآيات الكريمة المتناولة للموضوع حسب نزولها قدر المستطاع . وتمييز مكيها من مدنيها ، ولهذا الترتيب أهمية كبرى فى الدراسة التفسيرية الموضوعية إذ يتسنى به معرفة السابق واللاحق فإذا ما كان هنالك نسخ مثلا : —

حكم بنسخ اللاحق للسابق كما يراعى هذا الترتيب أيضاً فى العام والخاص والمطلق والمقيد ، فإذا لم يتسن الترتيب النزولى لجىء إلى الترتيب المصحفى.

رابعاً : التعرف على سبب نزول تلك الآيات الكريمة إن وجد — ففى الوقوف عليه فوائد جليلة ودفع لإشكالات ثقيلة، فضلا عن كونه عونا

---

(١) لا يخفى أن توسيع دائرة البحث يكون مرغوباً إذا ما استقل الموضوع القرآنى بالدراسة لا سيما فى أبحاث الرسائل الجامعية التى تتطلب استقصاء مادة البحث . أما فيما سوى ذلك فالمطلوب إجلاء جوهر الموضوع وجوانبه البارزة .

عظيما على فهم الآى من حيث أن العلم بالسبب يورث العلم بالمسبب، وقد قال الإمام الواحدى رحمة الله تعالى (لا يمكن معرفة تفسير الآية دون الوقوف على قصتها وبيان نزولها)، ومن أثرى المصادر فى هذا الصدر كتاب (أسباب نزول القرآن) للإمام الواحدى.

خامساً: التعرف على مناسبات تلك الآيات الكريمة فى مواضعها من سورها وتفهم ملابساتها الحافة بها فذلك له مترتباته الموضوعية الجوهرية.

سادساً: مما يجدر التنويه به: أن التفسير الموضوعى يبدأ — بصورته المنهجية — من حيث ينتهى التفسير التحليلى؛ فإن معطيات البحث التحليلى من الوقوف على المدلولات اللغوية والوجوه النحوية والأسرار البلاغية والأحكام الفقهية وغير ذلك: هى المواد الأولية التى ينتظم منها بناء التفسير الموضوعى.

سابعاً: الإستعانة فى البيان الموضوعى بالسنة الشريفة المبينة للقرآن فتجمع الأحاديث الشريفة التى تناولت موضوع البحث ويلقى ضوؤها الكاشف على مختلف مباحثه من زواياها المتعددة، ومن المصادر المعتمدة فى ذلك — بعد جوامع السنة الشريفة — كتب التفسير بالمأثور كالدر المنثور للإمام السيوطى وجامع البيان للإمام الطبرى وتفسير ابن كثير ونحو ذلك.

ثامناً: بعد استيفاء المادة العلمية للبحث من مصادرها المعتمدة تصنف مباحث الموضوع وترتب جوانبه المختلفة فى تكامل عضوى تتماسك به أجزاؤه وتترابط فقراته فى تسلسل فكرى متسق حتى تدفع المقدمات بالنتائج دفعاً وتنقشع غياهب اللبس وسحابات الإشكالات عن وجوه

بذور الحقائق وتتجلى عظمة الهدى السماوى المعجز فى إخراج البشرية من الظلمات إلى النور .

هذا هو المنهج .... وتلك معالمه .

وها هو ذا القرآن تنزيل رب العالمين محيط الأنوار والأسرار .. ينقضى الزمان ولا تنقضى عجائبه .. وتفنى العوالم ولا تزول معالمه .

وعلى تفنن واصفيه بحسنه   يفنى الزمان وفيه مالم يوصف

الإيمان فى القرآن الكريم

بسم الله الرحمن الرحيم

في ضياء القرآن الكريم وفي نور البيان النبوي الحكيم : نتعرف حقيقة الإيمان ونستكشف معالمه الوضاءة ونجتلي أسسه وأركانه وبناءه ، ونتعايش مع هدى التنزيل في تشييد الجانب العقدي الذي هو معقد الاتصال بالحق تبارك وتعالى ومناط الصلاحية المطلقة في الأولى والآخرة .

فالإيمان هو قلب هذا الدين يدين به الناس لرب العالمين ، وهو هدف الرسالة والتبشير والإنذار وإنزال هذا القرآن العظيم : (إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا . لتؤمنوا بالله ورسوله وتعزروه وتوقروه وتسبحوه بكرة وأصيلا) (١) (آلر . كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد .

الله الذي له ما في السموات وما في الأرض وويل للكافرين من عذاب شديد) (٢) .

والإيمان هو دعوة القرآن والنبي صلى الله عليه وسلم كما قال عز من قائل : (ربنا إننا سمعنا مناديا (٣) — ينادي للإيمان أن آمنوا بربكم

---

(١) سورة الفتح ٨ — ٩ (٢) سورة إبراهيم ١ — ٢

(٣) قال الإمام أبو السعود في تفسيره (٣٠٧/١) : (والمراد بالمنادي : الرسول ﷺ وتنوينه : للتفخيم ، وإيثاره على الداعي : للدلالة على كمال اعتنائه بشأن الدعوة وتبليغها إلى الداني والقاصي لما فيه من الايذان برفع الصوت .. ثم قال : وقيل : المنادي القرآن العظيم) .

فآمنا)(١) . هي دعوة الحق ومعراج القرب والوصول إلى الله عز وجل .

وإذا كان الإيمان هو دعوة القرآن الكريم ونداءه العلوى فما أحوجنا إلى دوام الإصغاء إلى هذا النداء ، ولا يكون هذا الاصغاء بمجرد الآذان فإن الإيمان محله القلب فلا يسمع إلا بالقلوب فما أحرى القلوب بتلقى هذا النداء والتعرف عليه من كتاب الله الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد .

وقد جاء حديث الإيمان فى القرآن الكريم متعدد الجوانب والأبعاد فى العديد من سوره المكية والمدنية فى مواطن بالغة الكثرة . فقد ورد ذكر الإيمان بمشتقاته — بهيآتها المختلفة (٨١١) مرة . فورد بصيغة المصدر (٤٥) مرة وبصيغة الفعل الماضى (٣٤٢) مرة — وبصيغة المضارع (١٧٥) مرة وبصيغة الأمر (١٩) مرة وبصيغة اسم الفاعل (٢٣٠) مرة(٢) .

هذا فضلا عن الآيات التى تعرضت للإيمان دون التصريح بلفظه بأن ورد فيها لفظ النقيض : (الكفر) أو مساويه . (الجحد) أو الاشراك ونحوها .

ولو رمنا التماس متعلقات الإيمان — على الحقيقة — فى القرآن لما عزبت

---

(١) سورة آل عمران/ ١٩٣

(٢) الاحصائية من المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم للأستاذ محمد فؤاد عبد الباقى مادة (أ م ن) وتصنيف المادة ههنا للمؤلف فإن لم يبلغ مبلغ التحقيق فهو منه قريب وقد اقتصر هنا على إحصاء مادة الإيمان (اللازم) دون (المتعدى) لأن الأول — هو المستعمل فى الحقيقة الشرعية .

عنا اية واحدة !! لأن التنزيل كله دعوة إلى الإيمان كما أسلفنا . فحسبنا فى هذه الدراسة : أن نتناول جوهر الموضوع ومعالمه القرآنية البارزة وما يوضحها أو يعين على فهمها من السنة الشريفة تناولا موضوعيا يتيح الرؤية الشمولية المتكاملة بحيث يصبح من السهولة بمكان سبر أغوار أى جانب منه على حدة بعد رؤيته موصولا بكله المتكامل .

ومن ثم : تراءى لنا أن أبرز هاتيك المعالم والجوانب التى جسدها التنزيل الحكيم فى عرض موضوع (الايمان) تتمثل فيما يلى :

(أولا) : حقيقة الإيمان وعلاقته بالإسلام وبالإحسان فى الإطار الكامل للدين .

(ثانياً) : زيادة الإيمان ونقصانه وأسبابهما .

(ثالثاً) : أركان الإيمان ودعائمه الرئيسية .

(رابعاً) : شعب الايمان .

(خامساً) مقاييس الإيمان وصفات المؤمنين .

(سادساً) : ثمرة الإيمان فى الدنيا والآخرة .

(سابعاً) : نماذج إيمانية فى القرآن الكريم والسنة المطهرة .

فأما عن :

حقيقة الإيمان وعلاقته بالإسلام والاحسان فى إطار الدين

فجدير بنا — أولا — أن نتعرف الحقيقة اللغوية للإيمان وعلاقته بالإسلام فى هذا الصدد قبيل التعرف على الحقيقة الشرعية ، لاسيما وقد جرى الاستعمال القرآنى للإيمان بكل من الحقيقتين على حدة كما سنتبين بعد .

فعن الحقيقة اللغوية يقول العلامة الزمخشرى : « والإيمان : إفعال من الأمن ، يقال : آمنه : إذا صدقه .

وحقيقته : آمنه التكذيب والمخالفة . وأما تعديته بالباء : فلتضمينه معنى أقر واعترف . وأما ما حكى أبو زيد عن العرب : « ما آمنت أن أجد صحابه » أى : ما وثقت ، فحقيقته : صرت ذا أمن به ، أى ذا سكون وطمأنينة)(١) اهـ . وأيضاً يقول أبو حيان فى تفسيره : «الإيمان : التصديق . (وما أنت بمؤمن لنا)(٢) .

وأصله : من الأمن أو الأمانة . ومعناها : الطمأنينة . أمنه : صدقه ، وأمن به : وثق به ، والهمزة فى (أمن) : للصيروره ، كأعشب . أو لمطاوعة فعل كأكب ، وضمن معنى الاعتراف أو الوثوق فعدى بالباء وهو يتعدى بالباء واللام (فما امن لموسى)(٣) والتعدية باللام فى ضمنها تعد بالباء . فهذا فرق ما بين التعديتين)(٤) اهـ

ومن ثم يعلم : أن المعنى الحقيقى الأصلى الذى وضع له لفظ الإيمان أولا فى اللغة هو جعل الشخص امنا ثم أطلق على التصديق أما من قبيل الوضع الحقيقى اللغوى .

ثانياً : لمعنى اخر يناسبه ، وإما من قبيل الإطلاق المجازى اللزومى من حيث أنك إذا صدقت إنسانا فقد أمنته التكذيب(٥) . وكذا إطلاق

---

(١) الزمخشرى : تفسير الكشاف ١/١٢٦ — ١٢٧
(٢) سورة (يوسف) ١٧
(٣) سورة (يونس) ٨٣
(٤) أبو حيان : البحر المحيط ١/٣٨
(٥) أنظر حاشية السيد الشريف الجرجانى على الكشاف ١/١٢٦

الإيمان بمعنى الوثوق إنتقال من الملزوم إلى اللازم أيضاً ، لأن من كان ذا أمن فهو فى وثوق وطمأنية هذا : وقد استعمل الإيمان فى التنزيل متعديا بنفسه بكل من إطلاقيه الأول والثانى فجاء بالإطلاق الأول فى قوله تعالى (وآمنهم من خـــوف)(١) وجاء بالإطلاقين فى قوله سبحانه (السلام المؤمن)(٢) حيث ورد فى تفسير اسمه تعالى (المؤمن) وجهان : أحدهما : أنه المصدق للمؤمنين ما وعدهم به من الثواب والمصدق للكافرين ما أوعدهم به من العقاب .

وثانيهما : أنه : الذى يأمن أولياؤه من عذابه ويأمن عباده من ظلمه(٣) .

وكذلك استعمل الإيمان فى التنزيل متعديا بالباء أو اللام بحقيقته اللغوية (التصديق) كما فى قوله تعالى (وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين)(٤) وقوله سبحانه) والذين آمنوا بالباطل وكفروا بالله أولئك هم الخاسرون)(٥) وهكذا يرد الإيمان فى القرآن لمطابق التصديق بحق أو باطل .

والإسلام أيضا له فى اللغة استعمالان : فيستعمل متعديا بنفسه ويكون بمعنى التسليم أى البذل والإعطاء والإنفاذ ومنه قوله تعالى (بلى من أسلم وجهه لله . .)(٦) فأسلم فيه بمعنى سلم وخلص والمعنى : بذل وجهه الله فى السجود(٧) .

---

(١) سورة قريش / ٤
(٢) سورة الحشر / ٢٣
(٣) انظر تفسير القرطبى ١٨/٤٦ وحاشية الجمل على الجلالين ٤/٣٢١
(٤) سورة (يوسف) ١٧
(٥) سورة العنكبوت / ٥٢
(٦) سورة البقرة / ١١٢
(٧) الواحدى تفسير البسيط ١/٢٨٤

وكذلك يستعمل لازما ويكون بمعنى مطلق الإنقياد والاستسلام والدخول فى السلم كما أن الإصباح هو الدخول فى الصباح ، فتكون همزته للإدخال(١) .

وهذا المعنى المستفاد من استعمال الإسلام لازما راجع إلى معناه متعديا ، لأن من انقاد واستسلم للغير فقد سلم نفسه إليه(٢) .

وحينما نعقد المقارنة بين معنى الإيمان والاسلام فى اللغة بين يدى تمثل الحقيقة الشرعية لكل منهما : نجد أن التصديق أخص من الانقياد ، لأن محل الأول هو القلب خاصة ، فلا يصح إطلاق التصديق على الاقرار اللسانى إلا بضرب المجاز ، بينما يصدق الانقياد والاستسلام على كل من الظاهر والباطن ، ومن ثم : يكون الاسلام أعم — فى المدلول اللغوى — من الايمان عموما مطلقا . وأما تقييد الاسلام — فى اللغة — بكونه ظاهريا : فليس من مفاد الحقيقة اللغوية أصلا والمرجح أنه حقيقة عرفية قد استقيت من تبادر المعنى الحسى الظاهرى للإنقياد(٣) .

ثم ننتقل إلى الحقيقة الشرعية للايمان والاسلام :

فنجد أهل القبلة قد تعددت مذاهبهم واتجاهاتهم فى مسمى الايمان الشرعى .

---

(١) من قبيل هذا الاطلاق اللغوى فى التنزيل : قوله تعالى : (فلما أسلما وتله للجبين) قال الإمام ابن عباس فى تفسيرها : (استسلما) انظر تفسير القرطبى ١٥/١٠٤

(٢) انظر المختار من كنوز السنة للدكتور دراز ٥٧

(٣) انظر المختار من كنوز السنة للدكتور محمد عبد الله دراز ص ٥٨ — ٥٩

ودورنا ههنا : هو وضع أبرز هذه الإتجاهات الرئيسية تحت ضوء القرآن الكاشف لتقويمها وتحكيم النص القرآنى فيها لتتسنى الرؤية الموضوعية للإيمان بمنأى عن الأثرة المذهبية . وتتمثل أبرز الإتجاهات فيما يلى :

أولا : إتجاه الكرامية . وهم الذين يزعمون أن الإيمان الشرعى هو مجرد الإقرار باللسان دون القلب ، وأنكروا أن تكون معرفة القلب أو شيء غير التصديق باللسان إيمانا ، وزعموا أن المنافقين الذين كانوا على عهد الرسول ﷺ كانوا مؤمنين على الحقيقة(١) .

وقد رد القرآن الكريم هذا المتجه فى قوله تعالى (ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين)(٢) حيث نفى الحق تعالى الإيمان عن المنافقين مع وجود الإقرار اللسانى منهم(٣) وأثبت لهم أشد العذاب بقوله سبحانه (ان المنافقين فى الدرك الأسفل من النار)(٤) .

ثانيا : إتجاه جمهور المرجئة(٥) : الذين يرون أن الإيمان هو التصديق

---

(١) انظر مقالات الإسلاميين للإمام الأشعرى ٢٢٣/١

(٢) سورة البقرة ٨

(٣) نص الإمام النسفى فى تفسيره (١ /١٨) على بطلان مذهب الكرامية بهذه الآية .

(٤) سورة النساء ١٤٥

(٥) نقول : هذا إتجاه جمهور المرجئة فى مجموعهم لأنهم ينقسمون إلى اثنتى عشرة فرقة . والإتجاهات هنا : لما اشتهر لمجموعهم كما نص عليه ابن حجر فى الفتح ٥٢/١ والدكتور دراز فى المختار من كنوز السنة ص ٦١ وتفصيل مذاهب فرقهم فى (مقالات الإسلاميين ٢١٣/١) .

باللقلب واللسان معا فحسب ولادخل للعمل فيه بحال ، وان الطائع والعاصى فى قسط الرحمة سواء حيث زعموا أنه لا تضر مع الإيمان معصية كما أنه لا تنفع مع الكفر طاعة وقد أبطل التنزيل إهدارهم للعمل وتسويتهم بين الطائع والعاصى فى قوله سبحانه :

أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ساء مايحكمون)(١) (ومن يعصى الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله نارا خالداً فيها وله عذاب مهين)(٢) (فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره)(٣) هذا عن قيمة العمل . وأما : جعلهم الإقرار شطرا للتصديق القلبى فى تحقيق الإيمان فآت تفنيده .

ثالثا : إتجاه المعتزلة والخوارج والزيدية(٤) القائلين بأن الإيمان اسم لأفعال القلوب والجوارح والإقرار باللسان . وأن من أخل بأى ركن من الأركان الثلاثة : الاعتقاد والإقرار والعمل لايعد مؤمنا ، بيد أن الخوارج والزيدية جعلوا مرتكب الكبيرة كافرا(٥) والمعتزلة تقول أن الفاسق ليس بمؤمن ولا كافر وتسميه : منزلة بين المنزلتين وأن من أدخله الله النار خلده فيها(٦) . وقد أخذ هؤلاء وأولئك عامة آيات الوعيد فسووا بين معصيه الكفر أو الشرك وما دونها .

---

(١) سورة الجاثية ٢١ (٢) سورة النساء ١٤ (٣) سوره الزلزلة ٧-٨

(٤) ممن صنف الفرق الثلاثة فى إتجاه واحد : الإمام فخر الدين الرازى فى تفسيره (١/١١٣) .

(٥) انظر قول الزيدية والخوارج فى مرتكب الكبيرة فى (مقالات الاسلاميين ١/١٤٩ ، ١٧٠) .

(٦) نفس المصدر ١/٣٣١ ، ٣٣٤

بيد أن كثرة كاثرة من النصوص القرانية داحضة لمذهبهم فى إخراج العاصى من دارة الايمان لمجرد إقترافه لما ورد فية الوعيد ومثبتة لبقاء تسميه بالمؤمن . من ذلك قوله تعالى (يا أيها الذين امنوا كتب عليكم القصاص فى القتلى الحر بالحر والعبد بالعبد والأنثى بالأنثى فمن عفى له من أخيه شىء فاتباع بالمعروف وأداء إليه باحسان ذلك تخفيف من ربكم ورحمة ..)(١) يقول الإمام الواحدى فى تفسيرها :

(وفى هذه الآية أدلة على القدرية : أحدها : قوله فى إفتتاح الآية « يا أيها الذين امنوا كتب عليكم القصاص » ولا خلاف فى أن القصاص واقع فى قتل العمد فلم يسقط اسم الايمان عن القاتل بارتكاب هذه الكبيرة .

والثانى : ماذكرنا فى قوله من أخيه(٢) .

والثالث : قوله « ذلك تخفيف من ربكم ورحمة » وهما يلحقان المؤمنين »(٣) .

وكذلك جعل الحق تعالى لما دون الشرك من المعاصى حكما اخر غير حكم الشرك . وذلك فى قوله : (إن الله لايغفر أن يشرك به ويغفر مادون ذلك لمن يشاء)(٤) . وقد جعل سبحانه من عصى ولم يشرك رهن مشيئته فى معرض الغفران والمنة .

---

(١) سورة البقرة ١٧٨

(٢) قال قبل هذا الاستدلال فى تفسير قوله تعالى (فمن عفى له من أخيه شىء) : (أراد من دم أخيه فحذف المضاف للعلم به واراد بالأخ : المقتول ، سماه أخا للقاتل فدل على أن أخوة الاسلام بينهما لا تنقطع وأن القاتل لم يخرج عن الايمان بقتله) البسيط ١/٣٨٤

(٣) الواحدى تفسير البسيط ١/٣٨٤ (٤) سوره النساء ٤٨

كما سمى الله تعالى المذنبين باسم المؤمنين فى قوله جل شأنه : (وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا ..)(١).

وينحسم الموضوع كليا — بعد استقصاء تلك المفادات من الآيات الكريمات — بما ورد فى حديث سيدنا أبى ذر رضى الله عنه من قوله ﷺ («ما من عبد قال لا إله إلا الله ثم مات على ذلك إلا دخل الجنة ، وإن زنا وإن سرق وإن زنا وإن سرق وإن رغم أنف أبى ذر)(٢) ودونك أحاديث الشفاعة تعاضد ما أوردنا من الآيات الدامغة لهذا المذهب .

رابعا : اتجاه سلف الأمة الصالح : وهو أن الإيمان تصديق بالجنان ونطق باللسان وعمل بالأركان . إلا أن كلا من النطق والأعمال شرط فى الكمال عندهم بخلافه عند المعتزلة فإنه جزء من حقيقته كما سلف(٣) .

فأساس الإيمان ومحوره وعماده المنجى من الخلود المؤبد فى النار هو التصديق المركب من القبول والإذعان لما ثبت مجيء النبى ﷺ به من الدين بالضرورة .

وهذا التصديق هو الحقيقة الشرعية للإيمان عند إمامنا الأشعرى رضى الله عنه وأصحابه بيد أنهم يتطلبون معه الإقرار كمنشأ لإجراء الأحكام الدنيوية والعمل لزيادته واكتماله(٤) وهذا هو الاتجاه الحق الذى يشهد له التنزيل وتظاهره السنة الشريفة .

---

(١) سورة الحجرات/ ٩

(٢) أخرجه الشيخان والإمام أحمد عن أبى ذر . انظر الفتح الكبير ٣/١١٤ .

(٣) أنظر عمدة القارى شرح صحيح البخارى ١/١٢٣ وفتح المبدى مختصر الزبيدى ١/٨٥ .

(٤) أنظر روح المعانى للإمام الألوسى ١/١١٠ وفتح المبدى ١/٨٤ .

أما الدلائل القرآنية التى تشهد بحقيقته : فمنها :

١ — قوله تعالى (أولئك كتب فى قلوبهم الإيمان)(١) فقد أضاف الإيمان فيه إلى القلب لأنه محل التصديق ، وقد أكد العلامة أبو السعود هذه الدلالة بقوله فى تفسير هذه الجملة الكريمة : «كتب فى قلوبهم الإيمان» أى : أثبته فيها ، وفيه دلالة على خروج العمل من مفهوم الإيمان فإن جزء الثابت فى القلب ثابت فيه قطعا ولا شيء من أعمال الجوارح يثبت فيه)(٢) .

٢ — قوله تعالى : (وقلبه مطمئن بالإيمان)(٣) قال العلامتان البيضاوى وأبو السعود عند تفسير هذه الآية الكريمة (وفيه دليل على أن الإيمان هو التصديق بالقلب)(٤) .

٣ — قوله تعالى(قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان فى قلوبكم)(٥) قال الإمام الفخر فى تفسيرها : (لما قالوا آمنا وقيل لهم لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا . قالوا : إذ أسلمنا فقد آمنا ، قيل لا ، فإن الإيمان من عمل القلب لا غير والإسلام قد يكون عمل اللسان . .)(٦) .

٤ — قوله تعالى (والذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون)(٧) حيث عطف العمل على الإيمان والعطف يقتضى المغايرة فدل على أن الإيمان هو التصديق فحسب والعمل خارج عن مسماه ، قال القاضى البيضاوى (وعطف العمل على الإيمان يدل على خروجه عن مسماه)(٨).

---

(١) سورة المجادلة /٢٢ . (٢) أنظر إرشاد العقل السليم ١٤٨/٥ .
(٣) سورة النحل /١٠٦ .
(٤) أنظر إرشاد العقل السليم ١٩٤/٣ وأنوار التنزيل ٤٧٠/١ .
(٥) سورة الحجرات /١٤ . (٦) أنظر مفاتيح الغيب ٥٨٤/٧ .
(٧) سورة البقرة /٨٢ . (٨) أنظر أنوار التنزيل ٦١/١ .

٥ — قوله تعالى (ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا يخاف ظلما ولا هضما)[١] حيث جعل الإيمان شرطا لصحة الأعمال مع القطع بأن المشروط لا يدخل فى شرط الامتناع اشتراط الشىء لنفسه . إذ أن جزء الشرط شرط[٢] .

وأيضا : هناك من السنة الشريفة أحاديث تظاهر هذا المتجه فى حقيقة الإيمان منها ما رواه الترمذى عن السيدة أم سلمة رضى الله عنهـا قالت : وقد سئلت عن أكثر دعاء النبى ﷺ (كان أكثر دعائه : يامقلب القلوب ثبت قلبى على دينك)[٣] فجعل الإيمان فى القلب فحسب ونسبه إليه فدل على أنه فعل القلب وليس سوى التصديق .

وروى الإمام أحمد بسنده عن أنس رضى الله عنه قال : كان رسول الله ﷺ يقول : (الإسلام علانية والإيمان فى القلب قال : ثم يشير بيده إلى صدره ثلاث مرات قال : ثم يقول : التقوى ههنا التقوى ههنا)[٤] ودونك فى السنة الكثير من تلك الشواهد . فإذا ماورد للإيمان إطلاق على ما هو أهم من التصديق وغيره - كالدين - فذاك من قبيل المجاز . ثم نأتى إلى :

(علاقة الإيمان بالإسلام) :

ونقدم لذلك بالتعرف على الحقيقة الشرعية للإسلام ، وقد أسلفنا أن حقيقته اللغوية هى الخضوع والانقياد ، فحقيقته شرعا : الانقياد لله بقبول

---

(١) سورة طه /١١٢ .

(٢) أنظر روح المعانى ١١٢/١ .

(٣) أخرجه الترمذى فى سننه : (كتاب الدعوات) ٣٨/٥

(٣) أنظر مسند الإمام أحمد ١٣٥/٣ .

رسول الله ﷺ بالتلفظ بكلمتى الشهادة والاتيان بالواجبات والانتهاء عن المنكرات[١] . أو هى الامتثال الظاهرى لأوامر الشرع ونواهيه .

وبالوقوف على الحقيقة الشرعية لكل من الإيمان والإسلام نجد أنهما متغايران لغة وعرفا وان تلازما شرعا باعتبار المصدق — أى الذات المتصفة بهما حيث أنه لا يوجد مسلم على الحقيقة — عند الله وعندنا — ليس بمؤمن — كما أنه لا يوجد مؤمن بنفس المثابة ليس بمسلم[٢] وقد وردت آيات التنزيل الحكيم باستعمال كل منهما فى حقيقته الشرعية :

فمن ذلك قوله تعالى (قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الايمان فى قلوبكم)[٣] قال الواحدى : (نزلت فى أعراب من بنى أسد بن خزيمة قدموا على رسول الله ﷺ المدينة فى سنة جدبة فأظهروا الشهادتين ولم يكونوا مؤمنين فى السر . . .)[٤] ففى الآية الكريمة دليل على مغايرة الايمان الإسلام حيث نفى الايمان عن الاعراب وثبت لهم الاسلام . لاختصاص الايمان بالتصديق القلبى ، والاسلام بالامتثال الظاهرى

وقد استدل ابن كثير بهذه الآية الكريمة على أن الايمان أخص من الاسلام[٥] ، بيد أن الحق كما ذكر شيخ الاسلام العينى : أن بينهما عموما وخصوصا من وجه ، لأن الايمان أيضا قد يوجد بدون إسلام فيما إذا

---

(١) انظر عمدة القارى شرح البخارى للإمام العينى ١/١٢٢ — ١٢٣

(٢) انظر فتح المبدى بشرح مختصر الزبيدى لشيخ الاسلام الشيخ عبد الله الشرقاوى ١/٨٦

(٣) سورة الحجرات ١٤

(٤) الواحدى : أسباب النزول ٤١٩

(٥) انظر تفسير ابن كثير ٧/٣٦٧

اعتقد الكافر جميع ما يجب الايمان به اعتقادا جازما ومات فجأة قبل الاقرار والعمل (١) .

ومن ثم استدل الامام الزهرى بالآية الكريمة على مغايرة الاسلام للإيمان (٢) .

ونجد فى التنزيل كذلك من الآيات مايوهم ظاهره عدم التفرقة بين مسمى الإيمان والإسلام وإن اللفظين مترادفان كما فى قوله تعالى :(فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين)(٣) .

حيث استدل المعتزلة ومن وافقهم بهذه الآية الكريمة على اتحاد الإيمان والإسلام للاستثناء المعنوى ، حيث أن المعنى : فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين فلم يكن المخرج إلا أهل بيت واحد ، وهو استدلال ضعيف لأن أهل هذا البيت قد جمعوا بين الإيمان القلبى والاسلام الظاهرى فاستحقوا الوصفين معا فسموا بهما لافادة مدحهما بكل منهما وإن كلا من الوصفين حرى بجعله سببا للنجاه فاتفق الاسمان هنا لخصوصية الحال ولا يلزم ذلك فى كل حال (٤) .

وقد بينت السنة الشريفة حقيقة كل من الايمان والاسلام بابراز متعلق كل منهما وبيان تكاملهما مع الركن الثالث (الاحسان) فى بناء الدين الكامل وذلك فى حديث سيدنا جبريل الذى أطلق عليه الأئمة (أم السنة)

---

(١) انظر عمدة القارىء ١/١٢٣ .

(٢) انظر شرح النووى على صحيح مسلم ١/١٤٤ ط المصرية .

(٣) سورة الذاريات ٣٥ — ٣٦ .

(٤) انظر تفسير ابن كثير ٧/٢٩٩ وروح المعانى ٢٧/١٤ .

و (أصل الاسلام) (١) .

فقد روى الامام البخارى عن سيدنا أبى هريرة رضى الله عنه قال : (كان رسول الله ﷺ يوما بارزا للناس فأتاه رجل فقال : ما الايمان ؟ قال الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وبلقائه (٢) ورسله وتؤمن بالبعث . قال ما الإسلام : الاسلام أن تعبد الله ولا تشرك به ، وتقيم الصلاة وتؤتى الزكاة المفروضة وتصوم رمضان : قال : ما الإحسان ؟ قال : أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك . قال متى الساعة ؟ وقال : ما المسئول عنها بأعلم من السائل . وسأخبرك عن أشراطها : إذا ولدت الأمة ربها وإذا تطاول رعاة الإبل البهم فى البنيان فى خمس لا يعلمهن إلا الله ، ثم تلا النبى ﷺ « إن الله عنده علم الساعة » (٣) . ثم أدبر فقال : ردوه فلم يروا شيئا ، فقال : هذا جبريل جاء يعلم الناس دينهم)(٤) قال أبو عمرو بن الصلاح فى شرح هذا الحديث الشريف : (هذا بيان لأصل الإيمان وهو التصديق الباطن وبيان لأصل الإستسلام والانقياد الظاهر .

ثم إن اسم الإيمان يتناول مافسر به الاسلام فى هذا الحديث وسائر الطاعات لكونها ثمرات للتصديق الباطن الذى هو أصل الإيمان ومقويات ومتممات ، وحافظات له ، ولهـــذا فسر ﷺ الايمان فى وفد عبد القيس

---

(٥) انظر شرح النووى على صحيح مسلم ١/١٦٠ وفتح الملهم ١/١٦٧ بتحقيق محمد محى الدين .

(٢) فى رواية الإمام مسلم (أن تؤمن بالله وملائكته وكتابه ولقائه أنظر صحيح مسلم بشرح النووى ١/١٦٢ .

(٣) سورة لقمان ٣٤ .

(٤) انظر صحيح البخارى ١/١٢ ط محمد عبد اللطيف حجازى .

بالشهادتين والصلاة والزكاة وصوم رمضان وأعطاء الخمس من المغنم)(١).

وهذا لعمرى تحليل رائع يزيل اللبس عن الأفهام فى فهم حقيقة كل من الإيمان والاسلام: حيث أنه قد يطلق الايمان فى القرآن مرادا به مايعم الايمان والاسلام جميعاً كما فى قوله تعالى : (أفمن كان مؤمنا كمن كان فاسقا لايستوون (٢) فإن الايمان هنا جامع للباطن والظاهر معا بدليل البشر فى الآية التالية (أما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم جنات المأوى نزلا بما كانوا يعملون) .

كما أنه قد يطلق الايمان فى القرآن على بعض ماصدقات الإسلام كما فى قوله تعالى (وما كان الله ليضيع إيمانكم) (٣) فالمراد بالإيمان ههنا : الصلاة ولذا نجد الامام البخارى فى صحيحه يبوب أبواب العبادات الظاهرة داخل كتاب الايمان فيقول مثلا : « باب الصلاة من الايمان وقول الله تعالى (وما كان الله ليضيع إيمانكم) يعنى صلاتكم عند البيت »(٤) اهـ .

وكذلك يطلق الاسلام فى القرآن وفى السنه مرادا به مايعم التصديق الباطنى والانقياد الظاهرى جميعا وهو الدين كما فى قوله تعالى (إن الدين عند الله الاسلام)(٥) وقوله سبحانه (فلا تموتن إلا وانتم مسلمون)(٦) وقوله جل شأنه (ورضيت لكم الاسلام دينا) (٧) ومن المسلم به أن الدين لايكون فى محل القبول والرضا إلا بانضمام التصديق إلى العمل . وانطلاقا من فهم

---

(١) انظر شرح النووى على صحيح مسلم ١/١٤٨ .

(٢) سورة السجدة ١٨ .

(٣) سورة البقرة ١٤٣ ،

(٤) انظر صحيح البخارى : كتاب الايمان ١/١٠ .

(٥) سورة آل عمران ١٨ (٦) سورة البقرة ١٣٢

(٧) سورة المائدة ٣ .



حقيقة هذه الوشيجة بين الإيمان والإسلام يقول الإمام البغوى معلقا على حديث سؤال سيدنا جبريل السابق : (جعل النبي ﷺ الإسلام اسما لما ظهر من الأعمال وجعل الإيمان أسما لما بطن من الاعتقاد ، وليس ذلك لأن الأعمال ليست من الايمان . والتصديق بالقلب ليس من الإسلام . بل ذلك تفصيل لجملة هى كلها شيء واحد وجماعها الدين ، ولذلك قال ﷺ : ذاك جبريل أتاكم يعلمكم دينكم(١) .

وقد أكد القرآن الكريم إرتباط كل من الإيمان والإسلام بالإحسان فقال تعالى : (وأن الله لايضيع أجر المؤمنين الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح للذين أحسنوا منهم وأتقوا أجر عظيم) ويقول سبحانه (ومن أحسن دينا ممن أسلم وجهه لله وهو محسن) .

وأخيرا يقرر العلماء حقيقة أعتبرت قاعدة استقرائية فى علاقة الايمان بالإسلام وهى : أنهما (إذا اجتمعا افترقا وإذا افترقا اجتمعا) .

فإذا ذكر لفظا الإيمان والإسلام معا فى سياق واحد افترقا فى المدلول فاختص الايمان بالتصديق والإسلام بالعمل والإنقياد الظاهرى كما فى قوله تعالى (ان المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات . . .)(٢) .

وأما إذا افترقا فى الذكر ولم تكن هناك قرينة تدل على اختصاص المذكور بأصل معناه كما فى قوله تعالى (وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه)(٣) : كان المراد بالمذكور معناه ومعنى صاحبه ويكون الاكتفاء لما بينهما من ارتباط وتعلق بحقيقة واحدة هى الدين : (إن الدين عند الله الإسلام) .

---

(١) انظر شرح الإمام النووى على صحيح الإمام مسلم ١/١٤٥

(٢) سورة الأحزاب ٣٥ (٣) سورة غافر/٢٨

ثم نتنقل إلى حديث القرآن عن :

(زيادة الإيمان ونقصانه)

فنجد : ست آيات كريمات صرحت بزيادة الايمان وهى بترتيبها حسب النزول كما يلى :

١ — قوله تعالى (وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة وماجعلناعدتهم إلا فتنة للذين كفروا ليستيقن الذين أوتوا الكتاب ويزداد الذين آمنوا إيمانا . .)(١) .

٢ — قوله تعالى : (الذين قال لهم الناس ان الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل)(٢) .

٣ — قوله تعالى : (إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا وعلى ربهم يتوكلون)(٣) .

٤ — قوله تعالى : (ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله ومازادهم إلا إيمانا وتسليما)(٤) .

٥ — قوله تعالى : (هو الذى أنزل السكينة فى قلوب المؤمنين ليزدادوا إيمانا مع إيمانهم(٥) .

---

(١) سورة المدثر ٣١
(٢) سورة آل عمران ١٧٣
(٣) سورة الانفال ٢
(٤) سورة الأحزاب ٢٢
(٥) سورة الفتح ٤

٦ — قوله تعالى : (وإذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول أيكم زادته هذه إيمانا فأما الذين آمنوا فزادتهم إيمانا وهم يستبشرون)[١] وكل هذه الآيات مدنية ما عدا آية المدثر فإنها مكية .

وإلى جانب هذه الآيات الست نجد آيات أخرى تفيد زيادة الايمان وان لم يصرح فيها بلفظ الايمان ، وقد استدل ببعض منها : الإمام البخارى فى صحيحه[٢] على زيادة الايمان جريا على عادته فى الاستدلال لترجمة الباب بالقرآن وبما وقع له من سنة مسندة أو أثر عن صحابى ونحوه ، فمن ذلك : قوله تعالى (. . ويزيد الله الذين اهتدوا هدى)[٣] .

ومنها قوله تعالى : (. . انهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى)[٤] .

ومنها قوله تعالى : (والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم)[٥] .

وهذه الآيات مجتمعة تدل على زيادة الايمان ، ففى آية (المدثر) يبين الحق تعالى أنه ما جعل عدد ملائكة النار إلا العدد الذى اقتضى فتنة الكفار وهو التسعة عشر حيث يستبعدون أن يتولى هذا العدد القليل تعذيب أكثر الثقلين وذلك ليكتسب أهل الكتاب اليقين بنبوة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وصدق القرآن لما رأوا ذلك موافقا لما فى كتابهم وليزداد الذين آمنوا ـ بالإيمان به وتصديق أهل الكتاب له ـ إيمانا[٦] ،

وفى آية (الفتح) : يبين لنا سبحانه : أنه أنزل الطمأنينة والسكون إلى

---

(١) سورة التوبة ١٢٤
(٢) انظر الجامع الصحيح للإمام البخارى كتاب الايمان ١/٥
(٣) سورة مريم ٧٦ — (٤) سورة الكهف ١٣
(٥) سورة (محمد) ١٧
(٦) أنظر تفسير البيضاوى ٢/٤٠٩

ما جاء به الرسول ﷺ فى قلوب المؤمنين ليزدادوا بهذا الإنزال إيمانا بشرائع الدين مع إيمانهم كلما نزل التنزيل بواحدة منها آمنوا بها بينت آية الأنفال (.. وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا) وكما أوضحت آية التوبة (فأما الذين آمنوا فزادتهم إيمانا ..).

وهكذا تعطى جملة الآيات الكريمات مفادا راسخا وهو زيادة الإيمان. وكما قال العلامة الكرمانى رحمه الله: كل ما قبل الزيادة لابد أن يكون قابلا للنقصان ضرورة(١) وكما قال ابن بطال: فإيمان من لم تحصل له الزيادة ناقص(٢).

ومن عجيب أسرار القرآن أنه يزداد به إيمان المؤمنين وكفر الكافرين وخسار الظالمين حسب نوعيات قلوبهم جميعاً. فنقرأ ثانية آية التوبة مع تاليتها لنتدبر هذا المعنى:

(وإذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول أيكم زادته هذه إيمانا فأما الذين آمنوا فزادتهم إيمانا وهم يستبشرون. وأما الذين فى قلوبهم مرض فزادتهم رجسا إلى رجسهم وماتوا وهم كافرون) ثم نقرأ قول الحق تعالى شأنه: (وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خسارا)(٣):

ونأتى إلى هذا السؤال. بم يزداد الإيمان وبم ينقص؟

والجواب كما أورده الإمام النووى عن ابن بطال: أن التصديق يكمل بالطاعات كلها فكلما أزداد المؤمن من أعمال البركان إيمانه أكمل، وبهذه الجملة

---

(١) انظر عمدة القارى ١/١٢٥

(٢) انظر شرح النووى على مسلم ١/١٤٦

(٣) سورة الإسراء ٨٢

يزيد الإيمان . وبنقصانها ينقص فمتى نقصت أعمال البر نقص كمال الإيمان . ومتى زادت زاد الإيمان كمالا(١) .

ومن ثم يعلم أن الزيادة والنقص يتناولان أصل الإيمان وهو التصديق وثمرته وهى الأعمال قال الإمام النووى (ان نفس التصديق يزيد بكثرة النظر وتظاهر الأدلة ولهذا : أيكون إيمان الصديقين أقوى من إيمان غيرهم بحيث لا تعتريهم الشبه ولا يتزلزل إيمانهم بعارض بل لا تزال قلوبهم منشرحة نيرة وإن اختلفت عليهم الأحوال ، وأما غيرهم من المؤلفة ومن قاربهم ونحوهم فليسوا كذلك فهذا مما لا يمكن إنكاره ولا يتشكك عاقل فى أن نفس تصديق أبى بكر الصديق رضى الله عنه لا يساويه تصديق آحاد الناس ، ولهذا قال البخارى فى صحيحه : قال ابن أبى مليكة : أدركت ثلاثين من أصحاب النبى ﷺ كلهم يخاف النفاق على نفسه !! ما منهم أحد يقول إنه على إيمان جبريل وميكائيل والله أعلم)(٢) .

وإنما للفائدة نقول : ان الإيمان الذى هو قابل للزيادة والنقص إنما هو إيمان البشر من غير النبيين أما إيمان الأنبياء والملائكة فهو فى زيادة بلا نقصان وأما إيمان الله تعالى المدلول عليه بقوله سبحانه (المؤمن المهيمن) فهو بلا زيادة ولا نقصان .

* * *

---

(١) انظر شرح النووى على مسلم ١/١٤٦

(٢) نفس المرجع ١/١٤٨

أركان الايمان

من الحقائق العلمية القرآنية التى أجمع عليها علماء التنزيل وقام عليها منهج التفسير الموضوعى : أن القرآن الكريم يفسر بعضه بعضا ، فما أجمل منه فى موضع : فصل فى موضع آخر فى أى سورة منه .

بيد أنه من لطائف أسرار التنزيل : أن يتضمن صدر السورة مجملا ويأتى تفصيله فى خاتمتها ، وما بين البدء والخاتمة تتنوع المقاصد والأغراض وبعضها آخذ بحجز بعض فى سياق معجز تتآخى فيه المقدمات مفضية إلى النتائج فى نظم باهر وروعة أخاذة .

فى صدر سورة البقرة (فسطاط القرآن) : نقرأ قوله تقدست أسماؤه (الم . ذلك الكتاب لاريب فيه هدى للمتقين . الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون) فنتساءل : ما المراد بهذا الغيب الذى هو متعلق إيمان المؤمنين المتقين ؟

ونجد الجواب مفصلا فى خاتمة نفس السورة الكريمة فى قوله تعالى : (آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير)(١) .

روى الإمام الواحدى فى تفسيره عن أبى العالية رضى الله عنه انه قال فى قوله تعالى : (يؤمنون بالغيب) : يؤمنون بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وجنته وناره ولقائه ، وبالبعث بعد الموت ، ثم يقول الامام

---

(١) سورة البقرة/٢٨٥

الواحدى : وكأن هذا إجمال ما فصل فى قوله . (كل آمن بالله وملائكته.) الآية(١) .

ويقول الإمام الآلوسى قدس الله سره — بعد أن عرض الأقوال فى بيان المراد بالغيب : (والذى يميل إليه القلب : أنه ما أخبر به الرسول ﷺ فى حديث جبريل عليه السلام وهو : الله تعالى وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره . لأن الإيمان المطلوب شرعا هو ذاك)(٢) ،

فمتعلقات الإيمان فى حديث جبريل عليه السلام هى نفسها متعلقاته فى خاتمة (البقرة) حيث عرض كل منهما لأركان الايمان الستة وهى :

١ — الإيمان بالله تعالى .

٢ — الايمان بالملائكة عليهم السلام .

٣ — الايمان بالكتب المنزلة على رسل الله صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .

٤ — الايمان برسل الله على رسولنا الأعظم وعليهم الصلاة والسلام.

٥ — الايمان باليوم الآخر وما فيه من الحساب والجزاء .

٦ — الإيمان بالقدر خيره وشره وحلوه ومره .

فأما عن الركن الأول :

---

(٢) أنظر تفسير البسيط للواحدى ٥٩/١

(٢) أنظر روح المعانى ١١٤/١

(الإيمان بالله تعالى)

فقد تصدر بقية الأركان فى سياق الأوامر الالهية الايمانية فى التنزيل ، فقال تعالى : (فآمنوا بالله ورسله وان تؤمنوا وتتقوا فلكم أجر عظيم)(١) (يا أيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله والكتاب الذى نزل على رسوله والكتاب الذى أنزل من قبل)(٢) وهو قلب نداء الرسول وكل رسول : (ربنا إننا سمعنا مناديا ينادى للإيمان أن آمنوا بربكم فآمنا)(٣) .

والايمان بالله تعالى يقوم على خمسة أصول تكفل التنزيل الحكيم ببيانها وترسيخها وهى :

(أ) الايمان بوجوده تعالى .

(ب) الايمان بصفاته عز وجل .

(ج) الايمان بأفعاله جل شأنه .

(د) الإيمان بأحكامه تعالت حكمته .

(هـ) الإيمان بأسمائه تقدست أسماؤه .

أما الأصل الأول : وهو الإيمان بوجوده تبارك وتعالى : فقد تجلت عظمة القرآن وروعة بيانه فى ترسيخ هذا الأصل الأصيل فى الفطر السوية. ولله در حجة الاسلام ابى حامد الغزالى رضى الله عنه إذ قال فى هـــذا الصدد(٤) :

---

(١) سورة ال عمران /١٧٩ (٢) سورة النساء /١٣٦

(٣) سورة ال عمران / ١٩٣

(٤) هذا النص ذكره حجة الاسلام فى الاحياء (١/٩٣ط العثمانية) فى كتاب قواعد العقائد تحت عنوان (الأصل الأول : معرفة وجوده تعالى) .

(وأول ما يستضاء به من الأنوار ويسلك من طريق الاعتبار : ما أرشد إليه القرآن ، فليس بعد بيان الله سبحانه بيان وقد قال تعالى :

(ألم نجعل الأرض مهادا . والجبال أوتادا . وخلقناكم أزواجا . وجعلنا نومكم سباتا وجعلنا الليل لباسا . وجعلنا النهار معاشا . وبنينا فوقكم سبعا شدادا وجعلنا سراجا وهاجا وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجا لنخرج به حبا ونباتا وجنات ألفافا)(١) .

وقال الله تعالى : (إن فى خلق السموات والأرض وإختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون)(٢) .

وقال تعالى : (ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقا . وجعل القمر فيهن نورا وجعل الشمس سراجا . والله أنبتكم من الأرض نباتا ثم يعيدكم فيها ويخرجكم إخراجا)(٣) .

وقال تعالى : (افرأيتم ما تمنون ! أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون ! نحن قدرنا بينكم الموت وما نحن بمسبوقين . على أن نبدل أمثالكم وننشئكم فيما لاتعلمون . ولقد علمتم النشأة الأولى فلو لاتذكرون . افرأيتم ما تحرثون ! أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون ! لو نشاء لجعلناه حطاما فظلتم تفكهون . إنا لمغرمون . بل نحن محرومون . أفرأيتم الماء الذى تشربون ! أأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون ! لو نشاء جعلناه أجاجا فلولا تشكرون أفرأيتم

---

(١) سورة النبأ ٦ — ١٦

(٢) سورة البقرة ١٦٤

(٣) سورة (نوح) ١٥ — ١٨

النار التى تورون ؟ أأنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشئون ! نحن جعلناها تذكرة ومتاعا للمقوين(١) . فسبح باسم ربك العظيم)(٢) ،

فليس يخفى على من معه أدنى مسكة من عقل إذا تأمل بأدنى فكره مضمون هـــذه الآيات وأدار نظره على عجائب خلق الله فى الأرض والسموات وبدائع فطرة الحيوان والنبات أن هذا الأمر العجيب والترتيب المحكم لا يستغنى عن صانع يدبره وفاعل يحكمه ويقدره . بل تكاد فطره النفوس تشهد بكونها مقهوره تحت تسخيره ، ومصرفة بمقتضى تدبيره ، ولذلك قال تعالى :

(أفى الله شك فاطر السموات والأرض)(٣) .

ولهذا بعث الأنبياء — صلوات الله (وسلامه) عليهم — لدعوه الخلق إلى التوحيد ، ليقولوا : (لا إله إلا الله) . وما أمروا أن يقولوا : لنا إله وللعالم إله ، فإن ذلك كان مجبولا فى فطره عقولهم من مبدأ نشوئهم وفى عنفوان شبابهم ، ولذا قال لك عز وجل : (ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله)(٤) وقال تعالى : (فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم)(٥) .

---

(١) إلى هنا منتهى النص القرانى الذى أورده حجة الإسلام والآية التالية أوردناها تبركا .

(٢) سوره الواقعة ٥٨ — ٧٤

(٣) سوره (إبراهيم) ١٠

(٤) سوره الزمر ٣٨

(٥) سوره (الروم) ٣٠

فإذا : فى فطرة الإنسان وشواهد القرآن مايغنى عن إقامة البرهان(١) .

ولقد تنوعت أساليب القرآن فى الدعوة إلى الإيمان بالله تعالى ، فتارة يوجه العقول إلى تصفح آيات الكون المفتوح من سمائه إلى أرضه حاثا على تدبر آيات الله فى الآفاق .

(قل انظروا ماذا فى السموات والأرض وما تغنى الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون)(٢) .

وتارة يوجه نظر الإنسان إلى نفسه يتعرف بها ربه فيتصفح آيات العالم الصغير بعد العالم الكبير فيوجه الأنظار إلى الأدلة الأنفسية بعد الآفاقية:
(سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق)(٣) .

فكان من روعة الإعجاز القرآنى : أن يجسد القرآن الكريم تلك الآيات الأنفسية حتى تبدوا أمام النظر العقلى فى معرض البداهة التى لا يتوقف عن اكتساب معطياتها الإيمانية إلا كفور النفس والعقل والقلب (قتل الإنسان ما أكفره . من أى شىء خلقه ؟ من نطفة خلقه فقدره . ثم السبيل يسره(٤) . ثم أماته فأقبره ، ثم إذا شاء أنشره . كلا لما يقض ما أمره . فلينظر الإنسان إلى طعامه: أنا صببنا الماء صبا . ثم شققنا الأرض شقا فأنبتنا فيها حبا وعنبا وقضبا . وزيتونا ونخلا . وحدائق غلبا . وفاكهة وأبا متاعا لكم

---

(١) حجة الإسلام مولانا الإمام الغزالى رضى الله عنه : إحياء علوم الدين ١/٩٣ - ٩٤ .

(٢) سورة يونس / ١٠١ (٣) سورة فصلت / ٥٣

(٤) أى سهل له مخرجه من بطن أمه بأن فتح له فوهة الرحم وألهمه أن ينعكس للخروج أو - مع ذلك - ذلل له سبيل الخير والشر . وفيه إيماء إلى أن الدنيا مجرد طريق لمقصد غيرها هو الآخرة .

ولأنعامكم)(١) وآيات الله فى الأنفس والآفاق قد حفل بها التنزيل بصورة تتأبى على الحصر ههنا .

وتارة أخرى يستخدم القرآن المنهج الجدلى لتقرير مبدأ الألوهية وهذا المنهج شائع فى عرض قصص الرسل مع أقوامهم كما فى قصص سيدنا نوح وسيدنا إبراهيم وسيدنا موسى على نبينا وعليهم الصلاة والسلام . (فليرجع إليها فى التنزيل ففيها من الإعجاز الجدلى حظ جزيل) .

وأما عن الأصل الثانى من أصول الإيمان بالله تعالى وهو :

(ب) الإيمان بصفاته عز وجل :

فقد قرر القرآن الكريم هذا الأصل بجلاء وكان معتمد علماء العقيدة من جهابذة متكلمى أهل السنة وغيرهم فى هذا الصدد . فاستقوا من معين القرآن الذى لا ينضب . يقول الإمام الباقلانى : « والإيمان بالله تعالى : يتضمن التوحيد له سبحانه والوصف له بصفاته ونفى النقائص عنه الدالة على حدوث من جازت عليه .

والتوحيد له هو : الإقرار بأنه ثابت وجود وإله فرد معبود ليس كمثله شىء على ما قرر به قوله تعالى : (وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم)(٣) .

---

(١) سورة عبس /١٧ - ٣٢

(٢) إقرأ مثلا قوله تعالى : (ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون) إلى آخر الآية /٢٠ من سورة الروم ثم إقرأ قوله تعالى : (أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت ؟) إلى آخر الآية /٢١ من سورة الغاشية . وإقرأ فى سورة (المؤمنين) : (ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين) الخ .

(٣) سورة البقرة /١٦٣ .

وقوله : (ليس كمثله شيء وهو السميع البصير) (١)

وأنه الأول قبل جميع المحدثات . الباقي بعد المخلوقات على ما أخبر به تعالى من قوله : (هو الأول والاخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم) (٢) .

والعالم الذى لا يخفى عليه شيء . والقادر على اختراع كل مصنوع وإبداع كل جنس مفعول على ما أخبر به فى قوله تعالى .

(الله خالق كل شيء) (٣) ، (وهو على كل شيء قدير) (٤) . .) (٥) ا ﻫ
إن هذا النص يبرز بجلاء أن القرآن الكريم كان هو المنبع الحقيقى لعقيدة السلف رضوان الله عليهم وهو عماد حجتهم وسند مذهبهم .

وإذا ما أمعنا النظر فى التنزيل وجدنا قضية الوحدانية مستهدف العديد من آياته لدحض أباطيل الشرك وترسيخ دعائم التوحيد باعتباره أول دعوة الرسل جميعا وأول واجب على المكلف : (وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى اليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون) (٦)

من ثم أجلى القرآن الكريم دلائل الوحدانية جلاء ساطعا ونعى على المشركين ترديهم فى مهاوى الشرك الذى هو أقبح الظلم (إن الشرك لظلم

---

(١) سورة الشورى /١١ (٢) سورة الحديد /٢

(٣) سورة الانعام /١٠٢ والرعد /١٦

(٤) سورة هود /٤ والملك / ١

(٥) أنظر : الانصاف للامام أبى بكر الباقلانى بتحقيق الشيخ محمد زاهد الكوثرى ص : ٢٣

(٦) سورة الانبياء /٢٥

عظيم)(١) فقال تعالى : (أم اتخذوا آلهة من الأرض هم ينشرون ؟؟ لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا فسبحان الله رب العرش عما يصفون . لا يسأل عما يفعل وهم يسألون . أم اتخذوا من دونه آلهة قل هاتوا برهانكم هذا ذكر من معى وذكر من قبلى بل أكثرهم لا يعلمون الحق فهم معرضون)(٢) أفبعد برهان الحق برهان ؟ ؟

لقد أثبت القرآن الكريم فى هذه الآيات الكريمات وحدانيته تعالى بما يسمى عند المتكلمين (برهان التمانع) وذلك فى قوله سبحانه (لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا) حيث أن المعنى : لو كان فيهما جنس الآلهة غير (٣) الله لم توجدا . لكن عدم وجودهما أى السموات والأرض — باطل لمشاهدة وجودهما . فبطل ما أدى إليه وهو وجود جنس الآلهة غير الله . فثبت أن الله واحد وهو المطلوب (٤) .

ويبين حجة الإسلام وجه الاستدلال بهذه الآية الكريمة على ثبوت الوحدانية لله تعالى قائلا : (وبيانه : أنه لو كان اثنين وأراد أحدهما أمراً : فالثانى إن كان مضطرا إلى مساعدته كان هذا الثانى مقهورا عاجزا ولم يكن إلها قادرا ، وإن كان قادرا على مخالفته ومدافعته كان الثانى قويا قاهراً والأول ضعيفا قاصراً ولم يكن إلها قادراً)(٥) .

---

(١) سورة لقمان / ١٣ (٢) سورة الأنبياء / ٢١ — ٢٤

(٣) ذكر المفسرون أن (إلا) فى هذه الآية الكريمة يتعين جعلها وصفا بمعنى غير ولا يجوز جعلها أداة استثناء لعدم شمول ما قبلها لما بعدها انظر تفسير البيضاوى ٢/٥٥

(٤) انظر تحفة المريد على جوهرة التوحيد للإمام الشيخ ابراهيم البيجورى / ٦٠

(٥) أنظر : إحياء علوم الدين ١/٩٦

تعالى الله القائل : (ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذ الذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض سبحان الله عما يصفون . عالم الغيب والشهادة فتعالى عما يشركون)(١). (قل لو كان معه آلهة كما يقولون إذا لابتغوا إلى ذى العرش سبيلا سبحانه وتعالى عما يقولون علوا كبيرا. تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن وان من شيء ألا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم أنه كان حليما غفورا)(٢) .

ثم تأتى سورة (الاخلاص) بعظمتها وجزلها ونورانيتها معلنة حقوق الألوهية لله الواحد الأحد الفرد الصمد (قل هو الله أحد . الله الصمد — لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد) ،

وسبب نزولها — كما يروى الإمام الواحدى عن الأئمـــة . قتادة والضحاك ومقاتل — أنه (جاء ناس من اليهود إلى النبى ﷺ فقالوا : صف لنا ربك ، فإن الله أنزل نعته فى التوراة ، فأخبرنا : من أى شيء هو؟ ومن أى جنس هو ؟ من ذهب هو أم نحاس أم فضة ؟ وهل يأكل ويشرب ؟ وممن ورث الدنيا هو؟ ومن يورثها ؟ فأنزل الله تبارك وتعالى هذه السورة ، وهى نسبة الله خاصة)(٣) .

يقول الاثبات : لقد نفت هذه السورة أنواع الكفر الثمانية !! لأن قوله (قل هو الله أحد) : نفى الكثرة والعدد . وقوله : (الله الصمد)(٤) نفى القلة والنقص ، وقوله : لم يلد ولم يولد) : نفى الشبه والنظير . فهو

---

(١) سورة (المؤمنون) ٩١/٩٢

(٢) سورة الإسراء ٤٢ — ٤٤

(٣) أنظر أسباب النزول للواحدى / ٥١٠

(٤) الصمد : هو المصمود إليه أى المقصود فى الحوائج فهو الغنى عن العالمين المفتقر إليه من كل أفراد العالمين . سبحانه وتعالى .

سبحانه كما قال (ليس كمثله شيء وهو السميع البصير)(١) وقد أجمل القاضي دلالة الأحدية في السورة الكريمة على نفس التعدد في الذات والصفات والأفعال (٢) فقال : —

(وأحد : بدل أو خبر ثان يدل على : مجامع صفات الجلال كما دل الله على جميع صفات الكمال ، إذ الواحد الحقيقي : ما يكون منزه الذات عن أنحاء التركيب والتعدد وما يستلزم أحدهما ، كالجسمية والتحيز والمشاركة في الحقيقة وخواصها ، كوجوب الوجود والقدرة الذاتية والحكمة التامة المقتضية للألوهية)(٣) .

كما تناولت آيات التنزيل سائر الصفات الثبوتية والسلبية لله تعالى في مواطن عديدة ، وناهيك بسيدة آي القرآن (الله لا اله إلا هو الحي القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم له ما في السموات وما في الأرض من ذا الذي يشفع عنده الا باذنه يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون بشيء من علمه الا بما شاء وسع كرسيه السموات والأرض ولا يؤوده حفظهما وهو العلي العظيم)(٤) .

له تعالى : القدم والبقاء والعلم الشامل : (هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم) (٥)

---

(١) سورة الشورى /١١

(٢) هذه الركائز الثلاث للوحدانية تنفي — عند المتكلمين — كموماً خمسة هي (الكم المتصل في الذات) وهو تركبها من أجزاء (والكم المنفصل فيها) و (الكم المتصل في الصفات) و (الكم المنفصل فيها) وهو مشابهة صفته تعالى كما تنفي (الكم المنفصل في الافعال) راجع تحفة المريد ص : ٥٩ — ٦٠

(٣) أنظر أنوار التنزيل ٢/٤٥٥ (٤) سورة البقرة ٢٥٥

(٥) سورة الحديد ٣

وله القدرة التامة (وكان الله على شيء قديرا) (١) (إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون) (٢) .

وله الارادة النافذة (إن ربك فعال لما يريد) (٣)

وهو السميع البصير : (وكان الله سميعا بصيرا) (٤)

وهو سبحانه المتكلم بكلامه القديم : (وكلم الله موسى تكليما) (٥) : أى أزال عنه الحجاب وأسمعه الكلام القديم ثم أعاد الحجاب (٦) وهو تعالى المنزه عن جميع جهات التركيب وعن التحيز والجسمية والجوهرية والعرضية والحلول والاتحاد وكل ما هو من لوازم الحدوث اذ هو تعالى مخالف للحوادث من جميع الوجوه كما قال عز من قائل - (ليس كمثله شيء) (٧) له الكمال والجلال والجمال (تبارك اسم ربك ذى الجلال والاكرام) (٨)

حـ — الايمان بأفعاله جل شأنه :

فقد قرر التنزيل وحدة الأفعال لله تعالى خلقا وإيجادا فقال عز من قائل (الله خالق كل شيء وهو على كل شيء وكيل) (٩) ولا ريب أن كل من سواه وما سواه تعالى ممكن محدث ، والبداهة قاضية بأن الممكن المحدث لا يوجد بذاته بل لابد له من موجد يوجده وهو القديم تعالى شأنه ، لكل ماسواه تعالى أنما حصل بتخليقه ، وأيجاده وتكوينه وقد صرح التنزيل بأن أفعال العباد الاختيارية وغيرها أنما هى من خلقه تعالى أيضا فقال عز من قائل : (والله خلقكم وما تعلمون (١٠)

---

(١) سورة الفتح ٢١ — (٢) سورة (يس) ٨٢
(٣) سورة هود ١٠٧ — (٤) سورة النساء ١٤٨
(٥) سورة النساء ١٦٤ — (٦) انظر تحفه المريد ٧٤
(٧) الزمر ٦٢ — (٨) سورة الرحمن ٧٨
(٩) سورة الزمر ٦٢ — (١٠) سورة الصافات ٩٦

كما دلل سبحانه على علمه بسر العبد وجهره : بأنه خالق لهما ، من حيث أن الخلق يستلزم علم الخالق بمخلوقه جملة وتفصيلا ، فقال جل شأنه : (وأسروا قولكم أو أجهروا به إنه عليم بذات الصدور ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير) (١) ،

هذا : وخلق الله تعالى لأفعال العباد لا ينافى كونها مقدورة لهم على سبيل الكسب والاكتساب اللذين هما مناط الثواب والعقاب - كما قرره أهل السنة والجماعة - قال تعالى : « لا يكلف الله نفسا إلا وسعها لها ما كسبت وعليها ما أكتسبت »(٢) ،

ومع أن الفعل كله خيره وشره لله تعالى فقد علمنا القرآن الكريم ألا ننسب إليه تعالى إلا الخير والحسن وأن ننسب الشر والخطيئة لأنفسنا كسبا وإن كانا لله خلقا ، وهذا من أدب القرآن العظيم : ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك) (٣) أى كسبا كما يفسره قوله تعالى (وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم) (٤) ، كما صرح التنزيل بحقيقة الأمر بقوله سبحانه (قل كل من عند الله) (٥) .

ودفعا لتوجه السؤال عليه تعالى ممن لا يفقه أدب العبودية مع حقوق الربوبية : قال تعالى : (لا يسأل عما يفعل وهم يسألون)(٦) فالأدب فى التسليم وذروة الإيمان مع كمال التسليم .

ثم نأتى إلى الأصل الايمانى الرابع :

---

(١) سورة الملك ١٣ — ١٤

(٢) سورة البقرة ٢٨٦

(٣) سورة النساء ٧٩

(٤) سورة الشورى ٣٠

(٥) سورة النساء ٧٨ .

(٦) سورة الأنبياء ٢٣ .

(د) الإيمان بأحكامه تعالت حكمته :

ومبنى هذا الأصل على دعائم أربعة :

الدعامة الأولى : أن أحكامه تعالى غير معللة بعلة أصلا، لأن كل ما كان معللا بعلة كان صاحبه ناقصا بذاته كاملا بغيره (تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا) .

والنصوص القرآنية الدالة على تحقق تلك الدعامة متنوعة فمنها مايدل على أن الإضلال بفعل الله تعالى كقوله سبحانه (أفمن زين له سوء عمله فرآه حسنا فإن الله يضل من يشاء ويهدى من يشاء)(١) ، ونظائره كثيرة ، ومنها مايدل على أن الأشياء كلها بخلق الله تعالى نحو قوله سبحانه (الله خالق كل شيء) (٢) ومنها الصرائح التى تدل على نفى الغرض والعلة من نحو قوله جل شأنه :(لا يسأل عما يفعل)وقوله تبارك اسمه (أن الله يفعل مايشاء)(٣،٤).

والدعامة الثانية : أن الجعل الشرعى للأحكام قد تفضل الله تعالى به علينا لنفعنا نحن بالتزام شرع الله لنا وليس مقصودا به منفعة عائدة إلى الحق تعالى فهو غنى عن العالمين وهنزه عن جلب المنافع ودفع المضار لذاته تعالى لاتنفعه الطاعة ولا تضره المعصية .

---

(١) سورة فاطر ٨

(٢) سورة الزمر ٦٢ ك .

(٣) سورة الحج ١٨ م

(٤) أرجع إلى بحث الفخر الرازى فى نفى العلة والغرض عن فعل الله وأمره تعالى عند تفسير قوله تعالى (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون) فى مفاتيح الغيب ٦٥٩/٧ .

ومن ثم نجد المفسرين يصرفون تعاليل الأحكام إلى العباد فى الآيات المعللة لها فى نحو قوله تعالى : (يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون) (١) .

وقد صرح التنزيل بإرادة الحق تعالى - بتشريع الأحكام - نفع عباده وأسباغ نعمه عليهم وذلك فى قوله جل شأنه (ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ولكن يريد ليطهركم وليتم نعمته عليكم لعلكم تشكرون) (٢) وقال تعالى (فليستجيبوا لى وليؤمنوا بى لعلهم يرشدون) (٣) .

والدعامة الثالثة : أن يعلم العبد أن الله تعالى الحكم والالزام كيفما شاء وأراد ، وله أن يكلف الخلق بما لا يطيقون - كما هو رأى جمهور أهل السنة (٤) ولكنه برحمته تعالى شرع لنا أن نسأله دفع ما لا نطيق فعلمنا أن نقول (ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به) (٥) قال العلامة البيضاوى فى تفسيره (وهو يدل على جواز التكليف بما لا يطاق ، وإلا لما سئل التخلص منه) (٦) .

والدعامة الرابعة : أن يؤمن العبد بأنه لا يجب على الحق تعالى لأحد شيء لا ابتداء ولا بسبب أعماله وأفعاله ، فيغفر لمن يشاء ويثيب بفضله ، ويعذب من يشاء بعدله ، لأن الكل ملكه ومملوكة على الحقيقة : (ولله ما فى السموات وما فى الأرض يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء والله غفور رحيم) (٧) .

---

(١) سورة البقرة ٢١ م .
(٢) سورة المائدة ٦ م
(٣) سورة البقرة ١٨٦ م
(٤) أنظر إحياء علوم الدين ١/٩٩
(٥) سورة البقرة ٢٨٦ .
(٦) أنظر أنوار التنزيل ١/١٢٨ ،
(٧) سورة آل عمران ١٢٩ م

(إن تعذبهم فانهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم) (١) ، (قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير أنك على كل شىء قدير)(٢) .

وقد بين الرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه أن المعول عليه فى دخول الجنة ليس هو عمل العبد وإنما هو فضل الله ورحمته فقال ﷺ (لن يدخل أحداً عمله الجنة قالوا ولا أنت يارسول الله؟ قال ولا أنا الا أن يتغمدنى الله بفضل ورحمة) (٣) .

وأما عن الأصل الخامس :

(هـ) الإيمان بأسمائه تعالى شأنه :

فقد قال عز وجل فى سورة الأعراف : (ولله الأسماء الحسنى فأدعوه بها وذروا الذين يلحدون فى أسمائه سيجزون ما كانوا يعملون)(٤) .

وقال فى (الاسراء) : - (قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أياما تدعوا فله الأسماء الحسنى) ٥) .

وقال تعالى فى سورة « طـــه » : (الله لا اله إلا هو له الأسماء الحسنى) (٦) :

---

(١) سورة المائدة ١١٨ م .
(٢) سورة ال عمران ٢٦م
(٣) أخرجه البخارى فى كتاب المرضى من صحيحة ٦/٤ .
(٤) سورة الاعراف ١٨٠ ك .
(٥) سورة الاسراء ١١٠ ك .
(٦) سورة طه ٨ ك :

ثم قال تعالى فى سورة الحشر : (هو الله الذى لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم ، هو الله الذى لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر سبحان الله عما يشركون ، هو الله الخالق البارىء المصور له الأسماء الحسنى يسبح له ما فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم) (١) .

والأسماء الحسنى : هى أسماء الله تعالى الواردة فى كتبه المنزلة على رسله أو الواردة على لسان النبى الخاتم ﷺ فهى أسماء توقيفية لا يجوز الاجتهاد لاستنباطها .

وتنقسم أسماء الله الحسنى إلى : ما هو للذات وما هو للصفات .

فإسم الذات هو لفظ الجلالة (الله) وقد قيل أنه اسم الله الأعظم .

وأما أسماء الصفات : فمنها ما يتعلق بصفات حقيقية عارية عن النسب والاضافات — كاسم الواحد والحى — ومنها : ما يتعلق بصفات سلبية — كالقدوس - ومنها : ما يتعلق بصفات حقيقية مع الاضافة - كالعالم والقادر لتعلقهما بالمعلوم والمقدور .

ومنها : ما يتعلق بصفات حقيقية مع الإضافة والسلب — كالحكيم — إذ معناه : الذين يعلم حقائق الأشياء ولا يفعل ما لا يجوز فعله وكذا كون هذه الصفة — « الحكمة » التى هى متعلق لهذا الاسم الجليل — متعلقة بالمعلومات يعطيها صفة الاضافة (٢).

وقد أمرنا الحق تعالى فى القرآن الكريم أن ندعوه بتلك الاسماء الحسنى كما وردت بالوحى الثابت دون تزيد بالاجتهاد الذى لا يعصم من الخطأ . قال

---

(١) سورة الحشر ٢٢ — ٢٤ م

(٢) انظر حقيقة الايمان ودعائمه (رسالة خطية للمؤلف) ص ٥٢ ،

الامام البيضاوى فى تفسير قوله تعالى : (ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها وذروا الذين يلحدون فى أسمائه) .

(واتركوا تسمية الزائغين فيها الذين يسمونه بما لا توقيف فيه أو بما يوهم معنى فاسدا كقولهم يا أبا المكارم يا أبيض الوجه .

أو : لا تبالوا بإنكارهم ماسمى به نفسه ، كقولهم : ما نعرف إلا رحمن اليمامه . أو : ذروهم والحادهم فيها باطلاقها على الأصنام واشتقاق اسمائها منها كاللات من (الله) والعزى من (العزيز) ولا توافقوهم عليه . أو : أعرضوا عنهم فإن الله مجازيهم كما قال : (سيجزون ما كانوا يعملون) (١) اه تلك معاقد الايمان بالله تعالى ودعاماته الرئيسية (٢) .

---

(١) نظر انوار التنزيل ١/٣١٦ .

(٢) انظر تفسير الفخر الرازى ٢/١٧٥ والاحياء ١/٩٣—١٠٠ .

الركن الثانى من أركان الإيمان :ـ

[الإيمان بالملائكة]

جاء ذكر الملائكة بعد الله تعالى فى سياق تعداد أركان الإيمان فى خاتمة سورة (البقرة) كما جاء ذكرهم ـ بنفس الترتيب ـ فى حديث سؤال سيدنا جبريل عن أمور الدين الثلاثة .

كذلك أتبع الحق تعالى ذكره بذكرهم فى قوله جل شأنه : (شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائماً بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم)(١) وأيضا فى قوله تعالى جل شأنه :(من كان عدوا لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال فإن الله عدو للكافرين)(٢) .

وفى قوله تبارك اسمه : (ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضل ضلالا بعيدا)(٣) . وفى قوله تعالى : (هو الذى يصلى عليكم وملائكته ليخرجكم من الظلمات إلى النور)(٤) . وكذا فى قوله سبحانه : (أن الله وملائكته يصلون على النبى يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما)(٥)

فإذا ما تساءلنا عن سر هذا الترتيب فى الذكر ، وهل يعنى أن الملائكة مقدمون فى المنزلة على كتب الله ورسله ؟ ؟ أو أن الإيمان بهم أوجب من الايمان بمن ذكر بعدهم .

---

(١) سورة آل عمران / ١٨ م

(٢) سورة البقرة / ٩٨ م

(٣) سورة النساء / ١٣٦ م

(٤) سورة الأحزاب / ٤٣ م

(٥) سورة الأحزاب / ٥٦ م

نجد الجواب المنطقى فى أن ترتيب الملائكة بعد الله تعالى وقبيل الكتب والرسل إنما هو من باب تقديم الوسيلة على الغاية ، من حيث أن الله تعالى يوحى إلى الأنبياء عليهم الصلاة والسلام بواسطة الملائكة كما قال تعالى . (ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده أن انذروا أنه لا إله إلا أنا فاتقون)(١)

فإذا مالا حظنا الترتيب الذكرى فى الآية الكريمة لوجدناه هكذا : (الله - الملائكة - الوحى (الكتب) الرسل - تبليغ دعوة التوحيد)

وقد نص التنزيل على وساطة الملائكة - فى تبليغ الوحى - بين الله تعالى ورسله عليهم الصلاة والسلام فى آيات عديدة ، منها قوله : (وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحى بإذنه مايشاء إنه على حكيم(٢)

وقال تعالى (وإنه لتنزيل رب العالمين . نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين)(٣)

وقال تعالى : (قل من كان عدوا لجبريل فإنه نزله على قلبك بإذن الله)(٤) لقد كلفنا الله تعالى أن نؤمن بالملائكة وجعل الإيمان بهم من الأسس التى ينبنى عليها صرح العقيدة الإسلامية ، وحكم على من كفر بهم بالضلال البعيد فى ضمن من كفر بسائر أركان الإيمان فقال عز شأنه : (ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضل ضلالا بعيدا) .

---

(١) سورة النحل : ٢

(٢) سورة الشورى : ٥١ ك

(٣) سورة الشعراء : ٩٢ - ١٩٤ ك

(٤) سورة البقرة : ٩٧ م

وأن تكليف الشارع الحكيم للإنسان بالإيمان بالملائكة وجعل هذا الإيمان أصلا من أصول الدين : انما هو ارتقاء بالمسلم إلى الآفاق الغيبية العليا وعقد لصلة وطيدة بين الإنسان وبين عالم ماوراء المادة ، وتوشيج بينه وبين هؤلاء الجند من جنود الله الذين جعلهم الله تعالى سفراء إلى رسله وأمناء على وحية وشهداءه على خلقة وخرق لهم كنف حجبه وأطلعهم على مكنون من غيبة واختار منهم خزنة لجنته وحملة لعرشه وأسكنهم السموات العلى ونزههم عن المعاصي والدناءات وقدسهم عن النقائص والآفات ، فهم عباده المكرمون الذين يسبحون الليل والنهار لا يفترون ولا يعصون الله ماأمرهم ويفعلون مايأمرون(١) .

وقد استنبط العلماء الأثبات من آى التنزيل وبيانه النبوى : ذلك القدر الذى أوجبه الشارع على المكلف فى الإيمان بالملائكة ، وهو القدر الذى اتضحت معالمه جلاء فى التنزيل وفى السنة النبوية ، وهو مايهمنا الوقوف عليه موضوعيا وتحديد أبعاده .

يقول الإمام البيهقى فى « شعب الإيمان » :-

« والإيمان بالملائكة ينتظم فى معان : أحدها : التصديق بوجودهم

والثانى : إنزالهم منازلهم ، وإثبات أنهم عباد الله وخلقه كالإنس والجن مأمورون مكلفون ، لا يقدرون إلا على ماأقدرهم الله عليه ، والموت عليهم جائز ، ولكن الله جعل لهم أمدا بعيدا فلا يتوفاهم حتى يبلغوه ، ولا يوصفون بشيء يؤدى وصفهم به إلى إشراكهم بالله تعالى ، ولا يدعون آلهة كما دعتهم الأوائل .

---

(١) انظر دلائل الخيرات لسيدى محمد الجزولى : حزب يوم الأحد ص : ١٥١ ط عبد الرحمن محمد

والثالث : الإعتراف بأن منهم رسلا يرسلون إلى من يشاء من البشر ، وقد يجوز أن يرسل بعضهم إلى بعض .

ويتبع ذلك : الأعتراف بأن منهم حملة العرش ، ومنهم الصافون ومنهم خزنة الجنة ، ومنهم خزنه النار ، ومنهم كتبة الأعمال ، ومنهم الذين يسوقون السحاب ، فقد ورد القرآن بذلك كله أو بأكثره »(1) اه .

وبين يدى التعرف على حقيقة الملائكة - الذى هو مقتضى أولى الركائز التى يقوم عليها الإيمان بالملائكة حسبما قرره البيهقى - نعرض لأصل تسميتهم ودلالتها اللغوية : فالملائكة : جمع (ملأك - بالهمز - كالشمائل ، جمع شمأل والتاء لتأنيث الجمع . والملأك) : مقلوب (مألك) وهو مأخوذ من الألوكة أوهى الرسالة ، لأنهم وسائط بين الله وبين الناس ، فهم رسل الله ، أوكالرسل اليهم(2) .

حقيقة الملائكة :

الملائكة من عالم الغيب والملكوت ، ولم يكلفنا الحق تعالى - رحمة بنا بالتعرف على حقيقتهم الغيبية التى يند عن طاقه البشر تمثلها ، وإنما طالبنا الشارع بالإيمان بهم كحقيقة مغيبة ، ومن ثم لم يعرفنا القرآن الكريم بحقيقتهم وأصل خلقهم كما عرفنا بحقيقة الإنس والجن ، وإنما عرفنا بمهمتهم وبعض نعوتهم وأوصافهم كما ورد مثلا فى فاتحة سورة (فاطر) .

« الحمد لله فاطر السموات والأرض جاعل الملائكة رسلا أولى أجنحة

---

(1) انظر : الحبائك فى أخبار الملائك للإمام السيوطى ص ٨

(2) انظر تفسير البيضاوى ١ / ٤٢

مثنى وثلاث ورباع يزيد فى الخلق مايشاء إن الله على كل شىء قدير ».

بيد أن السنة الشريفة قد تعرضت للتعريف بأصلهم كما فى رواية الإمام مسلم عن السيدة عائشة رضى الله عنها أنها قالت : (خلقت الملائكة من نور وخلق الجان من مارج من نار وخلق آدم مما وصف لكم)(١)

ولأن الوحى لم يوقفنا على البيان التفصيلى لحقيقة عنصر الملائكة حيث لم يطلب منا إلا التصديق بوجودهم ،

فقد اختلفت الآراء والمذاهب فى تعريف الملائكة على أنحاء شتى . بيد أن مذهب أكثر علماء الإسلام - وهو الحرى بالقبول - على أنها : أجسام لطيفة علوية نورانية(٢) قادرة على التشكل والظهور بأشكال مختلفة بإذن الله تعالى (٣)

أما ماذهب إليه عبدة الأوثان من أنها هى هذه الكواكب فيجعلون سعدمنها ملائكة الرحمة، والنحس ملائكة العذاب فذاك بمنأى عن الصواب وأنأى منه ماذهب إليه النصارى من أنها الأنفس الناطقة المفارقة لأبدانها الخيرة ، كما أن الخبيثة عندهم بعد المفارقة هى الشياطين وبعيد عن الصواب أيضاً ماذهب إليه الفلاسفة من أن الملائكة جواهر مجردة مخالفة للنفوس الناطقة على الحقيقة(٤)

---

(١) انظر صحيح مسلم بشرح النووى ١٨/١٢٣

(٢) وقيل (هوائية) كما فى (روح المعانى) ١ ، ٢١٨

(٣) انظر أنوار التنزيل ١ / ٤٢ وفتح المبدى ١ : ١٥٨

(٤) يرى الفلاسفة أن الملائكة جواهر قائمة بنفسها ليست متحيزة البتة وأنها بالماهية مخالفة لأنواع النفوس الناطقة البشرية وأنها أكمل منها وأكثر علما وقوة وأنها جارية من النفوس البشرية مجرى الشمس بالنسبة إلى الأضواء » انظر مفاتيح الغيب للإمام الرازى ١ / ٢٤٨)

والذى نستشعره من حديث القرآن الكريم عن الملائكة - فيما يتعلق بطبيعة خلقهم - أنهم مباينون للطبيعة البشرية مباينة تامة ، وقد بلغ خلقهم من العظم حدا لا تقدر القوى البشرية على تمثله والثبات لرؤيته رأى العين ؛ فقد قال تعالى إشأنه : « وقالوا لولا أنزل عليه ملك ولو أنزلنا ملكا لقضى الأمر ثم لا ينظرون . ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا وللبسنا عليهم ما يلبسون[1] » .

قال الإمام أبو السعود فى تفسير قوله تعالى « ولو أنزلنا ملكا لقضى الأمر » : « أى : لو أنزلنا ملكا على هيئته حسبما اقترحوه والحال أنه من هول المنظر بحيث لا تطيق بمشاهدته قوى الآحاد البشرية ؛ ألا يرى أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام كانوا يشاهدون الملائكة ويفاوضونهم على الصور البشرية كضيف إبراهيم ولوط وخصم داود عليهم السلام وغير ذلك .

وحيث كان شأنهم كذلك وهم مؤيدون بالقوى القدسية ، فما ظنك بمن عداهم من العوام ، فلو شاهدوه كذلك لقضى أمر هلاكهم بالكلية واستحال جعله معه نذيراً »[2]

ومما يؤكد عظم خلق الملائكة ما رواه الإمام أحمد وابن أبى حاتم عن ابن مسعود رضى الله عنه : (أن رسول الله ﷺ : لم ير جبريل فى صورته إلا مرتين : أما واحدة : فإنه سأله أن يريه نفسه فأراه نفسه فسد الأفق ، وأما الأخرى . فليلة الإسراء عند السدرة[3]) .

---

(١) سورة الأنعام ٨ — ٩ ك

(٢) انظر إرشاد العقل السليم لأبى السعود ٨٤/٢

(٣) انظر الحبائك فى أخبار الملائك للإمام السيوطى ص ١٧

صفات الملائكة :

وصف الحق تعالى ملائكته فى القرآن العزيز بعديد من الصفات التى يجب الإيمان بها ، واعتقادها لهم ، وتتمثل هذه الصفات اللازمة فيما يلى :

١ — العبودية الحقة لله تعالى ، وتلك أهم وألزم الصفات لهم ، وقد قررها القرآن الكريم فى مواجهة من استحوذ عليهم الشيطان ووسوس لهم بأن الملائكة بنات الله فاعتقدوا ذلك وأشركوهم به تعالى فى العبادة (وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً ، أشهدوا خلقهم ؟ ستكتب شهادتهم ويسألون . وقالوا لو شاء الرحمن ما عبدناهم ما لهم بذلك من علم إن هم إلا يخرصون[١]) « ويجعلون لله البنات سبحانه ولهم ما يشتهون[٢] » .

لقد بنوا عقيدتهم على التمحك الباطل الذى لا يستند إلى علم فجاء تقرير الحقيقة معرفاً بمرتبة الملائكة ومنزلتهم من الله تعالى فى قوله جل شأنه « وقالوا اتخذ الرحمن ولدا سبحانه بل عباد مكرمون . لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون . يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يشفعون إلا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون[٣]) .

وفى هذا النص الكريم الأخير : يقرر الحق تعالى للملائكة مع صفة العبودية الحقة لجنابه الأقدس خمس صفات بارزة وهى :

٢ — التكريم والقرب من الله تعالى بمقتضى قوله سبحانه (بل عباد مكرمون) فقد فسر أبو السعود هذا الإكرام بأنهم مقربون عنده تعالى[٤] .

---

(١) سورة الزخرف ١٩ — ٢٠ ك

(٢) سورة النحل ٥٧ ك

(٣) سورة الأنبياء ٢٦ — ٢٨ ك

(٤) انظر تفسير أبى السعود بهامش تفسير الفخر الرازى ٧/ ٨٠

٣ — كمال طاعتهم وانقيادهم وتبعيتهم لله تعالى فى الأقوال والأفعال كما ينبىء عنه قوله تعالى (لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون).

٤ — عصمتهم من الذنوب صغيرها وكبيرها. فهم مجبولون على الطاعة المطلقة لله سبحانه وتعالى، وذلك أيضاً مأخوذ من ذات النص الكريم السابق، ومن قوله سبحانه: (لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون)(١).

٥ — شفاعتهم عند الله تعالى لمن ارتضاه من عباده فحسب، فلا تتعدى هذه الشفاعة لمن غضب الله تعالى عليهم من الكفرة والمشركين كما قال جل شأنه (ولا يشفعون إلا لمن ارتضى).

٦ — خوفهم من الله تعالى وتعظيمهم لجنابه الأقدس كما أفاده قوله تعالى (وهم من خشيته مشفقون) فإن أصل الخشية: الخوف مع التعظيم، ولذلك خص بها العلماء، والاشفاق: هو الخوف مع الاعتناء(٢).

٧ — عبادتهم لله تعالى على الدوام مع الخضوع والتذلل والخوف والطاعة والإجلال والمعرفة بالله سبحانه، وهذه المضامين جميعها قد أنبأ عنها التنزيل فى مواضع متعددة، فمن ذلك: ما نجده فى قوله تعالى: «ولله يسجد ما فى السموات وما فى الأرض من دابة والملائكة وهم لا يستكبرون، يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون ما يؤمرون»(٣)

---

(١) سورة التحريم ٦ م

(٢) عند تعديه الاشفاق بمن يكون معنى الخوف فيه أغلب، وعند تعديته بعلى: يكون معنى الاعتناء أغلب. (انظر: إرشاد العقل السليم لأبى السعود بهامش مفاتيح الغيب للإمام الرازى ٨٠/٧).

(٣) سورة النحل ٤٩ — ٥٠ ك

وفى قوله سبحانه : «وله من فى السموات والأرض ومن عنده لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون . يسبحون الليل والنهار لا يفترون»(١)

قال الإمام الحسن : (جعلت أنفاسهم لهم تسبيحاً) !! إنه الملأ الأعلى بكمال عبوديته ومعرفته بالله تعالى : عالم نورانى مثالى مسخر لإرادة الله جل وعلا ، منقاد لمشيئته ، منفذ لأوامره .

وفيما يتعلق بصفات الملائكة أيضا : نورد هذا التحليل الرائع الذى أورده فخر المفسرين (الرازى) فى تفسير قوله تعالى : (والنازعات غرقاً . .) الخ

يقول رضى الله عنه : «. . إن الملائكة لها صفات سلبية وصفات إضافية ، أما الصفات السلبية : فإنها مبرأة عن الشهوة والغضب والأخلاق الذميمة والموت(٢) والهرم والسقم ، والتركيب من الأعضاء والأخلاط والأركان ، بل هى جواهر روحانية مبرأة عن هذه الأحوال . فقوله : (والنازعات غرقا) إشارة إلى كونها منزوعة عن هذه الأحوال نزعاً كلياً من جميع الوجوه .

وعلى هذا التفسير : (النازعات) : هى ذوات النزع ، كاللابن والتامر .

وأما قوله : (والناشطات نشطا) : إشارة إلى أن خروجها عن هذه الأحوال ليس على سبيل التكلف والمشقة - كما فى حق البشر - بل هم بمقتضى ماهياتهم خرجوا عن هذه الأحوال ، وتنزهوا عن هذه الصفات .

---

(١) سورة الأنبياء ١٩ - ٢٠ ك

(٢) لعله قصد الموت قبل الأمد البعيد لعارض من علة ونحوها وإلا فهو مختلف مع البيهقى حسبما مر بنا .

فهاتان الكلمتان : إشارتان إلى تعريف أحوالهم السلبية ، وأما صفاتهم الإضافية فهى قسمان :

أحداهما : شرح قوتهم العاقلة ، أى : كيف حالهم فى معرفة ملك الله وملكوته والاطلاع على نور جلاله ، فوصفهم فى هذا المقام بوصفين ، (أحداهما) : قوله : (والسابحات سبحا) فهم يسبحون من أول فطرتهم فى فى بحار جلال الله !! ثم لا منتهى لسباحتهم ؛ لأنه لا منتهى لعظمة الله وعلو صمديته ونور جلاله وكبريائه فهم أبدا فى تلك السباحة .

(وثانيها) : قوله : (فالسابقات سبقا) ، وهو إشارة إلى مراتب الملائكة فى تلك السباحة ، فإنه كما أن مراتب معارف البهائم بالنسبة إلى مراتب معارف البشر ناقصة ، ومراتب معارف البشر بالنسبة إلى مراتب معارف الملائكة ناقصة : فكذلك : معارف بعض تلك الملائكة بالنسبة إلى مراتب معارف الباقين متفاوتة . وكما أن المخالفة بين نوع الفرس ونوع الإنسان بالماهية لا بالعوارض : فكذا المخالفة بين شخص كل واحد من الملائكة وبين شخص الآخر بالماهيـــة . فإذا كانت أشخاصها متفاوتة بالماهية لا بالعوارض : كانت لامحالة متفاوتة فى درجات المعرفة وفى مراتب التجلى . فهذا هو المراد من قوله : (فالسابقات سبقا) .

فهاتان الكلمتان : المراد منهما شرح أحوال قوتهم العاقلة .

وأما قوله . (فالمدبرات أمرا) فهو إشارة إلى شرح حال قوتهم العاملة(١) ، وذلك : لأن كل حال من أحوال العالم السفلى مفوض إلى تدبير واحد من الملائكة الذين هم عمار العالم العلوى وسكان بقاع السموات .

---

(١) وهذا هو القسم الثانى من قسمى صفاتهم الإضافية .

ولما كان التدبير لا يتم إلا بعد العلم : لا جرم قدم شرح القوة العاقلة التى لهم على شرح القوة العاملة التى لهم(١) .

أصنافهم وأعمالهم :

الملائكة جنود الله فى مملكته ، (وما يعلم جنود ربك إلا هو)(٢) وقد أعلمنا الله تعالى فى التنزيل الحكيم بما شاء لنا علمه عن طبيعة عالم الملائكة وأصنافهم ووظائفهم وبعض شخصياتهم التى تقوم بمهام جسام فى هذه المملكة الإلهية .

والذى يعنينا هنا : هو إلقاء نظرة شمولية عجلى توقفنا - من صفحات التنزيل - على أبرز المهام التى يضطلع بها أصناف شتى من الملائكة . فنجد أبرز هذه النوعيات والمهام متمثلة فيما يلى : -

١ - رءوس الملائكة الأربعة الذين يدبرون أمر الدنيا(٣) : وهم جبريل وميكائيل وإسرافيل وعزرائيل عليهم السلام . وقد صرح التنزيل باسمى الأولين فى قوله تعالى (من كان عدوا لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال فان الله عدو للكافرين)(٤) كما ورد فى السنة أنهما وزيرا رسول الله ﷺ من أهل السماء فيما أخرجه الترمذى عن أبى سعيد أن رسول الله ﷺ قال (ما من نبى إلا له وزيران من أهل السماء ووزيران من أهل الأرض

---

(١) انظر مفاتيح الغيب ٨/ ٣١٦

(٢) سورة المدثر / ٣١

(٣) انظر هذا العنوان وماورد تحته من أحاديث وآثار فى (الحبائك) للإمام السيوطى / ١٣ .

(٤) سورة البقرة / ٩٨ م

فأما وزيراى من أهل السماء فجبريل وميكائيل ، وأما وزيراى من أهل الأرض فأبو بكر وعمر)(١) .

وأما إسرافيل عليه السلام : فهو الملك المسند إليه نفخ الصور فى قوله تعالى (ونفخ فى الصور فصعق من فى السموات ومن فى الأرض إلا من شاء الله)(٢) حيث أخرج الإمام أحمد والحاكم عن أبى سعيد قال : قال رسول الله ﷺ (إسرافيل صاحب الصور وجبريل عن يمينه وميكائيل عن يساره)(٣)

وأما عزرائيل عليه السلام : فهو ملك الموت الموكل بقبض الأرواح هو وجنوده من الملائكة وهو المذكور - بصفته - فى قوله تعالى : (قل يتوفاكم ملك الموت الذى وكل بكم)(٤) .

وقد ورد فى السنة الشريفة ما يفيد تدبير هؤلاء الملائكة الأربعة لأمر الدنيا، حيث أخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ والبيهقى - فى الشعب - عن ابن سابط قال : - « يدبر أمر الدنيا أربعة : جبريل وميكائيل وملك الموت وإسرافيل ، فأما جبريل فموكل بالرياح والجنود ، وأما ميكائيل فموكل بالقطر والنبات ، وأما ملك الموت فموكل بقبض الأرواح ، وأما اسرافيل : فهو ينزل بالأمر عليهم)(٥)

وهذا الأثر لا يفيد حصر مهمات هؤلاء الأربعة فيما أسند فيه إليهم ، فسيدنا جبريل - مثلا - هو صاحب الوحى الى الرسل والأنبياء على نبينا

---

(١) سنن الترمذى ٥ / ٦١٦

(٢) سورة الزمر / ٦٨ ك

(٣) انظر الحبائك / ٢٦

(٤) سورة السجدة / ١١ ك وأنظر تفسير ابن كثير / ٦ / ٣٦٢

(٥) انظر الحبائك / ١٣

الأعظم وعليهم الصلاة والسلام فهو الروح الأمين المراد بقوله تعالى (نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين)(١) وهو الممتدح بصفات فى قوله تعالى : (إنه لقول رسول كريم ذى قوة عند ذى العرش مكين مطاع ثم أمين) (٢) .

٢ — ومن أصناف الملائكة : حملة العرش وهم فى اليوم الآخر (ثمانية ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية)(٣) وقد بين الحق تعالى جانبا من مهامهم التى من بينها وساطتهم للمؤمنين عند الله تعالى بالاستغفار والدعاء إذ قال عز من قائل : « الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا : ربنا وسعت كل شىء رحمة وعلما فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم ، ربنا وأدخلهم جنات عدن التى وعدتهم ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم إنك أنت العزيز الحكيم . وقهم السيئات ومن تق السيئات يومئذ فقد رحمته وذلك هو الفوز العظيم »(٤) وهذا الصنف منهم فى جمال الله وجلاله وقد يسمون بالكروبيين .

٣ — الحافون حول العرش : وهم غير حملته بدليل عطفهم عليه بقوله (ومن حوله) فى النص الكريم السابق ، وفيهم يقول جل شأنه : (وترى الملائكة حافين من حول العرش يسبحون بحمد ربهم .)(٥)

٤ — ملائكة الجنة : وهم الذين قال تعالى فيهم : (والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار)(٦)

٥ — ملائكة النار : قال تعالى : (عليها تسعة عشر . وما جعلنا أصحاب

---

(١) سورة الشعراء : ١٩٣ ك
(٢) سورة التكوير : ١٩ - ٢١ ك
(٣) سورة الحاقة : ١٧ ك
(٤) سورة غافر : ٧ - ٩
(٥) سورة الزمر : ٧٥ ك
(٦) سورة الرعد ٢٣ - ٢٤ م

النار إلا ملائكة(١) وقال سبحانه (فليدع ناديه . سندع الزبانية)(٢) ورئيسهم يدعى مالك : وهو المستغاث به فى قوله تعالى : (ونادوا يامالك ليقض علينا ربك قال : إنكم ماكثون)(٣)

٦ — ومنهم الحفظة الموكلون بحفظ بنى آدم. قال سبحانه :(له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله)(٤)

٧ — ومن أصناف الملائكة أيضا : كتبة الأعمال ، وهم الذين قال تعالى فيهم (وإن عليكم لحافظين كراما كاتبين . يعلمون ماتفعلون)(٥)

٨ — ومنهم الموكلون بأحوال هذا العالم ، وهم الذين ذكرهم الله تعالى بقوله (والصافات صفا . فالزاجرات زجرا . فالتاليات ذكرا)(٦) وبقوله تعالى (والذاريات ذروا . فالحاملات وقرا . فالجاريات يسرا فالمقسمات أمرا)(٧) :

٩ — ومنهم رسل الله تعالى إلى أنبيائه وأوليائه بالبشرى والتأييد والموالاة ، قال تعالى:(ولقد جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى قالوا سلاما قال سلام)(٨) وقال جل شأنه: (إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أنى ممدكم بألف من الملائكة مردفين ، وماجعله الله بشرى ولتطمئن قلوبكم به)(٩)

وقال عز من قائل : (إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون . نحن

---

(١) سورة المدثر : ٣٠-٣١ ك — (٢) سورة العلق : ١٧ - ١٨ ك
(٣) سورة الزخرف : ٧٧ ك — (٤) سورة الرعد : ١١ م
(٥) سورة الانفطار ١٠ - ١١ ك — (٦) سورة الصافات ١ - ٣ ك
(٧) سوره الذاريات ١ - ٤ ك — (٨) سورة هود ٦٩ ك
(٩) سورة الأنفال : ١٠ م

أولياؤكم فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ولكم فيها ماتشتهى أنفسكم ولكم فيها ماتدعون)(١)

وهكذا يوقفنا القرآن العظيم على هذه الجوانب الملائكية ويطلعنا على مشاهد من ملكوت الملأ الأعلى ليؤصل فينا الإيمان بملائكية الله ، وليعقد بيننا وبين هذا العالم النورانى الغيبي صلة الولاء والموالاة فى الله عز وجل فى نور فرقانه العظيم

وننتقل إلى الركن الثالث من أركان (الإيمان) :-

---

(١) سورة فصلت : ٣٠-٣١ك

الإيمان بالكتب المنزلة

فنجد أن الحق تبارك وتعالى قد أمر عباده — فى مواطن عديدة من التنزيل الحكيم — أن يؤمنوا بما أنزل على رسله وأنبيائه — صلوات الله وسلامه على خاتمهم وعليهم أجمعين — من كتب وصحف .

فقال عز من قائل : (قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى وما أوتى النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون) (١) .

وقال تعالى شأنه : (ياأيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله والكتاب الذى نزل على رسوله والكتاب الذى أنزل من قبل ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضل ضلالا بعيدا) (٢) .

وقد روى فى سبب نزول هذه الآية الكريمة : أن جماعة من أحبار اليهود (٣) جاءوا إلى النبى ﷺ وقالوا : يارسول الله : إنا نؤمن بك وبكتابك وبموسى والتوراة وعزير ، ونكفر بما سواه من الكتب والرسل ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : بل آمنوا بالله وبرسله ، وبمحمد وبكتابه القرآن ، وبكل كتاب كان قبله . فقالوا : لا نفعل فنزلت هذه الآية ، فكلهم آمنوا) (٤) .

---

(١) سورة البقرة /١٣٦ م .

(٢) سورة النساء /١٣٦ .

(٣) روى الواحدى : أنها نزلت فى عبد الله بن سلام وأسد وأسيد ابنى كعب ، وثعلبة بن قيس وجماعة من مؤمنى أهل الكتاب (انظر : أسباب النزول [بتحقيق السيد صقر/١٧٨) .

(٤) انظر تفسير الفخر الرازى ٣/٣٢٩-٣٣٠ .

ولا ريب أن سبب النزول ههنا قد أعطانا مفادا فى غاية الأهمية ؛ وهو أن الإيمان بالكتب المنزلة على أنبياء الله تعالى لا بد وأن يشمل كل ما أنزل الله ، فلو كفر بأى واحد منها أو ببعضه - مع ثبوت كونه من عند الله تعالى فإن هذا مقوض لصرح الإيمان كله .

ويدلل الإمام الفخر الرازى — عقليا — لذلك فيقول : (إن إيمانهم ببعض الكتب دون البعض لا يصح ؛ لأن طريق الإيمان هو المعجزة ، فإذا كانت المعجزة حاصلة فى الكل كان ترك الايمان بالبعض طعنا فى المعجزة ، وإذا حصل الطعن فى المعجزة : امتنع التصديق بشيء منها . وهذا هو المراد بقوله تعالى : (ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا أولئك هم الكافرون حقا)(١) .

كذلك يجلى لنا (الفخر) مدى أصالة هذا الركن الرئيسى (الايمان بالكتب الالهية) فى بناء الايمان وذلك من خلال تساؤل تفسيرى وجوابه فى الآية التى معنا فيقول :

السؤال الثانى : لم ذكر فى مراتب الايمان أمورا ثلاثة : الإيمان بالله وبالرسول وبالكتب وذكر فى مراتب الكفر أمورا خمسة : الكفر بالله ، وبالملائكة ، وبالكتب ، وبالرسل ، وباليوم الآخر ؟

والجواب : أن الايمان بالله ، وبالرسل ، وبالكتب متى حصل : فقد حصل الايمان بالملائكة واليوم الاخر لا محالة ؛ إذ ربما أدعى الإنسان أنه يؤمن بالله وبالرسل وبالكتب ثم إنه ينكر الملائكة وينكر اليوم الأخر ، ويزعم أنه يجعل الآيات الواردة فى الملائكة وفى اليوم الآخر محمولة على التأويل

---

(١) انظر مفاتيح الغيب ٣/٣٣٠ .

فلما كان هذا الاحتمال قائما لاجرم نص أن منكر الملائكة ومنكر القيامة كافر بالله)(١).

وقد وجه الحق تبارك وتعالى رسوله الاعظم صلى الله عليه وسلم — والأمة بالتبعية له — أن يؤمن بجميع ما أنزل الله من كتب وان يعلن ذلك بالقول صراحة وقرن ذلك بالأمر بدعوته ﷺ فقال : (فلذلك فادع واستقم كما أمرت ولا تتبع أهواءهم وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب وأمرت لأعدل بينكم) (٢) .

كذلك امتدح الحق تعالى عباده المؤمنين بما أنزل على الرسول صلى الله عليه وسلم وبما أنزل على الانبياء من قبلة بالهداية وبالفلاح إذ قال سبحانه :

(والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون)(٣)،

ونعى القرآن الكريم على طائفة من أهل الكتاب — وهم اليهود - الذين قصروا إيمانهم على ما أنزل عليهم وكفروا بغيره - وهو القرآن - الذى هو مصدق لما معهم فقال عن شأنه :

(وإذا قيل لهم آمنوا بما أنزل الله قالوا نؤمن بما أنزل علينا ويكفرون بما وراءه وهو الحق مصدقا لما معهم قل فلم تقتلون أنبياء الله من قبل أن كنتم مؤمنين)(٤)،

---

(١) نفس المصدر :
(٢) سورة الشورى /١٥ ك
(٣) سورة البقرة ٤ — ٥ م
(٤) سورة البقرة ٩١.

، وقبيل أن نتعرف على نظرة القرآن الكريم لما بين يديه من الكتب وموقفه منها : نتساءل عن عدد هذه الكتب ؟ وعلى من نزلت من الأنبياء والرسل السابقين ؟؟

ورغم استشراف هذين التساؤلين لآفاق بعيدة من المغيبات الضاربة في أحشاء الماضي السحيق فإننا بالبحث — المستمد من مدد العليم جل شأنه لانعدم التوصل إلى جواب فلقد روى الحافظ ابن كثير في تفسيره حديثا طويلا — بسنده — عن أبي ذر رضى الله في عدد الأنبياء على نبينا الأعظم وعليهم الصلاة والسلام قال فيه :

« قلت : يارسول الله ، كم كتابا أنزله الله ؟ قال : مائة كتاب وأربعة كتب .

أنزل الله على شيث ، خمسين صحيفة ، وعلى خنوخ (١) : ثلاثين صحيفة وعلى ابراهيم . عشر صحائف ، وأنزل على موسى — من قبل التوراة — عشر صحائف ، والانجيل والزبور والفرقان »(٢) .

أما الكتب السماوية التي ورد ذكرها في القرآن الكريم — من جملة ماأنزل - فهي :

التوراة والإنجيل والزبور وصحف سيدنا إبراهيم وصحف سيدنا موسى . ثم الفرقان .

---

(١) هو سيدنا إدريس على نبينا وعليه الصلاة والسلام كما فسر في نفس الرواية قبل هذا النص في تفسير ابن كثير (٢/٢٢٤) ط الشعب .

(٢) أخرج القرطبي في تفسيرة (١/١٨٠) هذا الجزء من الحديث عن حسين الآجرى وأبي حاتم البستي .

فأما التوراة :-

فيقول الله تعالى معرفا بها فى التنزيل : « إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والأحبار بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء فلا تخشوا الناس واخشون ولا تشتروا بآيات ثمنا قليلا ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون ، وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس والعين بالعين والأنف بالأنف والأذن بالأذن والسن بالسن والجروح قصاص فمن تصدق به فهو كفارة له ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون »(١)

لقد شهد القرآن الكريم بإنزال التوراة ، وفيها الهدى والنور من أصول الشريعة وفروعها فيما يتعلق بأمة بنى إسرائيل .

كما ذكر القرآن الكريم أيضا : أن الذين أسلموا — ويراد بهم أنبياء بنى إسرائيل الذين جاءوا بعد سيدنا موسى وسيدنا هارون كسيدنا داود وسيدنا سليمان عليهم السلام — كانوا يحكمون بالتوراة فى أمة بنى إسرائيل كما كان يحكم بها أيضا : الربانيون — وهم العباد المجتهدون — والأحبار — وهم آحاد العلماء — وذكر لنا التنزيل طرفا من تشريع التوراة ،

وقد تناول المفسرون تسمية التوراة بالبحث فبرز من معالجتهم لها اتجاهان :-

أولهما : أن (التوراه) لفظ عربى مشتق من (الورى) وهو الظهور فى الأصل ، فالعرب تقول : ورى الزند يرى : إذا قدح وظهرت النار ، وقد قال تعالى : (فالموريات قدحا)(٢) وقد سميت التوراة بذلك : لظهور

---

(١) سورة المائدة / ٤٤ - ٤٥ م (٢) سورة العاديات/٢ ك

الحق بها ويشهد لذلك قوله تعالى : (ولقد آتينا موسى وهارون الفرقان وضياء وذكرا للمتقين) [١] ، وهذا متجه الفراء فى اشتقاقها .

والثانى : أن (التوراة) اسم أعجمى كالأنجيل ، وأن تكلف اشتقاقهما من الورى والنجل ووزنهما بتفعلة وإفعيل لا يصح ، ولاسيما وقد قرأ الحسن (الأنجيل) بفتح الهمزة وهو دليل على العجمة ؛ لأن أفعيل بفتح الهمزة عديم فى أوزان العرب . وهذا ما قرره الزمخشرى فى (الكشاف) ورجحه الفخر فى تفسيره [٢]

أما المحدثون من العلماء والباحثين فيرون أن لفظة (توراة) معربة عن العبرانية . . وأصلها (تورا Torah) وتعنى : الشريعة ، ويرى قدماء العبرانيين : أن المراد بها : الأسفار الخمسة ، وهى : التكوين ، والخروج ، واللاويين ، والعدد ، والتثنية ، ثم توسع العبرانيون فى مدلولها - فيما بعد - فاطلقوا التوراة على جميع الاسفار التى يقال لها (العهد القديم)[٣]

وإذا كان القرآن الكريم قد أعطى شهادته للتوراة الصحيحة — التى أسلفناها آنفا — بأنها منزلة من عند الله وفيها الهدى والنور وعرفنا بجانب من تشريعها الذى أنزله الله : فإن القرآن المهيمن على ما سبقه من الكتب الإلهية قد تصدى لكشف تحريف التوراة بأيدى من استحفظوا عليها من اليهود . وسجل عليهم تحريفهم وتبديلهم لكلمات الله وتركهم نصيبا مما أمروا به وإخفاءهم إياه : فقد قال تعالى فى حقهم : -

(أفتطمعون أن يؤمنوا لكم وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون) [٤] . وقال تعالى

---

(١) سورة الأنبياء / ٤٨ ك

(٢) انظر الكشاف ١/٤١٠ ومفاتيح الغيب ٢/٢٩٠

(٣) انظر : روح الدين الاسلامى لعفيف طبارة / ١٤٤

(٤) سورة البقرة / ٧٥ م

(من الذين هادوا يحرفون الكلم عن مواضعه ويقولون سمعنا وعصينا وراعنا ليا بألسنتهم وطعنا فى الدين)(١) وقال تعالى :

(فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم وجعلنا قلوبهم قاسية يحرفون الكلم عن مواضعه ونسوا حظا مما ذكروا به ...) (٢) ثم لقد خاطب التنزيل اليهود والنصارى المحرفين لكتابيهم معا والمخفين لكثير منها فقال عز من قائل :).

(ياأهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيراً مما كنتم تخفون من الكتاب و يعفوا عن كثير) (٣) !! .

لقد أخفى اليهود من التوراة نعت سيدنا محمد ﷺ كما أخفوا آية الرجم منها . وأخفى النصارى بشارة سيدنا عيسى بسيدنا أحمد صلى الله عليه وسلم من الإنجيل (٤) ، ولو نظرت فيما يدعى أنه التوراة الآن : فلن تجد ذكرا للحساب والجزاء فى الآخرة (٥) .

ونفتقل إلى ذكر الانجيل فى "قرآن الكريم :

فنجد شهادة الحق للحق بالحق متمثلة فى قوله تعالى: (وقفينا على آثارهم بعيسى بن مريم مصدقا لما بين يديه من التوراة ، وآتيناه الإنجيل فيه هدى ونور ومصدقا لما بين يديه من التوراة وهدى وموعظة للمتقين) (٦) .

لقد شهد القران الكريم للإنجيل (الصحيح) بتحقق صفات خمس فيه وهى :

---

(١) سورة النساء/٤٦ م . (٢) سورة المائدة/ ١٣ م
(٣) سورة المائدة/ ١٥ ،
(٤) انظر : أنوار التنزيل للبيضاوى ١/ ٢٢٥ .
(٥) انظر : روح الدين الإسلامى/ ١٤٤ .
(٦) سورة المائدة ٤٦/ م

١ — أنه ذو هدى

٢ — وأنه ذو نور .

٣ — وأنه مصدق لما بين يديه من التوراة .

٤ — وأنه هدى :

٥ — وأنه موعظة للمتقين :

ويوضح لنا الفخر الرازى هذه الصفات الخمس فى تفسيره فيقول :

(إن الانجيل هدى بمعنى : أنه اشتمل على الدلائل الدالة على التوحيد والتنزيه وبراءة الله تعالى عن الصاحبة والولد ، والمثل والضد ، وعلى النبوة والمعاد ، فهذا هو المراد بكونه هدى .

وأما كونه نورا : فالمراد به . كونه بيانا للأحكام الشرعية ولتفاصيل التكاليف .

وأما كونه صدقا لمابين يديه : فيمكن حمله على كونه مبشرا ببعث (سيدنا (١)) محمد ﷺ وبمقدمه (٢) .

وأما كونه هدى — مرة أخرى — فلأن اشتماله على البشارة بمجىء (سيدنا) محمد ﷺ سبب لاهتداء الناس إلى نبوة سيدنا محمد ﷺ .

---

(١) مابين المعقوفتين (لفظ السيادة) إضافة منى للتكريم والتعظيم .

(٢) بشر الانجيل بمقدم النبى ﷺ وورد فيه — وفى التوراة أيضا — وصف صحابة سيدنا رسول الله ﷺ كما صرح به قوله تعالى :(محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعا سجدا يبتغون فضلا من الله ورضوانا سيماهم فى وجوههم من أثر السجود . ذلك مثلهم فى التوراة ومثلهم فى الانجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار) سورة الفتح /٢٩

ولما كان أشد وجوه المنازعة بين المسلمين وبين اليهود والنصارى فى ذلك : لاجرم أعاده الله تعالى مرة أخرى ، تنبيها على أن الأنجيل يدل دلالة ظاهرة على نبوة [سيدنا] محمد ﷺ فكان هدى فى هذه المسألة التى هى أشد المسائل احتياجا إلى البيان والتقرير وأما كونه موعظة : فلا شتمال الانجيل على النصائح والمواعظ والزواجر البليغة المتأكدة ، وإنما خصها بالمتقين : لأنهم الذين ينتفعون بها كما فى قوله (هدى للمتقين)(١)

هذه هى نظرة القرآن للانجيل الصحيح الذى أنزله الله تعالى على سيدنا عيسى على نبينا وعليه السلام وهو الإنجيل الذى يجب الايمان به .

أما الأناجيل الحالية : فإنها - بالقطع - ليست كتاب الله المنزل على سيدنا عيسى عليه السلام وليست هى الانجيل الوارد ذكره فى القرآن الكريم لما يأتى :

أولا : أن الانجيل الذى أنزله الله تعالى ورد فى القرآن الكريم بصيغة المفرد ولم يرد بصيغة الجمع (أناجيل) وذلك لأنه إنجيل واحد غير متعدد .

ثانيا : أن الأناجيل الحاليه ليست من كلام الله تعالى ولهذا لم تنسب إليه سبحانه وإنما نسبت إلى واضعيها من البشر ، وقد اعتمد المسيحيون رسميا فى أوائل القرن الرابع الميلادى أربعة أناجيل — مختارة من بين أناجيل أخرى بالغة الكثرة — منسوبة إلى مؤلفيها وهى إنجيل لوقا وإنجيل متى وإنجيل يوحنا وإنجيل مرقس . وهؤلاء الأربعة لم يكونوا من الحواريين المعاصرين لنزول الانجيل الحقيق . وبنسبة هذه الأناجيل لمؤلفيها هؤلاء تسقط نسبتها إلى الله تعالى بل وإلى سيدنا عيسى عليه السلام (٢)

---

(١) أنظر : مفاتيح الغيب ٤١١/٣

(٢) أنظر تاريخ الأديان المقارن للدكتور محمد فتح الله بدران /٥٦

ثالثا : إن هذه الأناجيل الحالية — وكذلك التوراة من قبل — فضلا عن كونها لم تكتب فى زمان النزول فإنها قد ترجمت من لغات كثيرة إلى لغات أخرى وقد اعتراها من جراء الترجمات المتعددة واختلاف النطق : اختلافات جوهرية كثيرة(١).

رابعا : لقد صرح القرآن الكريم بأن النصارى قد نسوا حظا كبيرا من أصل كتاب الله فقال تعالى : (ومن الذين قالوا إنا نصارى أخذنا ميثاقهم فنسوا حظا مما ذكروا به فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة وسوف ينبئهم الله بما كانوا يصنعون)(٢) .

كما صرح التنزيل بان كلا من النصارى واليهود قد أخفوا كثيرا من الإنجيل والتوراة حيث قال سبحانه :(يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيرا مما كنتم تخفون من الكتاب ويعفو عن كثير)(٣) .

ومن ثم : يتحصل لدينا اليقين الجازم بأن هذه الأناجيل المختلفة ليست هى كتاب الله الذى أنزله على سيدنا عيسى — على نبينا وعليه السلام — والذى يجب الايمان به ككتاب سماوى ثم نأتى إلى ثالث الكتب الإلهية المذكورة فى التنزيل ، وهو : —

الزبور : وهو كتاب الله المنزل على سيدنا داود على نبينا وعليه الصلاة والسلام والزبور فى اللغة : هو الكتاب ، وهو فعول بمعنى مفعول كالرسول والحلوب .

وقال الزجاج : الزبور كل كتاب ذى حكمة ،وعلى هذا : فهو أقرب إلى

---

(١) نفس المرجع .
(٢) سورة المائده / ١٤ م .
(٣) سورة المائدة / ١٥ م .

أن يكون من الزبر وهو الزجر ، وسمى الكتاب زبورا : لما فيه من الزبر عن خلاف الحق . وبه سمى زبور داود ، لما فيه من الزواجر والمعاصى(١) ،

وقد أخبر القرآن الكريم بأن الله تعالى آتى سيدنا داود — على نبينا وعليه السلام — الزبور فقال عز شأنه : (ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض وآتينا داود زبورا)(٢) .

كذلك تضمن القرآن الكريم نصا من (الزبور) فيه بشاره للأمة المحمدية بوراثة الأرض فى الدنيا والآخرة ، اذ قال تعالى: (ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادى الصالحون)(٣) .

ولقد تناول العلماء والمفسرون محتوى الزبور بالوصف،فذهب الكثرة إلى أنه كتاب ليس فيه حلال ولا حرام ولا فرائض ولا حدود : وإنما هو دعاء وتحميد وتمجيد(٤) .

بينما ذهب الإمام الآلوسى إلى اشتماله على بعض النواهى والأوامر مستدلا لذلك بما رواه ابن أبى شيبة من أنه مكتوب فيه :

(أنى أنا الله ، لا إله الا أنا ، ملك الملوك ، قلوب الملوك بيدى ، فأيما قوم كانوا على طاعة جعلت الملوك عليهم رحمة، وأيما قوم كانوا على معصية: جعلت الملوك عليهم نقمة ، فلا تشغلوا أنفسكم بسبب الملوك ، ولا تتوبوا

---

(١) انظر مفاتيح الغيب ٣ / ١١٢ .
(٢) سوره الاسراء / ٥٥ ك .
(٣) سوره الانبياء / ١٠٥ ك وانظر تفسير ابن كثير ٥ / ٣٧٩ وتفسير الآلوسى ١٥ / ٩٥ .
(٤) انظر تفسير القرطبى ١٠ / ٢٧٨ .

إليهم، وتوبوا إلى أعطف قلوبهم عليكم) ثم قال : « والمزامير التي يفهم منها الأمر والنهي كثيره فيه كما لا يخفى على من رآه »(١) .

ولقد منى (الزبور) أيضا بالتحريف كما منيت التوراه والانجيل ؛ إذ يقول ابن حزم في : (الفصل) : « وقلنا ونقول : إن كفار بني إسرائيل بدلوا التوراه والزبور فزادوا ونقصوا وأبقى الله تعالى بعضها حجة عليهم كما شاء .. »(٢) .

وقد ساق ابن حزم طرفا من تحريف بني اسرائيل وافترائهم على الزبور الكذب والاختلاق فقال في هذا الصدد : « وأما الكتاب الذي يسمونه الزبور : ففي المزمور الأول منه، قال لي الرب أنت ابني انا اليوم ولدتك »(٣) تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا .

ومن ثم يتأكد لنا إنه قد فعل بالزبور ما فعل بالتوراه وبالانجيل من التبديل والتحريف والكذب على الله تعالى .

وأما صحف سيدنا إبراهيم وصحف سيدنا موسى عليهما السلام :

فقد ورد ذكرهما في القرآن الكريم معاً صراحة مرتين : أولاهما في وقوله تعالى : (أم لم ينبأ بما في صحف موسى وابراهيم الذي وفى . ألا تزر وازرة وزر أخرى . وأن ليس للإنسان إلا ما سعى)(٤) .

والثانيه : في قوله تعالى : (قد أفلح من تزكى ، وذكر اسم ربه فصلى .

---

(١) انظر : روح المعاني : ١٥ / ٩٥ .
(٢) انظر : الفصل في الملل والنحل ٢ / ٩ .
(٣) انظر الفصل ٢ / ٤ .
(٤) سوره النجم ٣٦ - ٣٩ ك .

بل تؤثرون الحياه الدنيا ، والآخره خير وأبقى ، إن هذا لفى الصحف الأولى ، صحف ابراهيم وموسى »(١) .

وقد عرف المفسرون بمضمون هذه الصحف وأتوا ببعض نصوصها من خلال الآثار المروية ، فقد نقل القرطبي الجزء المعرف بهذه الصحف من حديث سيدنا أبي ذر الذى أخرجه الاجرى ورواه ابن كثير فى تفسيره وهو :-

(.. قال : قلت : يارسول الله ، فما كانت صحف ابراهيم ؟ قال : « كانت أمثالا كلها : أيها الملك المتسلط المبتلى المغرور ، إنى لم أبعثك لتجمع الدنيا بعضها على بعض ولكن بعثتك لترد عنى دعوه المظلوم فإنى لا أردها ولو كانت من فم كافر .

وكان فيها أمثال : وعلى العاقل أن يكون له ثلاث ساعات : ساعة يناجى فيها ربه ، وساعة يحاسب فيها نفسه ، يفكر فيها فى صنع الله عز وجل إليه ، وساعة يخلو فيها لحاجته من المطعم والمشرب ، وعلى العاقل : ألا يكون ظاعنا إلا فى ثلاث : تزود لمعاد ، ومرمة لمعاش ، ولذة فى غير محرم ، وعلى العاقل : ان يكون بصيرا بزمانه مقبلا على شأنه ، حافظا للسانه ، ومن عد كلامه من عمله : قل كلامه إلا فيما يعنيه ، قلت : يارسول الله ، فما كانت صحف موسى ؟

قال : « كانت عبراً كلها . عجبت لمن أيقن بالموت كيف يفرح ، وعجبت لمن أيقن بالقدر كيف ينصب ، وعجبت لمن رأى الدنيا وتقلبها بأهلها كيف يطمئن إليها ، وعجبت لمن أيقن بالحساب غدا ثم هو لا يعمل » قال : قلت : يا رسول الله ، فهل فى أيدينا شىء مما كان فى يدى إبراهيم وموسى ؟ قال : « نعم . اقرأ يا أباذر : « قد أفلح من تزكى وذكر اسم ربه فصلى بل تؤثرون الحياة الدنيا والآخره خير وأبقى ، ان هذا لفى الصحف الأولى صحف إبراهيم وموسى .. »(٢) .

---

(١) سورة الأعلى / ١٤ - ١٩ ك .

(٢) انظر الجامع لأحكام القران / ٢٠ - ٢٤ وتفسير ابن كثير ٢: / ٤٢٤

ثم نأتى إلى خاتم الكتب السماوية «القرآن الكريم» :

والحديث عن القرآن العظيم من أى الزوايا يحتاج إلى أعمار مديدة وأسفار عديدة ثم لا يفى الحديث بحق أحسن الحديث !!

وكيف نتحدث عنه وهو بين أيدينا ناطق بسر إعجازه وخلوده ؟ ؟ .

وكيف لا نتحدث عنه وهو لم يزل بعد بكر المعانى لم ولن تفنى عجائبه ولم ولن تنقضى غرائبه ؟ ؟ .

(كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولوا الألباب)(١) .

(كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد)(٢) .

كتاب نوه الحق تعالى بعظيم شرفه فأشار إليه بالتعظيم ، وعرفه بلام الحقيقة ونفى عنه الريب وجعله هدى المتقين فقال عز من قائل : (آلم ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين)(٣) .

كتاب تكفل الحق تعالى بحفظه — دون ما سواه — فعصم مما منيت به الكتب الأخرى من التبديل والتحريف والنسيان والاختلاق : فقال تعالى شأنه : (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون)(٤) .

ومن هذا المنطلق نتعرف على موقف القرآن الكريم من الكتب السماوية التى نزلت بين يديه ؟

---

(١) سورة ص / ٢٩ .

(٢) سورة إبراهيم / ١ك .

(٣) سورة البقرة ، ١ — ٢م .

(٤) سورة الحجر / ٩ك .

لقد تكفل التنزيل نفسه بتوضيح هذا الموقف وإبراز معالمه الوضاءة، إذ قال عز من قائل : (وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه)(١) .

لقد قرر التنزيل موقفه مما سبقه من الكتب ممثلا فى أمرين رئيسيين :—

أولهما : تصديقه لها :

وثانيهما : هيمنته عليها .

فأما تصديقه للكتب المتقدمة بين يديه : فالمراد به : أنه مطابق لها فى تقرير أصول الدين والملة ؛ وهى الأصول الثابتة فى كل رسالة سماوية ، وهذه الأصول هى : المبدأ : (الله) — الوسط : (الرسل)— المعاد : (اليوم الآخر) .

وكذلك هو مصدق لها بمعنى أنه نازل حسبما نعت فيها .

وكذلك هو مصدق لها بمطابقته لها فيما لم ينسخ كالقصص والمواعظ ، وبعض المحرمات كالكذب والزنا والربا ، أو مطابق لجميع ما فيها ، وإنما المخالفة فى بعض جزئيات الأحكام التى هى للأمراض القلبية كالأدوية الطبية للأمراض البدنية المختلفة بحسب الأزمان والأشخاص وليست مخالفة لها فى الحقيقة ، بل هى موافقة لها من حيث أن كلا منها حق فى عصره متضمن للحكمة التى يدور عليها فلك التشريع(٢) .

وأما هيمنة القرآن الكريم على سائر الكتب السماوية السابقة : فالمراد بها : أنه رقيب وشاهد على كل ما تقدمه من كتب الله السماوية المحفوظة من

---

(١) سورة المائده / ٤٨ م .

(٢) أنظر : روح المعانى للإمام الآلوسى ١ / ٤٤ .

التغيير . حيث تشهد لها بالصحة والثبات ، ويقرر أصول شرائعها ، وما يتأبد من فروعها ، ويعين أحكامها المنسوخة ببيان انتهاء مشروعيتها المستفادة من تلك الكتب وانقضاء وقت العمل بها(١) .

كذلك فسرت الهيمنة لدى سلف الأمة — كالإمام ابن عباس والحسن وابن جبير — بأنه أمين ومؤتمن على الكتب المتقدمة(٢) .

كما فسرت الهيمنة بالعلو والارتفاع ، وأن هذا يدل على التفضيل فى كثرة الثواب(٣) .

— وإنما كان القرآن الكريم مهيمنا على ما سبقه من الكتب الإلهية : لأنه الكتاب الوحيد — من بين كتب السماء — الذى تكفل الحق تعالى : بحفظه وحمايته من التحريف ، والتغيير والتبديل والإخفاء كلا أو بعضا ، حيث تعهد الله سبحانه بحفظه من كل ذلك فيه صراحة حيث قال سبحانه .

(إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون)(٤) ,

بينما وكل حفظ الكتب السابقة إلى الربانيين والأحبار كما قال تعالى : « إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا ، والربانيون والأحبار بما استحفظوا من كتاب الله ، وكانوا عليه شهداء »(٥) .

وتحقق وعد الله تعالى : ومضى على نزول القرآن الكريم : أربعة

---

(١) أنظر : تفسير أبو السعود ، بهامش مفاتيح الغيب ٣ / ٤٤٢ .

(٢) أنظر : تفسير القرطبى ٦ / ٢١٠ .

(٣) نفس المرجع .

(٤) سورة الحجر / ٩ ك .

(٥) سورة المائدة / ٤٤ م .

عشر قرنا من الزمان ، ولم يزل — وسيظل — كما أنزله الله تعالى : محفوظا ومصدقا : ومهيمنا بإذن الله تعالى: وحفظه ، إذ هو الوثيقة الإلهية الباقية لهدايه الإنسانية إلى النور .

اللهم بحقه لديك اجعلنا من أهله ، وورثته المتحققين بهديه الداعين به إليك المنتمين به لجنابك ولحضرة رسولك صلى الله عليه وسلم : فى الدنيا ويوم الدين .

* * *

الركن الرابع من أركان الإيمان :

«الإيمان برسل الله»

تظاهرت النصوص القرآنية الداعية إلى الإيمان برسل الله ﷺ أجمعين والموجبة لاعتقاد تبليغهم وعصمتهم جميعا وعدم التفرقة بينهم .

فمن الآيات الداعية إلى الإيمان برسل الله جميعا :

قوله تعالى : (فآمنوا بالله ورسله ، وإن تؤمنوا وتتقوا فلكم أجر عظيم)(١) .

ومنها قوله سبحانه : (فآمنوا بالله ورسله : ولا تقولوا ثلاثة انتهوا خيرا لكم)(٢) .

وقد قرن التنزيل الحكيم دعوته إلى الإيمان برسل الله وعدم التفرقة بينهم بالوعد والوعيد فقال عز من قائل: « إن الذين يكفرون بالله ورسله ، ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ، ويقولون نؤمن ببعض ، ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا ، أولئك هم الكافرون حقا ، واعتدنا للكافرين عذابا مهينا والذين آمنوا بالله ورسله ، ولم يفرقوا بين أحد منهم أولئك سوف يؤتيهم أجورهم وكان الله غفورا رحيما)(٣) .

---

(١) سورة ال عمران / ١٧٩ م .

(٢) سورة النساء / ١٧١ م .

(٣) سورة النساء / ١٥٠ — ١٥٢ م ،

وقال تعالى شأنه : (والذين آمنوا بالله ورسله ، أولئك هم الصديقون ، والشهداء عند ربهم لهم أجرهم ونورهم)(١) .

وقال جل أسمه : (سابقوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء والأرض أعدت للذين آمنوا بالله ، ورسله ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم)(٢) .

والرسل : جمع رسول ، وهو : من أوحى إليه بشرع يعمل به ويبلغه لغيره ، فهو أخص من النبي الذى هو : إنسان ذكر حر من بنى آدم سليم ، عن منفر طبعا أوحى إليه بشرع يعمل به ، وإن لم يؤمر بتبليغه(٣) .

فكل رسول نبى ، ولا عكس .

ولقد بين الله تعالى : فى التنزيل حكمه البالغة الداعية إلى إرسال الرسل فقال عز من قائل : (كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ، ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه ، وما أختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغيا بينهم فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم)(٤).

من هذه الآية الكريمة الجامعة نستنبط ما يلى : — فى ضوء أقوال المفسرين .

١ — أن الناس كانوا فى البدء قاطبة — فيما بين آدم ونوح عليهما السلام — متفقين على كلمة الحق ودين الإسلام ، ثم أختلفوا بسبب البغى بينهم ، فانتحروا المذاهب الباطلة ،

---

(١) سورة الحديد / ١٩ م (٢) سورة الحديد / ٢١ م

(٣) أنظر حاشية تحفة المريد على جوهرة التوحيد للشيخ الباجورى /٨

(٤) سورة البقرة / ٢١٣ م .

٢ — أن الله تعالى تداركهم برحمته ولطفه فبعث النبيين لحسم هذا الاختلاف بالدستور الإلهى (الكتاب السماوى) وهذا مفاد قوله سبحانه (ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه) فالأنبياء (الرسل) حكام بشرع الله وسفراء لله إلى خلقه لرحمتهم . وشهداؤه عليهم .

٣ — أن الرسل مبعوثون للتبشير وللإنذار مع الحكم بما أنزل الله تعالى.

٤ — وأن معقد مهمة الرسول : هى الهداية : (فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق) .

٥ — وأن تلك الهداية لله على الحقيقة وللرسول سببا : (وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم)(١) .

٦ — وأن هذه الهداية المرجوة من إرسال الرسل إنما هى منوطة ومعلقة بالمشيئة الإلهية وأن مهمة الرسول منحصرة فى التبليغ (إن عليك إلا البلاغ)(٢) ، (والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم) .

وفى آية كريمة أخرى يبين الحق تعالى لنا الحكمة من إرسال الرسل فيقول جل شأنه : (رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزا حكيما)(٣) .

وهذه لعمرى أقوى دليل على قصور العقل البشرى الذى لا يصلح ـ وحده ـ على الإطلاق أن يكون أداة للهداية ، وإلا لما كان الاحتجاج قائما بدون الرسل ، وقد ذكر الحق تعالى لنا هذا الاحتجاج المحقق وقوعه فيما لو لم يبعث رسول فقال تعالى (ولو أنا أهلكناهم بعذاب من قبله لقالوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا فنتبع آياتك من قبل أن نذل ونخزى)(٤).

---

(١) سورة الشورى / ٥٢ ك .
(٢) سورة الشورى / ٤٨ ك .
(٣) سورة النساء / ١٦٥ م .
(٤) سورة طه / ١٣٤ ك

وإذاً : ففى إرسال الرسول سقوط للحجة وقطع للعذر بعد تبيان الصراط المستقيم وفى حقيقة الأمر أن إرسال الرسل إنما هو بمحض فضل من الله وإحسانه ، قال العلامة أبو السعود : (وإنما سميت حجة — مع استحالة أن يكون لأحد عليه سبحانه حجة فى فعل من أفعاله بل له أن يفعل ما يشاء كما يشاء — للتنبيه على أن المعذرة فى القبول عنده تعالى بمقتضى كرمه ورحمته لعباده بمنزلة الحجة القاطعة التى لا مرد لها ، ولذلك قال تعالى (وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا(١)...)(٢) .

النبوة والرسالة : اصطفاء واجتباء :

وقد قرر القرآن الكريم أن الرسالة محض اجتباء واصطفاء من الله تعالى فلا تنال باكتساب العبد ـ خلافاً لمن زعم ذلك من الفلاسفة ـ فقال تعالى شأنه : (الله يصطفى من الملائكة رسلا ومن الناس)(٣) وقال سبحانه: (ولكن الله يجتبى من رسله من يشاء)(٤) (وإنهم عندنا لمن المصطفين الأخيار)(٥) .

إنه الاصطفاء الإلهى لمن يحملون رسالات الله إلى عباده ، فلا جرم أن يكونوا فى أوج الكمال الفطرى والكسبى ، إنهم صفوة الحق تعالى الذى اصطنعهم لنفسه ، وعلى عينه !! وتكفل بحفظ ظواهرهم وبواطنهم مما لا يليق بأصفى صفوة الله . . فرباهم فى أعطاف العناية العظمى وجبلهم على الصدق والأمانة والفطانة ثم أعلهم لتبليغ كلمته لخلقه على أحسن مايكون

---

(١) سورة الإسراء / ١٥ ك
(٢) أنظر تفسير أبى السعود بهامش مفاتيح الغيب ٣ / ٣٢٤ .
(٣) سورة الحج / ٧٥ م .　　(٤) سورة ال عمران / ١٧٩ م .
(٥) سورة (ص) / ٤٧ ك .

التبليغ ، فهم : (الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحدا إلا الله وكفى بالله حسيبا)(١) .

لقد زودهم ربهم بالخشية من جنابه وحده ، وحلاهم وكملهم بالعلم والحكم والإحسان (ولما بلغ أشده اتيناه حكما وعلما وكذلك نجزى المحسنين)(٢).

وإننا لنلمس فى قصص الأنبياء فى القرآن العظيم : الشىء الكثير نلاحظ به أولئك الرسل الهداة من مقومات مثالية لأقطاب الدعوة إلى الله على بصيرة .

فها هو ذا سيدنا (هود) عليه السلام يقدم نفسه إلى قومه بأبرز هذه المقومات ـ فى عبارة وجيزة مشحونة بالمضامين ـ قائلا : ياقوم ليس بى سفاهة ولكنى رسول من رب العالمين أبلغكم رسالات ربى وأنا لكم ناصح أمين)(٣) .

لقد اجتمعت الصفات الأربع التى تجب أن تتوفر فى الرسول فى هذا التقديم النورانى ، إذ أن قوله (ولكنى رسول من رب العالمين) هو دعوى الرسالة المؤيدة بالمعجزة التى هى بمنزلة قوله تعالى : صدق عبدى فى كل مايبلغه عنى . وهذه صفه الصدق .

وقوله : (أبلغكم) فيه صفة التبليغ .

وقوله : (وأنا لكم ناصح) : مشتمل على صفة الفطانة ، إذ أن النصح مستلزم لفطانة الرسول حتى يثمر نصحه فى قومه .

وقوله : (أمين) : صريح فى إفادة صفة الأمانة .

ثم ناهيك بتقديم الله تعالى رسوله الأعظم سيدنا محمد ﷺ إلى أمته بقوله

---

(١) سورة الأحزاب / ٣٩ م .　　(٢) سورة يوسف / ٢٢ ك .

(٣) سورة الأعراف / ٦٧ — ٦٨ ك .

جل شأنه : (لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ماعنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤف رحيم) [١] .

لقد قدمه الحق تعالى لأمته المكرمة - جعلنا الله تعالى من خواصها فى الدارين - باسمين من أسمائه الحسنى وهما : (الرؤف) و (الرحيم) . يقول سيدى جعفر الصادق رضى الله تعالى عنه وعنا به : (علم الله تعالى عجز خلقه عن طاعته فعرفهم ذلك لكى يعلموا أنهم لاينالهم الصفو من خدمته فأقام سبحانه بينه وبينهم مخلوقا من جنسهم فى الصورة فقال : (لقد جاءكم رسول من أنفسكم) وألبسه من نعته : الرأفه والرحمه ، وأخرجه إلى الخلق سفيرا صادقا ، وجعل طاعته: طاعته ، وموافقته موافقته فقال سبحانه : (من يطع الرسول فقد أطاع الله) [٢] . . .) [٣]

هذا : وبثبوت الصفات الواجبة لرسل الله صلوات الله وسلامه على رسولنا وعليهم أجمعين تنتفى أضدادها ، وتتأكد لهم العصمة بل أنها نفس مدلول صفة الأمانة الثابتة لهم بنفى ضدها وهو الخيانة المنتفية عنهم بقوله تعالى : (وما كان لنبى أن يغل) [٤] : إذ أن الغلول هو الخيانة . وحاشا لأكرام خلق الله وأمنائه أن يخونوا .

والأمانة عند المتكلمين هى : حفظ الله تعالى ظواهر الرسل وبواطنهم من التلبس بمنهى عنه ولو نهى كراهة أو خلاف الاولى [٥] وكذلك العصمة هى حفظ الله تعالى للأنبياء والرسل من الذنب مع إستحاله وقوعه .

---

(١) سورة التوبه ١٢٨ م

(٢) سورة النساء ٨٠ م

(٣) انظر تفسير الآلوسى ١١/٥٧

(٤) سورة آل عمران ١٦١ م

(٥) انظر : تحفة المريد للامام الباجورى / ١٢١ ، ١٣٤

عدد الأنبياء والرسل :

روى الامام احمد بسنده إلى أبي أمامة رضى الله عنه حديثا حافلا دار بين النبي ﷺ وبين أبي ذر رضى الله عنه وقد ورد فيه عدد الانبياء وعدد الرسل الذين اصطفاهم الله تعالى منذ فجر البشرية وإلى قيام الساعة ، إذ قال : (قلت : يارسول الله : كم وفى عدة الانبياء ؟ قال : مائة ألف واربعة وعشرون ألفا ، الرسل من ذلك ثلثمائه وخمسة عشر جما غفير)(١) .

ولقد قال الله تعالى مخاطبا رسوله الاعظم ﷺ (ولقد ارسلنا رسلا من قبلك منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك ..)(٢) وقد ورد فى القرآن الكريم ذكر اسماء خمسة وعشرين نبيا كريما وهم سادتنا : آدم وادريس ونوح وهود وصالح وإبراهيم ولوط واسماعيل وإسحاق ويعقوب ويوسف وأيوب وشعيب وموسى وهارون ويونس وداود وسليمان وإلياس واليسع وزكريا ويحى وعيسى وذو الكفل ثم سيدهم وخاتمهم سيدنا محمد ﷺ المبعوث للناس كافة كما قال تعالى : (قل يأيها الناس أنى رسول الله إليكم جميعا)(٣) وقال عز من قائل : (ما كان محمد أبا أحدمن رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين) (٤) .

---

(١) انظر المسند : ٥/٢٦٦
(٢) سورة غافر ٧٨ ك
(٣) سورة الاعراف ١٥٨ ك
(٤) سورة لاحزاب ٤٠ م

الركن الخامس من أركان الإيمان :

الإيمان باليوم الآخر

تجلت عظمة القرآن الكريم فى تجسيد الجانب الغيبي وإبرازه كالمشاهد الماثل أمام الحس والعقل والوجدان ، حتى يسلك الإيمان سبيله إلى القلب ويرسخ فى اللب عميقا ثابتا وشامخا ، ولقد تجلت تلك العظمة القرآنية فى تعميق الإيمان باليوم الآخر بنوع خاص فألفينا آيات التنزيل تبرز - فى معرض الحتمية - تحقق اليوم الآخر بما اشتمل عليه من حياة بعد الموت ونعيم وعذاب فى القبر ومن بعث وحشر وحساب وميزان وصراط وجنة ونار وغير ذلك .

ولقد أكد لنا التنزيل أهمية هذا الركن الركين فى بناء الإيمان حيث ورد فى بعض الآيات قرين الإيمان بالله تعالى مباشرة وقبل الأركان الأخرى حيث قال سبحانه : (ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين ..)(١) .

كما نجد بعض الآيات الداعية إلى الإيمان يقتصر فيها على الإيمان بالله واليوم الآخر إذ يقول سبحانه : (وماذا عليهم لو آمنوا بالله واليوم الآخر وأنفقوا مما رزقهم الله ..)(٢) .

فالحق تعالى يقرن الإيمان باليوم الآخر بالإيمان به لربط المعاد بالمبدأ ، ولأن ثمرة الإيمان بالله تعالى تجتنى فى اليوم الآخر ، ففي كل من الركنين العظيمين مدعاة للإيمان بالآخر !! .

كذلك سلك الحق تعالى الإيمان باليوم الآخر فى سلك مقومات التقوى

---

(١) سورة البقرة / ١٧٧ م (٢) سورة النساء / ٣٩ م .

والهداية والفلاح ، إذ قال تعالى شأنه : (ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون . أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون(١) .

ولقد اقترنت دعوة القرآن للإيمان باليوم الآخر : بالوعد وبالوعيد ، فقال تعالى :(ومن الأعراب من يؤمن بالله واليوم الآخر ويتخذ ما ينفق قربات عند الله وصلوات الرسول ألا أنها قربة لهم سيدخلهم الله فى رحمته ان الله غفور رحيم)(٢) .

وقال تعالى : (إن الذين لا يؤمنون بالآخرة زينا لهم أعمالهم فهم يعمهون . أولئك الذين لهم سوء العذاب وهم فى الآخرة هم الأخسرون)(٣).

وقال تعالى : (للذين يؤمنون بالآخرة مثل السوء ولله المثل الأعلى وهو العزيز الحكيم)(٤) . وقد ذهب العلماء فى بيان المراد باليوم الآخرين إلى قولين :

أحدهما : أن الوقت الذى يبدأ من الحشر إلى ما لا يتناهى فهو الأبد الدائم .

والثانى : أنه الوقت المحدود من النشور إلى أن يدخل أهل الجنة وأهل النار .

فعلى الأول : تكون تسميته بالآخر: لأنه آخر أيام الدنيا ـ على معنى أنه متصل بآخر أيامها ، لأنه ليس من أيام الدنيا حتى يكون آخرها فعلا.

---

(١) سورة البقرة / ٢ — ٥ م .
(٢) سورة التوبة / ٩٩ م .
(٣) سورة النمل / ٤ — ٥ ك .
(٤) سورة النحل / ٦٠ ك .

وعلى الثانى : سمى بالآخر لأنه آخر الازمنة المحدودة ، وعلى كليهما : لأنه لاليل بعده (١) :

ويسمى اليوم الآخر بيوم القيامة ، لقيام الناس فيه من قبورهم للمثول بين يدى ربهم كما قال تعالى : (يوم يقوم الناس لرب العالمين) (٢) .

والذى أرجحه : أن اليوم الآخر يبدأ بالموت ، لقول الرسول ﷺ : (إن القبر أول منازل الآخرة ، فإن نجا منه فما بعده أيسر منه ، وإن لم ينج منه : فما بعده أشد منه)(٣) .

ولا ريب أن اطلاق اسم اليوم على اليوم الآخر اطلاق مجازى ؛ إذ اليوم ماحد عرفا : بما بين شروق الشمس وغروبها ، وشرعا ما بين الفجر والغروب .

استدلال التنزيل على وقوع البعث والحساب والجزاء :

برزت عناية القرآن الكريم الفائقة بشأن البعث واليوم الآخر وتأصيل هذا الجانب العقدى وتقريره فى النفوس ، وترسيخ الايمان به حتى أننا قلما نجد سورة فى التنزيل إلا وللبعث واليوم الآخر فيها سهم وأى سهم !! فمن إستدلال يقوم على إدراك الفطرة إلى برهان عقلى ملزم إلى تصوير واقعى لأحداث ذلك اليوم العظيم إلى غير ذلك .

---

(١) انظر مفاتيح الغيب ١٨٧/١ وتحفة المريد/١٧٥ و : المحرر الوجيز لابن عطية ١٥٧/١ .

(٢) سورة المطففين / ٦ ك

(٣) رواه الترمذى وابن ماجه والحاكم ، انظر كنز العمال ٦٣٤/١٥ .

ولقد تجلت عظمة القرآن الكريم حقا فى الاستدلال على حتمية وقوع البعث بربطه بأصل الأصول وهو الإيمان بالله تعالى وتقرير استلزام الإيمان بالمبدأ للإيمان بالمعاد .

فالإيمان بالله تعالى وبصفاته وأسمائه التى منها الحكم والعدل والباعث والشهيد والحق والمبدىء والمعيد : قاض بضرورة البعث والإعادة والحساب والجزاء ، وإلا لكان خلق الإنسان فى هذه الحياة عبثا ، تعالى الله عن ذلك ، وجل جلاله القائل .

« أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لا ترجعون ؟ فتعالى الله الملك الحق لا إله إلا هو رب العرش الكريم »(١) .

فمن أنكر البعث من الكفار فإن وراء إنكاره للبعث كفرا بالله تعالى أو بصفة من صفاته ، كالقدرة على الاعادة مثلا ، ولقد سجل التنزيل هذا الانكار ودفعه بإثبات موجبه من تعلقات الإيمان بالله تعالى :

فمن ذلك قوله جل شأنه : (زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا قل بلى وربى ، لتبعثن ثم لتنبؤن بما عملتم وذلك على الله يسير . فآمنوا بالله ورسوله والنور الذى أنزلنا)(٢) .

لقد دفع إنكارهم المنوط بعدم إيمانهم بالقدرة على الإعادة بقوله سبحانه (وذلك على الله يسير) ثم أردفه بالأمر بالإيمان بالله ورسوله وكتابه .

وقد أقام القرآن الكريم على إمكانية البعث والحشر والنشر صروحا شامخة من الأدلة العقلية(٣) فى عديد من آيه وسوره متخذا فى ذلك ضروبا

---

(١) سورة المؤمنون / ١١٥ - ١١٦ ك

(٢) سورة التغابن / ٨ م

(٣) لقد زاوج التنزيل فى إثبات البعث بين الأدلة النقلية والعقلية ، =

شتى ومسالك متنوعة فى الاستدلال فمن ذلك : إثبات التنزيل لإمكانية الحشر والنشر بناء على أنه تعالى : قادر على أمور تشبه الحشر والنشر : ولنترك تحليل هذه الطريقة للإمام الفخر رضى الله عنه إذ يقول :ـ

« وقد قرر الله هذه الطريقة على وجوه : فأجمعها ما جاء فى سورة الواقعة ، فإنه تعالى : ذكر فيه حكاية عن أصحاب الشمال أنهم كانوا يقولون (ائذا متنا ، وكنا ترابا ، وعظاما أئنا لمبعوثون . أو آباؤنا الأولون)(١) ؟ .

فأجابهم الله تعالى بقوله : (قل إن الأولين ، والآخرين لمجموعون إلى ميقات يوم معلوم)(٢) .

ثم إنه تعالى احتج على امكانه بأمور أربعة :ـ

(أولها) : قوله : (أفرأيتم ما تمنون . أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون)(٣) .

وجه الاستدلال بذلك :

أن المنى إنما يحصل من فضلة الهضم الرابع ، وهو كالطل المنبث فى آفاق

ــــــــــــ

= وقد سوغ الفخر الاستدلال النقلى ههنا تطبيقا لقاعدة : (أن كل مالا يتوقف صحة نبوة الرسول صلى الله عليه وسلم عليه أمكن إثباته بالدليل النقلى (أنظر مفاتيح الغيب ١ /٢٢٥) ، وقد سبق الاكتفاء بالدليل النقلى فى قوله تعالى : (.. قل بلى وربى لتبعثن ..) إلخ .

(١) سورة الواقعة / ٤٧ — ٤٨ ك .

(٢) سورة الواقعة / ٤٩ — ٥٠ .

(٣) سورة الواقعة ٥٨ — ٥٩ .

أطراف الأعضاء ، ولهذا تشترك الأعضاء فى الالتذاذ بالوقاع بحصول الانحلال عنها كلها ، ثم إن الله تعالى : سلط قوة الشهوة على البقية حتى أنها تجمع تلك الأجزاء الطلية .

فالحاصل : أن تلك الأجزاء كانت متفرقة جدا : أولا فى أطراف العالم .

ثم إنه تعالى : جمعها فى بدن ذلك الحيوان ، ثم إنها كانت متفرقة فى أطراف بدن ذلك الحيوان ، فجمعها الله سبحانه وتعالى : فى أوعية المنى ، ثم إنه تعالى أخرجها ماء دافقا إلى قرار الرحم . فإذا كانت هذه الأجزاء متفرقة فجمعها وكون منها ذلك الشخص ، فإذا افترقت بالموت مرة أخرى : فكيف يمتنع عليه جمعها مرة أخرى :

فهذا تقرير هذه الحجة ، وإن الله تعالى ذكرها فى مواضع من كتابه . منها فى سورة (الحج) :

(يا أيها الناس إن كنتم فى ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب . .) إلى قوله (وترى الأرض هامدة) : ثم قال : (ذلك بأن الله هو الحق وأنه يحيي الموتى وأنه على كل شيء قدير . وأن الساعة آتية لا ريب فيها . وأن الله يبعث من فى القبور)(١) .

وقال فى سورة : (قد أفلح المؤمنون) — بعد ذكر مراتب الخلقة — (. . ثم إنكم بعد ذلك لميتون . ثم إنكم يوم القيامة تبعثون)(٢) ،

وقال فى سورة (لا أقسم) : (ألم يك نطفة من منى يمنى ، ثم كان علقة فخلق فسوى)(٣) .

---

(١) الآيات : ٥ — ٧ م

(٢) الآيات : ١٥ — ١٦ ك .

(٢) الآيتان ٣٧ — ٣٨ ك .

وقال فى سورة (الطارق) : (فلينظر الانسان مم خلق ، خلق من ماء دافق يخرج ..) إلى قوله (إنه على رجعه لقادر)(١) .

(وثانيها) : قوله : (أفرأيتم ما تحرثون ؟ أأنتم تزرعونه . . .) إلى قوله: (بل نحن محرومون)(٢) .

وجه الاستدلال به : أن الحب وأقسامه — من مطول مشقوق وغير مشقوق كالأرز والشعير ، ومدور ، ومثلث ، ومربع ، وغير ذلك على اختلاف أشكاله — إذا وقع فى الأرض الندية . واستولى عليه الماء والتراب، فالنظر العقلى يقضى: أن يتعفن ويفسد ، لأن أحدهما يكفى فى حصول العفونة فبهما جميعاً أولى ثم انه لا يفسد . بل يبقى محفوظا ، ثم إذا ازدادت الرطوبة تنفلق الحبة فلقتين ، فيخرج منها ورقتان.

وأما المطول : فيظهر فى رأسه ثقب ، وتظهر الورقة الطويلة كما فى الزرع .

وأما النوى : فما فيه من الصلابة العظيمة التى بسببها يعجز عن فلقه أكثر الناس : إذا وقع فى الأرض الندية ينفلق بإذن الله ، ونواة التمر : تنفلق من نقرة على ظهرها ويصير مجموع النواة على نصفين : يخرج من أحد النصفين الجزء الصاعد ، ومن الثانى الجزء الهابط أما الصاعد : فيصعد، وأما الهابط : فيغوص فى أعماق الأرض .

والحاصل : أنه يخرج من النواة الصغيرة شجرتان : إحداهما : خفيف صاعد والأخرى : ثقيل هابط مع اتحاد العنصر واتحاد طبع النواة والماء والهواء والتربة ، أفلا يدل ذلك على قدرة كاملة وحكمة شاملة ؟ فهذا القادر كيف يعجز عن جمع الأجزاء وتركيب الأعضاء ؟

---

(١) الآيات : ٥ - ٨ ك .
(٢) الآيات : ٦٣ - ٦٧ ك .

ونظيره : قوله تعالى فى (الحج) : (وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت)(١) .

(وثالثها) : قوله تعالى : (أفرأيتم الماء الذى تشربون ، أأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون)(٢) .

وتقديره : أن الماء ثقيل بالطبع ، وإصعاد الثقيل أمر على خلاف الطبع ، فلا بد من قدرة قاهر يقهر الطبع ، ويبطل الخاصية ، ويصعد ما من شأنه الهبوط والنزول .

وثانيها(٣) : أن تلك الذرات المائية اجتمعت بعد تفرقها .

وثالثها : تسييرها بالرياح .

ورابعا : إنزالها فى مظان الحاجة والأرض الجرز . وكل ذلك يدل على جواز الحشر .

أما(٤) صعود الثقيل : فلأنه قلب الطبيعة . فإذا جاز ذلك فلم لا يجوز أن يظهر الحياة والرطوبة من حساوة التراب والماء .

والثانى : لما قدر على جمع تلك الذرات المائية بعد تفرقها فلم لا يجوز جمع الأجزاء الترابية بعد تفرقها .

والثالث : تسيير الرياح ، فإذا قدر على تحريك الرياح التى تضم بعض

---

(١) الآية / ٥ م .

(٢) سورة الواقعة / ٦٨ - ٦٩ ك .

(٣) أى وثانى الدلائل المستقاه من آية إنزال الماء ، والدليل الأول : ما مر من إصعاد الثقيل .

(٤) شروع فى تفصيل وجوه دلالات الأدلة الاربعة على أمكانية البعث .

تلك الأجزاء المتجانسة إلى بعض فلم لا يجوز ههنا . . والرابع : أنه تعالى أنشأ السحاب لحاجة الناس إليه ، فههنا الحاجة إلى إنشاء المكلفين مرة أخرى ليصلوا إلى ما استحقوه من الثواب والعقاب أولى .

واعلم أن الله عبر عن هذه الدلالة فى مواضع أخرى من كتابه ، فقال فى (الأعراف) — لما ذكر دلالة التوحيد — (إن ربكم الله الذى . .) إلى قوله : (. . قريب من المحسنين)(١) ثم ذكر دليل الحشر فقال : (وهو الذى يرسل الرياح . .) إلى قوله : (. . كذلك نخرج الموتى لعلكم تذكرون)(٢) .

(ورابعها) : قوله : (أفرأيتم النار التى تورون ؟ أأنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشئون)(٣) ؟

وجه الاستدلال : أن النار صاعدة بالطبع ، والشجرة هابطة ، وأيضا : النار لطيفة والشجرة كثيفة ، وأيضا : النار نورانية والشجرة ظلمانية ، والنار حارة يابسة ، والشجرة باردة رطبة ، فإذا أمسك الله تعالى فى داخل تلك الشجرة تلك الأجزاء النورانية النارية ، فقد جمع بقدرته بين هذه الأشياء المتنافرة ، فإذا لم يعجز عن ذلك فكيف يعجز عن تركيب الحيوانات وتأليفها . .

والله تعالى ذكر هذه الدلالة فى سورة (يس) فقال : (الذى جعل لكم من الشجر الأخضر نارا)(٤) واعلم أنه تعالى : ذكر فى هذا السورة : أمر الماء والنار ، وذكر فى النمل : أمر الهواء بقوله : (أمن يهديكم فى ظلمات البر والبحر . .) إلى قوله : (أمن يبدأ الخلق ثم يعيده . .)(٥) .

---

(١) الآيات : ٤٤ - ٥٦ ك .　　(٢) الآية الكريمة / ٥٧ .
(٣) سورة الواقعة / ٧٢ ك .
(٤) الآية الكريمة / ٨٠ ك .
(٥) الآيتان الكريمتان / ٦٣ - ٦٤ ك .

وذكر الأرض فى (الحج) فى قوله : (وترى الأرض هامدة ..)(١) فكأنه سبحانه وتعالى بين أن العناصر الأربعة - على جميع أحوالها - شاهدة بإمكان الحشر والنشر)(٢) .

لقد تجلى لنا فى هذا النص - الذى آثرت إثباته برمته متكاملا - جانب بالغ الثراء من جوانب استدلال التنزيل على إمكان البعث ووقوعه ، وتجلى لنا - فى ذات الوقت - مقدرة حكيم المفسرين وفخر المتكلمين الرازى - عليه سحائب الرضوان - على إبراز معطيات القرآن العظيم فى إطار موضوعى متكامل يتيح الرؤية الشاملة والعميقة فى الوقت نفسه للوحدة الموضوعية المجسدة فى التنزيل :

وقد استنبط علماء التنزيل ضروبا من استدلال القرآن الكريم على المعاد والبعث الجسمانى تنتظم فى سلكها أقوى طرق الاحتجاج العقلى والجدل المنطقى ، فمن ذلك : -

١ — قياس الاعادة على الابتداء - قياس مساواة - كما فى قوله تعالى : (كما بدأكم تعودون)(٣) وكما فى قوله سبحانه : (كما بدأنا أول خلق نعيده)(٤) .

٢ — قياس الاعادة على الابتداء - قياسا أولويا - كما فى قولة جل شأنه : (وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه)(٥) وأفعل التفضيل (أهون) ليس على بابه ههنا حيث أن قدرة الله تعالى لا تتفاوت ، وإنما هو تقريب لأفهامنا نحن .

---

(١) من الآية الكريمة / ٥ م .

(٢) انظر مفاتيح الغيب ١ / ٢٢٥ - ٢٢٦ ط / الحسينيه

(٣) سورة الأعراف / ٢٩ ك (٤) سورة الانبياء / ١٠٤ ك

(٥) سورة الروم / ٢٧ ك

٣ ـ قياس الإعادة على خلق السموات والارض ـ

ويتمثل فى قوله تعالى : (أو ليس الذى خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم ؟ بلى وهو الخلاق العليم)(١) وإنما كان هذا قياسا أولويا :ـ لقوله تعالى (لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس)(٢) .

٤ ـ قياس الإعادة على إحياء الأرض بعد موتها بالمطر والنبات ـ قياسا تمثيليا ـ وذلك كما فى قوله تعالى : (فانظر إلى آثار رحمة الله كيف يحي الأرض بعد موتها إن ذلك لمحي الموتى وهو على كل شيء قدير)(٣) وكما فى قوله جل شأنه : (والله الذى أرسل الرياح فتثير سحابا فسقناه إلى بلد ميت فأحيينا به الأرض بعد موتها كذلك النشور)(٤) .

٥ ـ قياس الإعادة على إحداث النار من الشجر الأخضر بجامع القدرة على تبديل الأعراض فى كل منهما ، وهو من باب قياس المساواة أو التمثيل . وقد تمثل فى قوله تعالى : (الذي جعل لكم من الشجر الأخضر نارا فإذا أنتم منه توقدون)(٥) .

٦ ـ اقتضاء ما ركز فى فطرة الإنسان فى هذه الحياة من اختلاف بين أفراده فى الآراء والمعتقدات حول الحق الذى لا يتبدل : لضرورة وجود حياة أخرى يتضح فيها الخلاف والتضاد ويزول بزوال هذه الجبلة ويصير فيها الحق واضحا بينا لا خلاف فيه ولا جدال .

وقد قرر الحق تعالى ذلك فى قوله : (وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث

---

(١) سورة (يس) / ٨١ ك .
(٢) سورة غافر / ٥٧ ك
(٣) سورة الروم / ٥٠ ك
(٤) سورة فاطر / ٩ ك
(٥) سورة (يس) / ٨٠ ك

الله من يموت بلى وعدا عليه حقا ولكن أكثر الناس لا يعلمون . ليبين لهم الذى يختلفون فيه وليعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين)(١) .

كما وعد الحق تعالى بالمصير إلى تلك الحالة الأخروية التى تنقشع فيها غياهب النزاع والخلاف والتحاسد والتدابر إذ قال سبحانه (ونزعنا ما فى صدورهم من غل إخوانا على سرر متقابلين)(٢) . ومن ثم كان الاختلاف الماثل حول الحقيقة أوضح برهان على تحقق البعث ونشأة الحياة الأخرى(٣) .

وهكذا تتنوع دلائل القرآن الكريم على إثبات البعث واليوم الآخر بما لا يدع أثارة من الريب لدى سوى الفطرة وصحيح النظر ، وقد بلغت هذه الدلائل فى التنزيل من السعة والشمول والكثرة حدا فائقا لا يرام استقصاؤه فى مثل هذا المصنف .

ثم إننا لنجد فى صفحات التنزيل عرضا واسع الإطار متعدد المشاهد لأحداث اليوم الآخر وما فيه : بدءا من أول منازله فى الحياة البرزخية(٤) إلى صيحة القيامة الكبرى إلى مواقف الحساب والميزان والصراط إلى مستقر السعداء فى الجنة والأشقياء فى النار ، فمن ذلك ما يعرضه القرآن

---

(١) سورة النحل / ٣٨ — ٣٩ ك .

(٢) سورة الحجر / ٤٧ ك .

(٣) انظر ضروب هذه الاستدلالات فى نوع (جدل القرآن) فى الاتقان ٤/٥٢ وانظر أيضا : النهج القويم فى دراسة علوم القرآن الكريم للدكتور عبد الغنى الراجحى / ١١٠

(٤) مما ورد فى القرآن الكريم عن الحياة فى القبر والعذاب فيه - أعاذنا الله تعالى منه — قوله تعالى (النار يعرضون عليها غدوا وعشيا ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب) غافر / ٤٦

الكريم فى معرض الرد على سؤال المنكرين ، فيقول تقدست أسماؤه : (ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين . ما ينظرون إلى صيحة واحدة تأخذهم وهم يخصمون ، فلا يستطيعون توصية ولا إلى أهلهم يرجعون ، ونفخ فى الصور فإذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون ، قالوا يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون . إن كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم جميع لدينا محضرون . فاليوم لا تظلم نفس شيئاً ولا تجزون إلا ما كنتم تعملون ، إن أصحاب الجنة اليوم فى شغل فاكهون ، هم وأزواجهم فى ظلال على الأرائك متكئون لهم فيها فاكهة ولهم ما يدعون ..)(١) .

ومن صور أهوال يوم القيامة ما سجله التنزيل فى قوله تعالى : (يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شىء عظيم . يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها ، وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد)(٢) .

ومنها قوله سبحانه : (إذا الشمس كورت ، وإذا النجوم انكدرت ، وإذا الجبال سيرت ، وإذا العشار عطلت ، وإذا الوحوش حشرت ، وإذا البحار سجرت ، وإذا النفوس زوجت ، وإذا الموءدة سئلت : بأى ذنب قتلت ، وإذا الصحف نشرت ، وإذا السماء كشطت ، وإذا الجحيم سعرت ، وإذا الجنة أزلفت ، علمت نفس ما أحضرت)(٣) .

ومشاهد أخرى يسجل فيها التنزيل خوارق الأحداث الكونية وصور الحشر والعرض وصحف الأعمال : (ويوم نسير الجبال وترى الأرض بارزة وحشرناهم فلم نغادر منهم أحدا ، وعرضوا على ربك صفا لقد جئتمونا

---

(١) سورة يس / ٤٨ — ٥٧ ك
(٢) سورة الحج / ١ — ٢ م
(٣) سورة التكوير / ١ — ١٤ ك

كما خلقناكم أول مرة بل زعمتم أن لن نجعل لكم موعدا ، ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ، ويقولون يا ويلتنا ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضراً ولا يظلم ربك أحدا)(١) .

ومن أحداث يوم الحساب : السؤال والميزان (فلنسألن الذين أرسل إليهم ولنسألن المرسلين . فلنقصن عليهم بعلم وما كنا غائبين ، والوزن يومئذ الحق فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون ، ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم بما كانوا بآياتنا يظلمون)(٢) .

ومن مشاهد اليوم الآخر فى التنزيل : الحبس عند الصراط — أو فى الموقف — للسؤال :

قال تعالى : (احشروا الذين ظلموا وأزواجهم وما كانوا يعبدون من دون الله فاهدوهم إلى صراط الجحيم ، وقفوهم إنهم مسئولون)(٣) .

ثم بعد الحساب والميزان والصراط يأتى الجزاء فإما النعيم وإما العذاب إما الجنة وإما النار ونعيم الجنة له فى التنزيل فرائد الآيات الباهرات وروائع الأمثال الناطقـــة بما تتحير فى تصوره الألباب ، يقول بديع السموات والأرض : (مثل الجنة التى وعد المتقون فيها أنهار من ماء غير آسن وأنهار من لبن لم يتغير طعمه ، وأنهار من خمر لذة للشاربين وأنهار من عسل مصفى ولهم فيها من كل الثمرات ومغفرة من ربهم ..)(٤) .

---

(١) سورة الكهف / ٤٧ — ٤٩ ك

(٢) سورة الأعراف / ٦ — ٩ ك

(٣) سورة الصافات / ٢٢ — ٢٤ ك

(٤) سورة (محمد) / ١٥ م

ويقول جل شأنه : (وجزاهم بما صبروا جنة وحريرا ، متكئين فيها على الأرائك لا يرون فيها شمسا ولا زمهريرا ، ودانية عليهم ظلالها وذللت قطوفها تذليلا ، ويطاف عليهم بآنية من فضة وأكواب كانت قواريرا قوارير من فضة قدروها تقديرا ، ويسقون فيها كأسا كان مزاجها زنجبيلا عينا فيها تسمى سلسبيلا ، ويطوف عليهم ولدان مخلدون ، إذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤا منثورا ، وإذا رأيت ثم رأيت نعيما وملكا كبيرا ، عاليهم ثياب سندس خضر واستبرق وحلوا أساور من فضة وسقاهم ربهم شرابا طهورا ان هذا كان لكم جزاء وكان سعيكم مشكورا)(١) .

ثم هنالك ما فوق نعيم الجنة ، وهو النعيم الأعلى الذى لا يقادر قدره ولا تكتنه عظمته ألا وهو رؤية الله تبارك وتعالى والنظر إلى وجهه الكريم : (وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة)(٢) إنها اللذة التى لا تدانيها لذائذ الآخرة جميعا ، اللهم اجعلنا من أهلها المستحقين بها من غير حساب ولا عتاب بجاه من شرف برؤيتك إذ كان قاب قوسين أو أدنى صلوات الله وسلامه عليه وآله وصحبه أجمعين .

وفى مقابلة فريق السعادة المنعمين بالحسنى وزيادة : يصور لنا القرآن الكريم ما أعده الله لأهل الشقاء من العذاب فى النار ودركات الجحيم — أعاذنا الله تعالى من ذلك برحمته وفضله — فيقول تعالى شأنه : (فالذين كفروا قطعت لهم ثياب من نار يصب من فوق رءوسهم الحميم ، يصهر به ما فى بطونهم والجلود ، ولهم مقامع من حديد ، كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غم أعيدوا فيها وذوقوا عذاب الحريق(٣) ويقول عز شأنه

---

(١) سورة الإنسان / ١٢ — ٢٢ م .

(٢) سورة القيامة / ٢٢ — ٢٣ ك .

(٣) سورة الحج / ١٩ — ٢٢ م .

فى وصف طعام أهل النار : (إن شجرة الزقوم طعام الأثيم كالمهل يغلى فى البطون كغلى الحميم ، خذوه فاعتلوه إلى سواء الجحيم ثم صبوا فوق رأسه من عذاب الحميم)(١) اللهم سلمنا من غضبك وعذابك يا أرحم الراحمين .

تلك آيات الله الناطقة بالحق والمضيئة بالهدى واليقين تضىء لنا الطريق المستقيم وتمدنا بزاد الايمان بيوم الدين .. يوم يقوم الناس لرب العالمين .

---

(١) سورة الدخان / ٤٣ — ٤٨ ك .

الركن السادس من أركان الإيمان :

الإيمان بالقدر

وهذا الركن الركين فى بناء العقيدة الإسلامية - فى حقيقة الأمر - جزء لا يتجزأ من الإيمان بالله تعالى ، إذ هو تصديق بما لله سبحانه من صفات الوحدانية والعلم والقدرة والإرادة . من ثم لم ينص التنزيل صراحة على وجوب الإيمان بالقدر لدخوله - ضمنا - فى نطاق الإيمان بالله تعالى ، وإنما جاءت السنة الشريفة - المبينة للتنزيل - مصرحة بوجوب الإيمان بالقدر كركن أساسى فى الإيمان المعتبر شرعا ، إذ جاء فى حديث جبريل الجامع لأمور الدين الثلاثة : (... قال فأخبرنى عن الإيمان ؟ قال : أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره ...)(١) .

وأخرج الترمذى بسنده عن سيدنا على كرم الله وجهه : (قال : قال رسول الله ﷺ : لا يؤمن عبد حتى يؤمن بأربع : يشهد أن لا إله إلا الله وأنى محمد رسول الله بعثنى بالحق ، ويؤمن بالموت وبالبعث بعد الموت ويؤمن بالقدر)(٢) .

ولقد تعاضدت السنة مع القرآن الكريم فى إثبات القدر لله سبحانه وتعالى وإيجاب الإيمان به والحكم على الكافرين به بالإجرام والضلال وإنذارهم بالعذاب الشديد :

فقد روى الإمام مسلم وغيره عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : جاء

---

(١) أنظر صحيح مسلم بشرح النووى ١/١٥٧ ط المطبعة المصرية .
(٢) أنظر سنن الترمذى (كتاب القدر) ٤/٤٥٢ ط / الحلبى .

مشركوا قريش يخاصمون(١) رسول الله صلى الله عليه وسلم فى القدر فنزلت: (يوم يسحبون فى النار على وجوههم ذوقوا مس سقر ، إنا كل شىء خلقناه بقدر)(٢) .

والقدر — فى أصل اللغة — مصدر قدرت الشىء أقدره — بفتح الدال وكسرها فى المضارع — قدرا وقدرا — بفتح الدال وسكونها فى المصدر : بمعنى : أحطت بمقداره ، وقد نقل الفخر عن الواحدى — رحمهما الله تعالى — أنه قال : يقال : (قدر الشىء — إذا سبره وحزره وأراد أن يعلم مقداره — يقدره — بالضم — قدرا)(٣) .

كذلك يطلق القدر — فى اللغة — على وقت الشىء المقدر له . ومكانه المقدر له ، وقد ورد بالمعنى الأول فى قوله تعالى : (فجعلناه فى قرار مكين ، إلى قدر معلوم)(٤) ، كما ورد بالمعنى الثانى فى قوله تعالى : (فسالت أودية بقدرها)(٥) أى بقدر المكان المقدر لأن يسعها .

كما أطلق القدر — فى التنزيل — مرادا به المقدار ، كما فى قوله تعالى :

---

(١) جاء فى بيان مخاصمتهم هذه : أنهم قالوا : يامحمد ، تزعم أن المعاصى بقدر ، والبحار بقدر ، والسماء بقدر ، وهذه الأمور تجرى بقدر ، فأما المعاصى فلا ، فقال رسول الله ﷺ « أنتم خصماء الله » فأنزل الله تعالى (إن المجرمين فى ضلال وسعر . ..) إلخ . أنظر أسباب النزول للواحدى بتحقيق السيد صقر ص ٤٣٦ .

(٢) سورة القمر : ٤٧-٤٩ ك وأنظر صحيح مسلم بشرح النووى ١٦/٢٠٥

(٣) أنظر مفاتيح الغيب ٤/٨٨ ، وفتح البارى ١/١٢٦ .

(٤) سورة المرسلات ٢١-٢٢ ك .

(٥) الرعد : ١٧ .

(وإن من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم)(١) أى : إلا متلبسا بمقدار معين تقتضيه الحكمة وتستدعيه المشيئة(٢) .

كذلك يأتى القدر بمعنى التقدير كما فى قوله تعالى : (فقدرنا فنعم القادرون)(٣) . وبتدبر معانى هذه الإطلاقات اللغوية للقدر - التى ورد بها فى التنزيل - نستشعر ارتباطها جميعا بمدلول الأصل اللغوى لهذه المادة وهو : العلم والإحاطة . وهو - فى الوقت نفسه - عماد المعنى الشرعى - أو مبناه - الذى أثبته المتكلمون للقدر .

فحيث عرفه الأشاعرة بأنه : إيجاد الله تعالى للأشياء على قدر مخصوص ووجه معين على وفق علمه تعالى وإرادته : كان مبناه العلم والإرادة ، وإن كان من صفات الأفعال وحيث عرفه الماتريدية بأنه : علم الله تعالى أزلا بما تكون عليه المخلوقات فيما لا يزال : كان راجعا لصفة العلم وهى من صفات الذات (٤) .

وقد نقل العلامة (الأبى) فى شرحه على صحيح مسلم تعريف المتكلمين القدر قائلا : وهو فى عرف المتكلمين عبارة عن تعلق علم الله وإرادته أزلا بالكائنات قبل وجودها ، فلا حادث إلا وقد قدره سبحانه وتعالى أزلا ، أى : سبق علمه به وتعلقت به إرادته(٥) .

كذلك أثبت الإمام النووى - فى شرحه على مسلم - عقيدة أهل الحق ومخالفيهم فى القدر فقال :

---

(١) سورة الحجر ٢١ ك .

(٢) أنظر تفسير أبى السعود بهامش (مفاتيح الغيب) ٢٦٣/٦ .

(٣) سورة المرسلات / ٢٣ ك .

(٤) أنظر تحفة المريد للإمام البيجورى ص١١٣ وشرح الشبراوى على الأربعين النووية ص ١٩ .

(٥) أنظر : إكمال المعلم لأبى عبد الله الأبى ٥٥/١ .

(واعلم أن مذهب أهل الحق إثبات القدر . ومعناه : أن الله تبارك وتعالى قدر الأشياء فى القدم ، وعلم سبحانه أنها ستقع فى أوقات معلومة عنده سبحانه وتعالى ، وعلى صفات مخصوصة، فهى تقع على حسب ما قدرها سبحانه وتعالى .

وأنكرت القدرية هذا ، وزعمت : إنه سبحانه وتعالى لم يقدرها ، ولم يتقدم علمه سبحانه وتعالى بها ، وأنها مستأنفة العلم ، أى : إنما يعلمها سبحانه بعد وقوعها ، وكذبوا على الله سبحانه وتعالى ، وجل عن أقوالهم الباطلة علوا كبيرا . وسميت هذه الفرقة قدرية : لإنكارهم القدر .

قال أصحاب المقالات من المتكلمين : وقد انقرضت القدرية القائلون بهذا القول الشنيع الباطل ، ولم يبق أحد من أهل القبلة عليه ، وصارت القدرية فى الأزمان المتأخرة[1] تعتقد إثبات القدر ، ولكن يقولون : الخير من الله ، والشر من غيره ، تعالى الله عن قولهم)[2] اهـ

منهج القرآن الكريم فى إثبات القدر لله تعالى :

بناء على ما تقدم : يتضح لنا - بجلاء - أن من تنكب هدى القرآن الكريم فى عقيدة القدر إنما وقع فى الضلال البعيد لقصور فى إيمانه بالله تعالى أصلا ولافتقاد بليغ لمعرفة ما يجب لذاته سبحانه من الصفات التى قررها القرآن الكريم بإحكام بالغ .

ولقد أسس القرآن الكريم عقيدة القدر على ثبوت الصفات الإلهية

---

(١) القدرية المتأخرة هم : فرقة المعتزلة ، وهم القائلون بخلق العبد لأفعاله الاختيارية .

(٢) أنظر شرح الامام النووى على صحيح مسلم ١/١٥٤

الذات العلية ، وقد قدمنا أن مبنى القدر — أساسا — إنما هو على صفات : الوحدانية — ذاتاً وصفات وأفعالا — والعلم ، والإرادة ، ثم القدرة .

ولنبدأ بتقرير صفة (العلم) لأنه الركيزة الأساسية للرد على القدرية الأولى الذين زعموا أنه لاقدر وأن الأمر (أنف) أى : مستأنف لم يسبق به قدر ولا علم من الله تعالى وإنما يعلمه — تعالى — بعد وقوعه . تعالى الله عن زعمهم علوا كبيراً .

هنا نقول : إن القرآن الكريم قد قرر علم الله تعالى بجميع الأشياء أزلا وأبدا نصا صريحا بقوله سبحانه : (وكان الله بكل شىء عليما)(١) وبقوله جل شأنه : (إن الله كان عليما حكيما)(٢) فعلمه تعالى محيط بكل شىء بحيث لا يند شىء عن علمه تعالى كما أفادته الآية الكريمة الأولى . وعلمه تعالى قديم بقدمه سبحانه غير حادث ولا مستأنف كما كذب عليه المفترون . وقد دل التعبير بقوله (كان عليما) على قدم العلم له سبحانه كما أجمع عليه المفسرون ، يقول الإمام الفخر فى تفسيره :

(فإن قيل : لم قال : « كان عليما حكيما » مع أنه الآن كذلك ؟

قلنا : قال الخليل : الخبر عن الله بهذه الألفاظ كالخبر بالحال والاستقبال ، لأنه تعالى منزه عن الدخول تحت الزمان .

وقال سيبويه : القوم لما شاهدوا علما وحكمة وفضلا وإحسانا تعجبوا ، فقيل لهم : إن الله كان كذلك ولم يزل موصوفا بهذه الصفات »(٣) ونقل القرطبى عن الزجاج أنه قال فى تفسيرها : (« عليما » أى بالأشياء قبل خلقها « حكيما » فيما يقدره ويمضيه منها)(٤) اهـ ومن ثم فإن إقتران صفة العلم الإلهية

---

(١) سورة الأحزاب / ٤٠ م
(٢) سورة النساء / ١١ م
(٣) أنظر مفاتيح الغيب ٣/١٦١
(٤) أنظر تفسير القرطبى ٥/٧٥

بكلمة : (كان) : يفيد فى التنزيل أزلية العلم الإلهى ، وقد أكد ذلك أبو بكر الرازى - فيما نقله عنه صاحب الاتقان - إذ قال : (كان فى القرآن على خمسة أوجه : بمعنى الأزل والأبد ، كقوله : (وكان الله عليما حكيما) ،..)[1] وبقدم العلم الإلهى وأزليته يندحر زعم القدرية الأولى بأن علم الله تعالى مستأنف .

وقد أكد التنزيل - فى مواضع عديدة - سبق علم الله تعالى بالأشياء لوقوعها ، من ذلك قوله تعالى : (إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ، ويعلم ما فى الأرحام ، وما تدرى نفس ماذا تكسب غدا ، وما تدرى نفس بأى أرض تموت ، إن الله عليم خبير)[2] .

وقوله جل شأنه : (إن الله يعلم غيب السموات والأرض والله بصير بما تعلمون)[3] .

وقوله عز من قائل : (يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون به علما)[4] .

وتبارك العليم إذ يقول : (علم أن سيكون منكم مرضى وآخرون يضربون فى الأرض يبتغون من فضل الله وآخرون يقاتلون فى سبيل الله)[5] ، (قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا)[6] كل هذه الدلائل المحكمة لا تبقى أثارة من الوهم القدرى المنكر لقدم علم الله تعالى الذى قدرت به المقادير أزلا ، وبهذه الشواهد القرآنية : ترسخ الركيزة الأولى للايمان بالقدر .

ثم نأتى إلى الركيزة الثانية ، وهى صفة الإدارة باعتبارها الصفة الإلهية

---

(١) أنظر : الاتقان ٢/٢١٧
(٢) سورة لقمان ٣٤ ك
(٣) سورة الحجرات/١٨م
(٤) سورة (طه)/ ١١٠ ك
(٥) سورة المزمل/٢٠ ك
(٦) سورة التوبة /٥١ م

القديمة التي تخصص الممكن ببعض ما يجوز عليه من المتقابلات(١) : فنجد هذه الصفة القدسية تتعلق بالممكنات(٢) جميعها من خير وشر .

وهنا : موطن الخلاف الذي خالف فيه القدرية الثانية – وهم المعتزلة – جمهور أهل السنة والجماعة . حيث خصصوا الممكنات التي تتعلق بها إرادة الله تعالى : بالخير فقط ، وذهبوا إلى أن إرادته تعالى لا تتعلق بالشرور والقبائح ، ونسبوا ذلك إلى إرادة العبد ! !

ومن هذا المنطلق كانت الواقعة الجدلية الشهيرة بين الإمام أبي إسحق الاسفرايينى الأشعري وبين القاضي عبد الجبار المعتزلي ، حيث يروى أن القاضي عبد الجبار دخل على الصاحب ابن عباد وعنده الأستاذ أبو إسحق الاسفرايينى ، فلما رأى القاضي الأستاذ قال : سبحان من تنزه عن الفحشاء .

فقال الأستاذ ، سبحان من لا يجرى في ملكه إلا ما يشاء .

فقال عبد الجبار : أفيريد ربنا أن يعصى !

فقال الأستاذ : أفيعصى ربنا قهرا ؟

فقال عبد الجبار : أفرأيت إن منعنى الهدى وقضى على بالردى ، أحسن إلى أم أسا ؟

فقال الأستاذ : إن كان منعك ما هو لك فقد أسا ، وإن منعك ما هو له فيختص برحمته من يشا فانقطع عبد الجبار لحينه(٣) .

وحينما نتعرف على صفة الارادة وتعلقها في آى التنزيل : نجد الحق

---

(١) أنظر تحفة المريد للإمام الباجورى ص٦٥

(٢) تخصيص تعلق الإرادة بالممكن : يخرج به تعلقها بالواجب والمستحيل .

(٣) أنظر طبقات الشافعية للسبكى ٢٦١/٤-٢٦٢ وأنظر تحفة المريد/٦٦

متبلجا وضاء يشهد لأهل السنة والجماعة، فمشيئة الله تعالى شاملة لجميع الممكنات، واختياره تعالى وإرادته يشملان مشيئة العبد واختياره وكسبه :

قال تعالى : (وربك يخلق ما يشاء ويختار ما كان لهم الخيرة سبحان الله وتعالى عما يشركون)(١) .

وقال تعالى : (إن هو إلا ذكر للعالمين . لمن شاء منكم أن يستقيم . وما تشاءون إلا أن يشاء الله رب العالمين)(٢)

وإرادته تعالى تتعلق بهداية العبد وإضلاله كما قال تعالى شأنه : (قل إن الله يضل من يشاء ويهدى إليه من أناب)(٣) .

وقال عز من قائل : (فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ، ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً كأنما يصعد فى السماء ..)(٤) .

وفى آيات كريمات أخرى نجد الحق تبارك وتعالى قد أناط الهداية والإضلال بسابقة استحقاق للعبد فقال جلت حكمته : (يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم)(٥) .

وقال جل من قائل : (يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ويضل الله الظالمين ويفعل الله ما يشاء)(٦) .

---

(١) سورة القصص / ٦٨ ك

(٢) سورة التكوير / ٢٧ ك .

(٣) سورة الرعد / ٢٧ م .

(٤) سورة الأنعام / ١٢٥ ك .

(٥) سورة المائدة / ١٦ م .

(٦) سورة (إبراهيم) ٢٧ ك .

ولقد نرى فى القرآن الكريم صوراً جدلية رائعة يحاج فيها المشركين المحتجين بالمشيئة الإلهية لإشراكهم ويلزمهم الحجة البالغة إذ يقول جل شأنه : (سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيء، كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا إن تتبعون إلا الظن وإن أنتم إلا تخرصون . قل فلله الحجة البالغة فلو شاء لهداكم أجمعين)(١) .

لقد بين الله تعالى: أن عقابه للمشركين السابقين إنما هو نتيجة تكذيبهم وإشراكهم . وأن الاعتذار عن الشرك ونحوه بسبق المشيئة الإلهية ضرب من الكذب والتخرص على الله تعالى .

وقد تجلت محاجة التنزيل لهؤلاء المتخرصين فى مطالبتهم بالدليل العلمى الذى يقيم حجتهم فقال تعالى : (قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا) ؛ ولم يكن لهم إلا إتباع الظن والخرص . ثم . . . لله الحجة البالغة والمشيئة المطلقة : يهدى من يشاء ويضل من يشاء .

وإذا كان هؤلاء القدرية الثانية قد أنكروا تعلق الإرادة الإلهية بأفعال العباد فرارا من تعلق القديم بالمحدث : فإنهم محجوجون بالعلم كما قال إمامنا الشافعى رضى الله عنه (إن سلم القدرى العلم خصم) إذ يقال له : أيجوز أن يقع فى الوجود خلاف ما تضمنه العلم ؟ فإن منع : وافق قول أهل السنة . وإن أجاز لزمه نسبة الجهل . تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً(٢) .

ثم تأتى الركيزة الثالثة من ركائز الإيمان بالقدر : وهى صفة القدرة ،

---

(١) سورة الأنعام ١٤٨ — ١٤٩

(٢) أنظر فتح البارى ١/١٢٧

فهي: الصفة الإلهية التي يتأتى بها إيجاد كل ممكن وإعدامه على وفق الإرادة(١). إنها تبرز حتمية تعلق قدرته تعالى بكل ممكن كما نطق بذلك التنزيل صراحة في مثل قوله تعالى: (.. ولله ملك السموات والأرض وما بينهما يخلق ما يشاء والله على كل شيء قدير)(٢) و (تبارك الذي بيده الملك وهو على كل شيء قدير)(٣).

وقوله تعالى: (الذي له ملك السموات والأرض ولم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك في الملك وخلق كل شيء فقدره تقديرا)(٤) وهنا يقول الإمام الرازي:

(إن فعل العبد لو وقع بقدرته: لما وقع إلا الشيء الذي أراد تكوينه وإيجاده. لكن الإنسان(٥) لا يريد إلا العلم والحق فلا يحصل له إلا الجهل والباطل فلو كان الأمر بقدرته لما كان كذلك.

فإن قيل: إنما كان لأنه اعتقد شبهة أوجبت له ذلك الجهل، قلنا: إن اعتقد تلك الشبهة لشبهة أخرى: لزم التسلسل وهو محال، فلابد من الانتهاء إلى جهل أول وقع في قلب الإنسان لا بسبب جهل سابق بل الإنسان أحدثه ابتداء من غير موجب، وذلك محال؛ لأن الإنسان قط لا يرضى لنفسه بالجهل، ولا يحاول تحصيل الجهل لنفسه، بل لا يحاول إلا العلم، فوجب ألا يحصل له إلا ما قصده وأراده، وحيث لم يكن كذلك:

علمنا أن الكل بقضاء سار وقدر نافذ، وهو المراد من قوله: (وخلق كل شيء فقدره تقديرا)(٦) اهـ.

---

(١) أنظر تحفة المريد /٦٤ . (٢) سورة المائدة /١٧ م.

(٣) سورة الملك / ١ ك . (٤) سورة الفرقان: ٢ ك .

(٥) لعل مراده بالإنسان هنا بعض أفراده أو حاله في بعض الأحوال ليستقيم المعنى.

(٦) انظر مفاتيح الغيب ٦/٣١٥

ومما يؤكد وقوع الفعل الكسبي للعبد بقدرة الله تعالى : قوله سبحانه : (لا يقدرون على شيء مما كسبوا) .

ثم تأتي الركيزة الرابعة مؤازرة ومتوجة للركائز الثلاث ليقوم صرح الإيمان بالقدر على هذه الدعائم الأربع راسخا وشامخا : إنها ركيزة (وحدة الأفعال) التي ترجعها صفة الوحدانية لله تعالى . فالله تعالى خالق للعباد ولجميع أعمالهم - اضطراريها واختياريها كما صرح بذلك التنزيل في قوله تعالى : والله خلقكم وما تعملون)(١) أي خلقكم وخلق عملكم : ففي هذه الآية الكريمة : الرد الحاسم على المعتزلة القائلين بأن العبد يخلق أفعال نفسه الاختيارية ، ومع كون هذه الأفعال الاختيارية مخلوقة لله تعالى فإنها من كسب العبد أو اكتسابه كما قال تعالى : (لهـــا ما كسبت وعليها ما اكتسبت)(٢) ، ومن ثم فإن قول أهل السنة بالكسب إنما هو عقيدة القرآن الكريم نصا ، بعيدا عن غلو الجبرية - القائلين بأن العبد مجبور في كل أفعاله - وعن شطط المعتزلة القائلين بخلق العبد لأفعاله الاختيارية . (وخير الأمور أوسطها) .

وقد عرف هذا الكسب بأنه . مايقع به المقدور من غير صحة انفراد القادر به(٣) فهو : ارتباط بين القدرة والفعل المقترنين وفقا للإرادة الأزلية ، ومن ثم فهو أمر اعتباري غير مؤثر ؛ لانفراد الحق تعالى بعموم التأثير .

وعلى هذا : فإن فعل العبد الاختياري - كما يرى أهل السنة - من خلق الله تعالى وهو واقع بقدرته تعالى وعلى وفق إرادته ، وهو في الوقت ذاته : من كسب العبد وإرادته وواقع بمباشرة قدرته الحادثة المخلوقة

---

(١) سورة الصافات : ٩٦ك .
(٢) سورة البقرة : ٢٨٦ م .
(٣) أنظر تحفة المريد : ١٠٤

لله تعالى ، ومشيئة العبد حينئذ : إنما هى داخلة فى مشيئة الله تعالى كما قال سبحانه : (وما تشاءون إلا أن يشاء الله)(١) .

ومن ثم : فإن مناط الحساب والجزاء إنما هو كسب العبد نفسه فلا جبر يقدح فى مسئولية التكليف ، ولا اختيار ينفى القدر الإلهى .

ولقد تضافرت نصوص التنزيل مؤكدة هذا المعنى ؛ قال تعالى : (كل نفس بما كسبت رهينة)(٢) ، (بلى من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ، والذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون)(٣) ، (ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون)(٤) ، (من عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها وما ربك بظلام للعبيد)(٥).

وفى نهاية المطاف يأتى الجواب ـ من خلاصة ما تقدم ـ على السؤال الذى أرهق عقول الإنسانية على مر العصور : هل الانسان مسير أم مخير ؟

فنقول : إن الانسان من حيث أفعاله الاضطرارية مسير على الاطلاق ، ومن حيث أفعاله الاختيارية : فهو مخير فى دائرة كسبه واكتسابه . ويشهد لذلك ما نأنسه فى أفعالنا الارادية من إختيار وحرية .

ولكن مشيئته ذاتها ـ فى الوقت نفسه ـ داخلة فى نطاق المشيئة الالهية العليا : (وما تشاءون إلا أن يشاء الله) ـ والمشيئة الالهية العليا مرتبطة بعلم الله الأزلى بما يقتضيه إستعداد العبد الذاتى ؛ فمن العباد من يقتضى إستعداده الطاعة كسبا واختيارا ، ومنهم من يقتضى استعداده المعصية اكتسابا وإرادة . فالقدر الالهى مبنى على العلم والحكمة البالغين .

---

(١) سورة الإنسان / ٣٠ م .
(٢) سورة المدثر ٣٨ ك .
(٣) سورة البقرة : ٨١ - ٨٢ م .
(٤) سورة البقر : ٢٨١ م
(٥) سورة فصلت : ٤٦ ك .

ومن ثم لايتأتى للعبد أن يعترض على سيده الأعلى بقوله : لم قدرت على العصيان ولم تقدر على الطاعة ، فإذا ماجمح فكره إلى هذا السؤال : وجد أمامه القانون الربانى : (لايسأل عما يفعل وهم يسألون)(١). فحق عليه أن يذعن بالأدب لقضاء سيده فيه ، القائل وقوله الحق : (إنا كل شىء خلقناه بقدر وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر)(٢) فما على الانسان إلا أن يسلم الأمر لربه فى خضوع واطمئنان وعبوديه خاشعة لقضاء الحكيم الخبير متوكلا على مولاه القائل : (قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا هو مولانا وعلى الله فليتوكل المؤمنون)(٣) . مسلماً وجهه وقلبه وكليته إلى سيده القائل (ومن يسلم وجهه إلى الله وهو محسن فقد استمسك بالعروة الوثقى وإلى الله عاقبة الأمور)(٤).

إن هذا لهو هدى القرآن الكريم فى عقيدة القدر : تسليم مطلق لله جل جلاله .

ووقوف عند حدود العبودية وآدابها .

ومن ثم : فإن من ألزم مقتضيات الإيمان بالقضاء — كإرادة أزلية لله للأشياء على ماهى عليه فيما لايزال — ومن أوليات مستلزمات الايمان بالقدر كعقيدة . عدم الخوض فى مشكلاتهما أو التقحم لأسوارهما وأسرارهما المغلقة التى لايسفر البحث فيها إلا عن الحيرة والضلال والوقوع فى التهلكة ، ولهذا : كان القدر من أبرز المسائل التى نهينا عن الخوض فيها

---

(١) سورة الأنبياء ٢٣ .
(٢) سورة القمر ٤٩ — ٥٠ ،
(٣) سورة التوبة ٥١ .
(٤) سورة لقمان ٢٢ .

وأمرنا بالكف عنها ؛ فقد روى الطبرانى بسنده عن ابن مسعود رضى الله عنه عن النبى ﷺ أنه قال :

(إذا ذكر أصحابى فأمسكوا ، وإذا ذكرت النجوم فأمسكوا ، وإذا ذكر القدر فأمسكوا)(١) .

وقد سئل سيدنا على كرم الله وجهه عن القدر فقال : (طريق مظلم لاسبيل إليه) (٢) .

إن الايمان مع التسليم هما سبيل النجاة والفوز ، وإن الايمان بالقدر مقياس حقيقى للإيمان بالله تعالى ؛ فقد روى الامام أحمد بسنده عن الوليد ابن عبادة أنه قال : (دخلت على عبادة وهو مريض أتخايل فيه الموت ، فقلت : ياأبتاه ، أوصنى واجتهد لى . فقال : أجلسونى ، فلما أجلسوه قال يابنى : إنك لم تطعم طعم الايمان ، ولم تبلغ حقيقة العلم بالله حتى تؤمن بالقدر خيره وشره قلت : ياأبتاه ، وكيف لى أن أعلم ماخير القدر وشره ؟! قال : تعلم أن ما أخطأك لم يكن ليصيبك ، وما أصابك لم يكن ليخطئك ، يابنى : إنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إن أول ماخلق الله القلم ثم قال له : أكتب فجرى فى تلك الساعة بما هو كائن إلى يوم القيامة » . يابنى : إن مت ولست على ذلك دخلت النار) (٣) .

ولمكانة الايمان بالقدر فى العقيدة الاسلامية قال رسول الله ﷺ فيما رواه الديلمى فى مسند الفردوس ـ (الايمان بالقدر نظام التوحيد) (٤) .

---

(١) انظر الفتح الكبير فى ضم الزيادة إلى الجامع الصغير للإمام النبهانى ١/١١٠ .

(٢) انظر شرح النبراوى على الاربعين النوويه ص١٩ .

(٣) انظر المسند للإمام أحمد ٥/٣١٧ .

(٤) انظر الفتح الكبير ١/٥١٠ .

إنه الايمان الذى يورث الرضا والسكينة والطمأنينة ويذهب الأسى والهم والحزن كما حدث بذلك الصادق المصدوق ﷺ قائلا : (الايمان بالقدر يذهب الهم والحزن) (١) .

وصدق الله العظيم إذ يقول : (ما أصاب من مصيبة فى الأرض ولا فى أنفسكم إلا فى كتاب من قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسير لكيلا تأسوا على مافاتكم ولاتفرحوا بما آتاكم والله لايحب كل مختال فخور)(٢) .

---

(١) أخرجه صاحب الفتح الكبير (١/٥١٠) عن الحاكم فى تاريخه عن أبى هريرة رضى الله عنه .

(٢) سورة الحديد ٢٢—٢٣ م .

شعب الإيمان

إن دراسة شعب الايمان فى رحاب التنزيل والوقوف عليها من آياته البينات حتمية لامندوح عنها لاستكمال التعرف على جوهر الايمان وأبعاده من زواياها المختلفة ، ولتحقيق التكامل الموضوعى للإيمان فى القرآن الكريم ورؤيته بناء كاملا متسقا واضح المعالم .

ولقد فطن إلى روية هذه الوحده الموضوعيه - فى رحاب السنة الشريفة الامام البخارى رضى الله عنه فى (كتاب الايمان) من صحيحه ، حيث استدل على زيادة الايمان ونقصانه بحديث (الشعب) ثم أخذ يتتبع ماورد فى القرآن الكريم والأحاديث الصحيحة من بيانها فأورده فى كتاب الايمان تصريحاً وتلويحاً معنونا لها بما يبرز انشعابها من أصل الايمان كقوله : (باب حب الرسول صلى الله عليه وسلم من الإيمان) و (باب : الحياء من الإيمان) وهكذا .

ومن قبل الامام البخارى : كتب سيدنا عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه إلى عامله عدى بن عدى قائلا : (إن للإيمان فرائض وشرائع وحدودا وسننا ، فمن استكملها استكمل الايمان ومن لم يستكملها لم يستكمل الايمان ، فإن أعش فسأبينها لكم حتى تعملوا بها) (١) .

وإذا كان الرسول الكريم - صلوات الله وسلامه عليه - قد بين لنا أركان الايمان كما جاءت فى حديث جبريل عليه السلام فإنه عليه الصلاة السلام قد أوضح لنا فى سنته الغراء أن الايمان ليس أركانا فحسب ، بل إن له شعبا تربو على السبعين شعبة حيث قال ﷺ : (الايمان بضع وسبعون - أو بضع

---

(١) انظر فتح البارى بشرح البخارى ١/ ٦٢،٥٠ .

وستون ـ شعبة فأفضلها قول لا إله إلا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق والحياء شعبة من الايمان(١)).

وقد توفر على بيان هذه الشعب ـ تفصيلا ـ جماعة من الأئمة منهم أبو عبد الله الحليمي الذى صنف فيها كتابه (المنهاج): والامام الحافظ أبو بكر البيهقى صاحب (شعب الإيمان) الذى اختصره أبو جعفر القزوينى وكثير من العلماء تعددت وتنوعت طرائقهم فى حصر تلك الشعب.

وكان من أبرز الاعلام المصنفين فى الشعب: الحافظ أبو حاتم بن حبان البستى. الذى قال فى كتابه (وصف الايمان وشعبه).

(تتبعت معنى هذا الحديث ـ أى حديث الشعب ـ مدة، وعددت الطاعات فإذا هى تزيد على هذا العدد ـ أى البضع وسبعين ـ شيئا كثيرا. فرجعت إلى السنن فعددت كل طاعة عدها رسول الله صلى الله عليه وسلم من الايمان فإذا هى تنقص عن البضع والسبعين، فرجعت إلى كتاب الله سبحانه وتعالى (٢) وقرأته بالتدبر، وعددت كل طاعة عدها الله تعالى من الايمان فإذا هى تنقص عن البضع والسبعين، فضممت الكتاب إلى السنن وأسقطت المعاد، فإذا كل شيء عده الله تعالى ونبيه صلى الله عليه وسلم من الايمان: تسع وسبعون شعبه، لا تزيد عليها ولا تنقص، فعلمت أن مراد النبي ﷺ أن هذا العدد فى الكتاب والسنن)(٣).

ومادمنا نتناول بالبحث (الايمان فى القرآن الكريم): فحقيق بنا أن

---

(١) انظر صحيح مسلم بشرح النووى ٢/٦

(٢) هذه العبارة نص صريح فى استقاء شعب الايمان من التنزيل وهو الأمر الذى لم يسبق بحثنا هذا ـ بتوفيق الله ـ إلى إبرازه على هذا النحو:

(٣) انظر شرح النووى على مسلم: ٢/٤ ـ ٥

تقبين هذه الشعب فى التنزيل وبيانه النبوى لنستجل هذه الجوانب الايمانية فى صورتها القرآنية الوضاءة كما استجلاها علماء السنة بالرؤية الحديثية مستعينين فى ذلك بتدبر التنزيل ،

ومن ثم : فإن واجبنا فى هذا البحث : هو أن نأتى بتفاصيل تلك الشعب مصنفة ومع كل شعبه دليلها فى التنزيل ، فإن أعوذ النص القرآنى لجأنا إلى البيان النبوى الشريف .

ولقد قام الحافظ ابن حجر العسقلانى بإحصاء هذه الشعب وأوردها ـ فى الفتح — مصنفة تحت أقسام ثلاثة وهى :

١ — أعمال القلب (المعتقدات والنيات) وتشتمل على أربع وعشرين شعبة متضمنة أركان الإيمان .

٢ — أعمال اللسان وتشتمل على سبع شعب ،

٣ — أعمال البدن وتشتمل على ثمان وثلاثين شعبة ، وهى مندرجه تحت أنواع ثلاثة : وهى :

(ا) مايتعلق بالأعيان وهى خمس عشرة شعبة .

(ب) مايتعلق بالاتباع وهى ست شعب .

(جـ) مايتعلق بالعامة وهى سبع عشرة شعبة .

فجملة الشعب على هذا التصنيف تسع وستون شعبة ويمكن عدها تسعا وسبعين بتفصيل المجمل من بعضها كما ذكر الحافظ ذلك (١) .

وقد عرضت هذا التصنيف على طريقة البيهقى كما أوردها أبو جعفر القزوينى فى (مختصر شعب الايمان) فوجدت التفاوت يسيرا ، حيث عدها

---

(١) انظر فتح البارى ١/٥٩

البيهقى سبعا وسبعين شعبة مع التدليل لكل منها ، وسنضيف هنا مازاد منها على حصر صاحب (الفتح) ونفصل المجمل لتكمل الشعب تسعا وسبعين شعبة مع إيراد النص القرآنى أو النبوى أو هما معا إذا لزم الأمر فأقول وبالله التوفيق :

القسم الأول من شعب الإيمان : (أعمال القلب) ويشتمل على :

١ — الإيمان بالله عز وجل : ويدخل فيه : الايمان بذاته تعالى وبصفاته وأسمائه وأفعالا وتفرده بالقدم والتعالى عن المماثلة على نحو ما مر بنا .

٢ — الايمان بملائكة الله تعالى .

٣ — الإيمان بالقرآن الكريم وجميع الكتب المنزلة قبله .

٤ — الإيمان برسل الله عز وجل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .

٥ — الإيمان باليوم الآخر وما يشتمل عليه من البعث والحشر ودارى الجزاء (الجنة والنار)(١) .

وقد أفرد البيهقى هذه المشتملات الثلاثة شعبا مستقلة بذاتها فى تصنيفه .

٦ — الايمان بأن القدر خيره وشره من الله عز وجل .

وقد تقدم الحديث عن هذه الشعب أركانا للإيمان فى القرآن الكريم .

٧ — الإيمان بوجوب محبة الله تعالى والتحقق بها ؛ وإيثاره تعالى بالحب على كل محبوب(٢) لقوله عز من قائل : (قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم

---

(١) وقدمر بنا — فى الحديث عن ركن الإيمان باليوم الآخر — مشتملات أخرى يجب الإيمان بها كالحساب والصراط والميزان .

(٢) اكتفى فى مختصر شعب الإيمان للبيهقى بقوله : (الإيمان بوجوب

وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله فتربصوا حتى يأتى الله بأمره والله لا يهدى القوم الفاسقين(١) ولقوله تعالى : (والذين آمنوا أشد حبا لله)(٢) .

٨ — الإيمان بوجوب محبة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم والتحقق بها وإيثاره ﷺ بالمحبة على كل محبوب بعد الله تعالى من النفس والأهل والمال والولد وغير ذلك ، لنفس الدليل السابق وهو قوله تعالى : (قل إن كان آباؤكم . .) . . . . إلخ والحديث سيدنا أنس فى الصحيحين : (ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما . . .)(٣) .

٩ — الإيمان بوجوب تعظيم النبى ﷺ وتبجيله وتوقيره والتحقق بذلك ، لقوله تعالى : (إنا أرسلناك شاهدا ومبشراً ونذيراً لتؤمنوا بالله ورسوله وتعزروه وتوقروه . .)(٤) ولقوله تعالى : فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه . .)(٥) فالتعزير هنا : هو التعظيم بلا خلاف .

= محبة الله عز وجل) كما اكتفى فى الفتح بقوله (ومحبة الله) وقد رأينا هنا — بالدليل القرآنى المذكور — ضرورة إضافة ركنى التحقق والإيثار إلى أصل المحبة كما صرح النص الكريم . .

(١) سورة التوبة / ٢٤ م

(٢) سورة البقرة / ١٦٥ م

(٣) انظر مختصر شعب الإيمان للبيهقى تأليف أبى جعفر القزوينى ص / ٢٩ ط / المنيرية .

(٤) سورة الفتح / ٨ — ٩ م .

(٥) سورة الأعراف / ١٥٧ ك .

وأيضا لقوله تعالى : (لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضا . .)(١) : أي : لا تقولوا : يا محمد ، يا أبا القاسم بل : يا رسول الله يا نبي الله ، يا سيدنا محمد .

وهنا نؤكد من منطلق قرآني أنه يستحب ذكر اسم النبي ﷺ مقترنا بلفظ السيادة خلافا لمن منع ذلك من سيئ الأدب مع حضرته ﷺ زعما منهم لفظ السيد لا يجوز إطلاقه على المخلوق ! ! كيف وقد قال تعالى في حق سيدنا يحيى — على نبينا وعليه الصلاة والسلام (إن الله يبشرك بيحيى مصدقاً بكلمة من الله وسيداً وحصورا . .)(٢) .

وقد قال الإمام القرطبي في تفسيرها : (. . ففيه دلالة على جواز تسمية الإنسان سيدا ، كما يجوز أن يسمى عزيزاً أو كريماً ، وكذلك روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال لبني قريظة « قوموا إلى سيدكم »(٣) وفي البخاري ومسلم أن النبي صلى الله عليه وسلم قال في سيدنا الحسن : « إن ابني هذا سيد ولعل الله يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين)(٤) .

إنه الأدب والتوقير والإجلال : ومن أولى به من سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ ؟

ولقد ذكر البيهقي منزلة هذه الشعبة مما قبلها فقال : (وهذه منزلة

---

(١) سورة النور / ٦٣ م

(٢) سورة آل عمران / ٣٩ م .

(٣) المراد بسيدهم هنا هو سيدنا سعد بن معاذ الأنصاري رضى الله عنه والحديث رواه البخاري في باب (مناقب سعد بن معاذ رضى الله عنه) ٢٠٨/٣ ط محمد عبد اللطيف حجازي

(٤) انظر تفسير القرطبي ٧٧/٤

فوق منزلة المحبة ، إذ ليس كل محب معظما ، كمحبة الأب لولده والسيد لعبده : من غير تعظيم بخلاف العكس (١) .

١٠ — الحب فى الله تعالى والبغض فيه سبحانه ، وقد ذكر ابن حجر هذه الشعبة تالية الشعبة محبة الله تعالى لتفرعها عنها ، بينما نجد فى (مختصر شعب الإيمان) للبيهقى آخر شعبة فيه متلاقية فى المعنى مع هذه التقسيمة التى أوردها ابن حجر فقال (أن يحب الرجل لأخيه المسلم ما يحب لنفسه ويكره له ما يكره لنفسه ، ويدخل فيه : إماطة الأذى عن الطريق المشار إليه فى حديث أبى هريرة رضى الله عنه فى الصحيحين :

« الايمان بضع وستون أو بضع وسبعون شعبة أفضلها لا إله إلا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق والحياء شعبة من الايمان » (٢) .

ويشهد لهذه الشعبة من التنزيل قوله تعالى : (والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض)(٣) وقوله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدى وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة)(٤) وقوله تعالى : (والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ..)(٥) .

ومن الحديث الشريف قوله ﷺ : (لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه)(٦) .

---

(١) أنظر : مختصر الشعب ص / ٣٢

٢) المرجع السابق / ٢٥٠ .

(٣) سورة التوبة / ٧١ م .

(٤) سورة الممتحنة / ١ م . (٥) سورة الحشر / ٩ م

(٦) انظر صحيح مسلم بشرح النووى ١٦/٢

١١ — الإيمان بوجوب الخوف من الله تعالى والتحقق به ، لقوله تعالى (فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين)(١) .

١٢ — الإيمان بوجوب الرجاء من الله عز وجـل لقوله سبحانه : (يرجون رحمته ويخافون عذابه(٢)) وقوله تعالى : (قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً انه هو الغفور الرحيم)(٣) .

١٣ — الإيمان بوجوب التوكل على الله تعالى والتحقق به لقوله سبحانه (وعلى الله فليتوكل المؤمنون)(٤) والتوكل الشرعى هو تفويض الأمر إلى الله تعالى والثقة به مع ما قدر له من التسبب ، وليس هو التواكل والتقاعس عن مباشرة الواجبات .

١٤ — إخلاص العمل لله عز وجل والتبرؤ من النفاق والرياء ليفرد العبد ربه بالقصد فى الطاعة ويصفى فعله عن ملاحظة المخلوقين ، قال تعالى: (فاعبد الله مخلصا له الدين ألا لله الدين الخالص)(٥) وقال سبحانه : (فويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون . الذين هم يراءون)(٦) .

١٥ — التوبة والإنابة إلى الله عز وجل لقوله تعالى : وتوبوا إلى الله جميعاً أيها المؤمنون لعلكم تفلحون)(٧) وقوله تعالى : (وأنيبوا إلى ربكم وأسلموا له من قبل أن يأتيكم العذاب ثم لا تنصرون)(٨) .

---

(١) سورة آل عمران / ١٧٥ م .

(٢) سورة الاسراء /٥٧ ك .

(٣) سورة الزمر / ٥٣ ك .

(٤) سورة التغابن / ١٣ م .

(٥) سورة الزمر / ٢–٣ ك .

(٦) سورة الماعون / ٤–٦ م .

(٧) سورة النور / ٣١ م .

(٨) سورة الأنفال / ٤٦ م .

١٦ — الصبر على المصائب وعما تنزح النفس إليه من اللذائذ والشهوات والثبات على أحكام الكتاب والسنة بلا جزع ولا سخط . قال تعالى : (واصبروا إن الله مع الصابرين)(١) وقال تعالى : (واستعينوا بالصبر والصلاة وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين)(٢) .

١٧ — شكر الله تعالى على نعمه التى لا تحصى كما قال سبحانه : (وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها)(٣) لقوله تعالى : (فاذكرونى أذكركم واشكروا لى ولا تكفرون)(٤) .

١٨ — الرضا بقضاء الله عز وجل ، وهو من ثمرات مقام المحبة ، لأن الحب يورث الرضا بأفعال الحبيب(٥) . قال تعالى فى شأن من أحبهم فأحبوه ورضى عنهم ورضوا عنه :

(والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان رضى الله عنهم ورضوا عنه وأعد لهم جنات تجرى تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا ذلك الفوز العظيم)(٦) .

١٩ — الزهد(٧) وقصر الأمل فى الدنيا ، لقوله تعالى : (ولا تمدن

---

(١) سورة الأنفال / ٤٦ م (٢) سورة البقرة / ٤٥ م
(٣) سورة النحل / ١٨ ك (٤) سورة البقرة / ١٥٢ م
(٥) أنظر أحياء علوم الدين للامام الغزالى ٤/٣٤٣—٣٤٧ ط التجارية .
(٦) سورة التوبة / ١٠١ م
(٧) قسم الإمام أحمد الزهد إلى ثلاثة أقسام : الأول : ترك الحرام — وهو زهد العوام — والثانى : ترك الفضول من الحلال — وهو زهد الخواص — والثالث : ترك ما يشغل عن الله — وهو زهد العارفين (خواص الخواص) أنظر مختصر شعب الايمان بتعليق محمد منير الدمشقى / ٢٢٠

عينيك إلى ما متعنا به أزواجا منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه ورزق ربك خير وأبقى)(١) ، ولقوله تعالى : (فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور)(٢) ولقوله تعالى : (فهل ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة فقد جاء أشراطها)(٣) .

٢٠ - الحياء من الله تعالى(٤) : وهو الشعبة التى صرح بها مولانا المصطفى ﷺ فى حديث الشعب بقوله : (والحياء شعبة من الإيمان) وقد بين النبي ﷺ معالم الحياء الشرعى فيما رواه ابن مسعود رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «استحيوا من الله حق الحياء ، قلنا : يارسول الله : إنا لنستحى والحمد لله ، قال : «ليس ذلك ، ولكن الاستحياء من الله حق الحياء أن تحفظ الرأس وما وعى وتحفظ البطن وما حوى ، ولتذكر الموت والبلى ، فمن فعل ذلك فقد استحيا من الله حق الحياء »(٥) إنها مقاييس الحياء الذى معتمده الخوف من الله تعالى واستشعار مراقبته ورؤية إحسانه ، فهو مجمع لشعب شتى وقد قال تعالى : (وإياى فارهبون)(٦) .

٢١ - الوفاء بالعهود وبالعقود ، وفى مقدمة هذه العهود : عهد الله تعالى: وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم

---

(١) سورة طة / ١٣١ك (٢) سورة فاطر / ٥ك

(٣) سورة (محمد) ١٨م

(٤) هذه الشعبة - فيما أرى - متفرعة عن شعبة الخوف من الله تعالى؛ إذ عرف الحياء بأنه : تغير وانكسار يعترى الإنسان من خوف ما يعاب به لذا لم ترد فى تصنيف ابن حجر للشعب .

(٥) أخرجه المنذرى عن الترمذي فى الترغيب والترهيب ٥ / ٧٦ ط / التجارية .

(٦) سورة البقرة / ٤٠ م

الله عليكم كفيلا إن الله يعلم ما تفعلون)(١) ، (وأوفوا بعهدى أوف بعهدكم وإياى فارهبون)(٢) ثم الوفاء بشتى العهود ، لقوله تعالى : (وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسئولا)(٣) ومن شعب الوفاء : الوفاء بالعقود ، وهو حفظ ما يقتضيه العقد والقيام بواجبه سواء كان بين العبد وربه — كالنذر — لقوله تعالى : (وليوفوا نذورهم)(٤) أم كان بين العبد والعبد من سائر المخلوقين كالمعاملات التى أجازها الشرع لقوله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود)(٥) .

٢٢ — الرحمة : وهى رقة فى القلب تقتضى التفضل والإحسان ، وقد ذكرها صاحب (الفتح) مطلقة بينما ذكرت فى (مختصر الشعب) مقيدة ومعها خصلة أخرى فجاء عنوان هذه الشعبة فيه : (رحم الصغير وتوقير الكبير) ، والذى نرجحه أن توقير الكبير يدخل فى شعبة التواضع التى أوردها ابن حجر(٦) :

ولقد تجسدت الرحمة خلقا كريما لسيدنا رسول الله ﷺ ووصفا لذاته الشريفة فى قوله تعالى : (لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم)(٧) كما تجسدت شعبة الرحمة فى صحابة سيدنا رسول الله ﷺ وأبرزها القرآن الكريم فى قوله تعالى : (محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم)(٨) وقد قال

---

(١) سورة النحل /٩١ ك
(٢) سورة البقرة /٤٠م
(٣) سورة الإسراء /٣٤ك
(٤) سورة الحج/٢٩م
(٥) سورة المائدة /١م
(٦) أنظر مختصر شعب الايمان للبيهقى ص ٢٤٥ وأنظر فتح البارى ٥٨/١
(٧) سورة التوبة / ١٢٨
(٨) سورة الفتح / ٢٩ م

ﷺ : (من لا يرحم الناس لا يرحمه الله تعالى)[١]

٢٣ — التواضع وترك الكبر لأن الله تعالى ندد بالمتكبرين فى مواضع كثيرة فى التنزيل كقوله تعالى (قيل ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فبئس مثوى المتكبرين)[٢].

ووصف تعالى أحبابه بلين الجانب والتذلل لإخوانهم فى الايمان فى قوله تعالى (فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين) وقد قال ﷺ : (من لم يرحم صغيرنا ولم يعرف حق كبيرنا فليس منا)[٣].

٢٤ — ترك العجب ، وهو استعظام النفس وخصالها — التى هى من نعم الله تعالى — والركون إليها مع نسيان إضافتها إلى المنعم سبحانه والأمن من زوالها[٤] . قال تعالى (ويوم حنين إذ اعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئاً وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين)[٥] وقال ﷺ (ثلاث مهلكات : شح مطاع وهوى متبع وإعجاب المرء بنفسه)[٦].

٢٥ — ترك الغضب لقوله تعالى (والذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش

---

(١) أنظر صحيح مسلم بشرح النووى ١٥/٧٧ ومختصر الشعب / ٢٤٦

(٢) سورة الزمر / ٧٢ك

(٣) رواه أبو داود فى سننه ٤/٣٩٢

(٤) أنظر الأربعين فى أصول الدين للامام الغزالى ص ١٥٢

(٥) سوره التوبة / ٢٥م

(٦) رواه الطبرانى وغيره أنظر اتحاف الساده المتقين ٨/٤٠٧

وإذا ما غضبوا هم يغفرون)(١) ولما رواه أبو هريرة رضى الله عنه من أن رجلا قال النبي ﷺ : أوصنى قال : (لا تغضب ، فردد مرارا : قال : لا تغضب)(٢) ، ويدفع الغضب بالحلم الذى هو من حسن الخلق .

٢٦ — ترك الحقد الذى هو من مترتبات الغضب(٣) لأنه عبارة عن الانطواء على العداوة والبغضاء ، وقد قال تعالى : (وليعفوا وليصفحوا ألا تحبون أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم)(٤) وقال سبحانه حكاية عن عباده المؤمنين : (يقولون ربنا إغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالايمان ولا تجعل فى قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا إنك رءوف رحيم)(٥) .

قال البيضاوى مفسرا لقوله تعالى (ولا تجعل فى قلوبنا غلا للذين آمنوا) : « حقدا لهم »(٦) .

وقد قرن البيهقى شعبة ترك الحقد بترك الحسد بينما جعل ابن حجر كلا منهما شعبة مستقلة .

٢٧ — ترك الحسد وهو تمنى زوال نعمة الغير وهو متفرع عن الحقد الذى هو ثمرة للغضب(٧) وقد علمنا الله تعالى — فى كتابه الكريم —

---

(١) سورة الشورى / ٣٧ ك

(٢) أنظر صحيح البخارى : كتاب الأدب ٤٦/٤

(٣) قال الإمام الغزالى : (إن الغضب إذا لزم كظمه لعجز عن التشفى فى الحال : رجع إلى الباطن واحتقن فيه فصار حقدا) أنظر الاحياء بشرحه : اتحاف السادة المتقين ٣٧/٨

(٤) سورة النور / ٢٢ م (٥) سورة الحشر / ١٠ م

(٦) أنظر تفسير البيضاوى ٢٦٩/٢

(٧) أنظر الإحياء بشرحه إتحاف السادة المتقين ٥٠/٨

أن نتعوذ من شر الحاسد فقال جل شأنه (قل أعوذ برب الفلق من شر ما خلق ومن شر غاسق إذا وقب ومن شر النفاثات فى العقد ومن شر حاسد إذا حسد)(١) ، كما نهانا ﷺ عن الحسد وأسبابه ومترتباته قائلا : (لا تحاسدوا ولا تباغضوا ولا تقاطعوا وكونوا عباد الله اخوانا)(٢).

٢٨ — السرور بالحسنة والاغتمام بالسيئة . وهذه الشعبة التى انفرد بها مختصر شعب البيهقى عن صاحب (الفتح) إنما هى فرع عن شعبتى الخوف والرجاء ، إذ الحسنة تورث الرجاء والسيئة تولد الخوف فى قلب المؤمن ومن ثم قال ﷺ (ومن سرته حسنته وساءته سيئته فهو مؤمن)(٣) .

٢٩ — شح المرء بدينه حتى يكون القذف فى النار أحب اليه من الكفر وقد ساق القرآن الكريم لنا الدليل العملى على تحقق هذه الشعبة فيمن وقر الايمان فى قلبه وذلك فى قصة أصحاب الأخدود من سورة البروج اذ قال سبحانه : (قتل أصحاب الأخدود النار ذات الوقود إذ هم عليها قعود وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود ، وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد)(٤) .

هذه هى شعب الايمان المتفرعة عن أعمال القلب(٥) .

---

(١) سورة الفلق ك

(٢) انظر صحيح مسلم بشرح النووى ١٦ / ١١٦

(٣) أخرجه الإمام أحمد فى المسند (١ / ١٨) عن سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه

(٤) سورة البروج ٤ — ٨ ك

(٥) أورد ابن حجر فى تصنيفه للشعب أربعا وعشرين شعبه مندرجه تحت أعمال القلب وقد أفردت منها تعظيم النبى ﷺ بشعبة وجعلت منها=

القسم الثانى من شعب الإيمان : (أعمال اللسان)(١): وتشمل :

٣٠ — النطق بالشهادتين ، وهو داخل فى نطاق المأمور به فى قوله تعالى: (قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا)(٢) حيث الخطاب فيه للمؤمنين(٣) ، للأمر بالتلفظ بما آمنوا به .

٣١ — تلاوة القرآن الكريم : لقوله تعالى : (فاقرءوا ما تيسر من القرآن)(٤) ونحوه ، وقد عنون لهذه الشعبة فى مختصر البيهقى بما هو أعم من التلاوة ، فجاءت تحت عنوان :

(تعظيم القرآن المجيد بتعلمه وتعليمه وحفظ حدوده ، وأحكامه وعلم حلاله وحرامه وتبجيل أهله وحفاظه)(٥) وهو لعمرى نعم الصواب .

٣٢ — طلب العلم الشرعى وهو معرفة الله : وماجاء من عنده من وحى وكتاب ومعرفة النبوة ومعرفة أحكام الله تعالى : ومصادرها من الكتاب ، والسنة والإجماع والقياس فإن تعلم ذلك — بالقدر المستطاع — شعبة

= شعبتى التواضع وترك الكبر واحدة ، ثم أضفت إليها أربعا — تدخل معها تحت أعمال القلب مما ورد فى مختصر شعب الإيمان للبيهقى وهى التى تحمل هذه الأرقام ، (١٩ — ٢٠ — ٢٨ — ٢٩) ،

(١) هذا هو تصنيف ابن حجر فى (الفتح) ، والذى نراه : أن أعمال هذا القسم ليست لسانية محضة وإن كان للسان دخل فى مباشرتها فإن تعلم العلم وتعليمه إنما هو بالجنان قبل اللسان .

(٣) سورة البقرة / ١٣٦ م .

(٣) أنظر تفسير البيضاوى ١ / ٧٦ .

(٤) سورة المزمل / ٢٠ ك .

(٥) أنظر مختصر شعب الإيمان ١/ ٤٦ .

إيمانية عظمى لأنه الموصل إلى خشيه الله تعالى : وتعظيمه وحسن عبادته لقوله تعالى: (إنما يخشى الله من عباده العلماء)(١) ،

وقوله جل شأنه : (هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون إنما يتذكر اولوا الألباب)(٢) .

٣٣ — نشر العلم وتعليمه لقوله تعالى : (لتبيننه للناس ولا تكتمونه)(٣) ولقوله سبحانه .

(فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم)(٤) :

٣٤ — ذكر الله تعالى كثيرا لقوله سبحانه : (يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكرا كثيرا وسبحوه بكرة وأصيلا)(٥) ومن أرفع مراتب الذكر : الصلاة على النبي ﷺ لقوله تعالى : (إن الله وملائكته يصلون على النبي يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما)(٦) .

٣٥ — الدعاء لقوله تعالى (وقال ربكم ادعونى استجب لكم إن الذين يستكبرون عن عبادتى سيدخلون جهنم (داخرين)(٧) وقوله تعالى : (قل ما يعبأ بكم ربى لولا دعاؤكم)(٨) .

---

(١) سورة فاطر / ٢٨ ك .
(٢) سورة الزمر / ٩ ك .
(٣) سورة آل عمران / ١٨٧ .
(٤) سورة التوبة / ١٢٢ م .
(٥) سورة الأحزاب / ٤١ — ٤٢ م .
(٦) سورة الأحزاب / ٥٦ .
(٧) سورة غافر / ٦٠ ك .
(٨) سورة الفرقان / ٧٧ ك .

٣٦ — حفظ اللسان عما لا ينبغي من الكذب والفحش والغيبة والنميمة واللغو والوقيعة فى أعراض الناس ، وقد جعل البيهقي تحريم أعراض الناس شعبة مستقلة عن شعبة حفظ اللسان عما لا يحتاج إليه[١] والقرآن الكريم حافل بأدلة ذلك كله كقوله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين)[٢] وقوله تعالى : (ولا يغتب بعضكم بعضا أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا)[٣] ؟ وقوله تعالى : (إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة فى الذين آمنوا لهم عذاب أليم فى الدنيا والآخرة)[٤] وقوله سبحانه : (والذين هم عن اللغو معرضون)[٥] .

القسم الثالث من شعب الإيمان : (أعمال البدن) وهو أنواع ثلاثة :

(النوع الأول) : ما يتعلق بالأعيان ويشمل ما يلى :

٣٧ — التطهير حسا وحكما : ويدخل فى هذه الشعبة : اجتناب النجاسات الحسية كما يدخل فيها تنقية القلب عن النجاسات المعنوية من الكفر والنفاق وسائر الأخلاق الذميمة الباطنة لقوله تعالى : (فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المطهرين)[٦] قال الإمام البيضاوى فى تفسيرها : (« يحبون أن يتطهروا » : من المعاصى والخصال المذمومة طلبا لمرضاة الله ، وقيل : من الجنابة فلا ينامون عليها)[٧] اهـ .

---

(١) أنظر مختصر شعب الإيمان للبيهقى ص ١٠٧ ، ١٦٠ ط المنيرية .

(٢) سورة التوبة / ١١٩ م .

(٣) سورة الحجرات / ١٢ م .

(٤) سورة النور / ٢٩ م

(٥) سورة المؤمنون / ٣ ك .

(٦) سورة التوبة / ١٠٨ م .

(٧) أنظر : تفسير البيضاوى ١/ ٣٦٠ .

٣٨ — ستر العورة ، لقوله تعالى : (يابنى آدم قد أنزلنا عليكم لباسا يوارى سوءاتكم)(١) فقد قال القرطبى فى تفسيره : (قال كثير من العلماء : هذه الآية دليل على وجوب ستر العورة)(٢) وقد انفرد صاحب (الفتح) بهذه الشعبة فلم ترد فى مختصر شعب الإيمان للبيهقى .

٣٩ — الصلاة فرضا ونفلا لقوله تعالى (وأقيموا الصلاة)(٣) ولعظم مكانة الصلاة فى الإيمان أطلق لفظ الإيمان فى القرآن الكريم على الصلاة وذلك فى قوله تعالى : (وما كان الله ليضيع إيمانكم)(٤) أى صلاتكم إلى بيت المقدس .

٤٠ — الزكاة فرضا ونفلا لقوله تعالى : (وآتوا الزكاة)(٥) وقوله سبحانه : (يا أيها الذين آمنوا أنفقوا مما رزقناكم)(٦) .

٤١ — الصيام فرضا ونفلا لقوله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام)(٧) ، وقوله سبحانه : (والصائمين والصائمات والحافظين فروجهم والحافظات والذاكرين الله كثيرا والذاكرات أعد الله لهم مغفرة وأجرا عظيما)(٨) .

---

(١) سورة الأعراف / ٢٦ ك .
(٢) أنظر تفسير القرطبى ٧/ ١٨٢ .
(٣) سورة البقرة / ٤٣ م .
(٤) سورة البقرة / ١٤٣ م .
(٥) سورة البقرة / ٤٣ م .
(٦) سورة البقرة / ٢٥٤ م .
(٧) سورة البقرة / ١٨٣ .
(٨) سورة الأحزاب / ٣٥ م .

٤٢ — الحج : لقوله تعالى : (ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا) (١).

٤٣ — العمرة : لقوله سبحانه : (وأتموا الحج والعمرة لله) (٢) .

٤٤ — الاعتكاف لقوله تعالى : (وعهدنا إلى ابراهيم وإسماعيل أن طهرا بيتى للطائفين والعاكفين والركع السجود) (٣) ،

٤٥ — التماس ليلة القدر وقيامها ، وناهيك بسورة القدر دليلا على شرف ليلتها ، ومن ثم نجد فى صحيح البخارى : (باب قيام ليلة القدر من الايمان) وفيه روى الحديث الشريف : «من يقم ليلة القدر إيمانا واحتسابا غفر له ماتقدم من ذنبه) (٤) .

٤٦ — الفرار بالدين من الفتن لقوله تعالى (إن الذين توفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم قالوا فيم كنتم قالوا كنا مستضعفين فى الأرض قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها ، فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيرا) (٥) قال البيضاوى عند تفسيرها :) وفى الآية دليل على وجوب الهجرة من موضع لايتمكن الرجل فيه من إقامة دينه) (٦) وقد انفرد ابن حجر بهذه الشعبة عن البيهقى متأثرا بالإمام البخارى فى صحيحه (٧) .

---

(١) سوره آل عمران ٩٧ م

(٢) سوره البقره ١٩٦ .

(٣) سوره البقره ١٢٥ .

(٤) انظر فتح البارى بشرح البخارى ١/٩٩ط الحلبى .

(٥) سوره النساء ٩٧ م

(٦) أنظر أنوار التنزيل ١/٢٠٣ .

(٧) انظر فتح البارى ١/٥٩،٧٥ ط الحلبى .

٤٧ — الجود والسخاء لقوله تعالى : (وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين الذين ينفقون فى السراء والضراء ..)(١)

ويدخل فى هذه الشعبة : إطعام الطعام كما ذكر صاحب الفتح .

٤٨ — إكرام الضيف وهو شعبة جليلة يدخل بعضها فى شعبة الجود وينفرد عظمها فى خدمة الضيف بالنفس التى هى أعز من المال . قال تعالى : (هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين)(٢) قال القاضى البيضاوى : (أى مكرمين عند الله أو عند إبراهيم إذ خدمهم بنفسه وزوجته)(٣) وقال سيدنا رسول الله ﷺ : (من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه)(٤) .

٤٩ — فك الرقاب وعتقها بوجه التقرب إلى الله عز وجل لقوله تعالى : فلا اقتحم العقبة وما أدراك ما العقبة فك رقبة)(٥) .

٥٠ — أداء الكفارات الواجبات بالجنايات ، وهى بنص القرآن الكريم والسنة المطهرة أربع كفارات : كفارة القتل وكفارة الظهار وكفارة اليمين وكفارة المسيس فى صوم رمضان ويقرب منها مايجب باسم الفدية ، وأنواع الكفارات : عتق وصدقة وصيام ومن أدلتهـا فى التنزيل قوله تعالى : (لا يؤاخذكم الله باللغو فى أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان فكفارته إطعام عشرة مساكين ..)(٦) .

---

(١) سورة آل عمران /١٣٤ م (٢) سورة الذاريات / ٢٤ ك

(٣) انظر أنوار التنزيل ٢/٣٣٤

(٤) انظر صحيح البخارى : كتاب الأدب ٤/٤٨

(٥) سورة البلد / ١١ — ١٣ ك (٦) سورة المائدة /٨٩ م

٥١ — التحرى فى الأيمان بمعنى أن يطلب باليمين ماهو أحرى بالقصد، فلا يجعل الله تعالى عرضة لليمين كما قال تعالى (ولا تجعلوا الله عرضة لأيمانكم)(١) قال البيضاوى عند تفسيرها : (.. ولا تجعلوه معرضا لأيمانكم فتبتذلوه بكثرة الحلف به)(٢) وكما قال تعالى : واحفظوا أيمانكم)(٣) ، أى بأن لا تبذلوها لكل أمر أو بأن تبروا بها ما استطعتم .

(النوع الثانى من شعب أعمال البدن) : ما يتعلق بالأتباع ويشمل :ـ

٥٢ — التعفف بالنكاح لقوله تعالى : (فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع)(٤) ولقوله ﷺ (يا معشر الشباب : من استطاع منكم الباءة فليتزوج فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء)(٥) ولم ترد هذه الشعبة التى أوردها صاحب (الفتح) — على هذا النحو — فى مختصر شعب البيهقى وإنما ورد فيه وجوب التعفف — عاما — فى شعبة تحريم الفروج إستنادا إلى قوله تعالى : (ويحفظوا فروجهم)(٦) وقوله سبحانه (ويحفظن فروجهن)(٧) ويندرج فى هذا الشعبة حقوق الزوجية .

٥٣ — القيام بحقوق الأولاد ، وقد جعلها البيهقى عامة لحقوق الأولاد والأهلين فجاءت مكملة للشعبة السابقة ، وتعنى هذه الشعبة : قيام الرجل على

---

(١) سورة البقرة / ٢٢٤ م
(٢) انظر أنوار التنزيل ١/١٠٤
(٣) سورة المائدة / ٨٩ م
(٤) سورة النساء / ٣ م
(٥) خرجه عن الخمسة : صاحب (التاج الجامع للأصول) ٢/٢٧٨
(٦) سورة النور / ٣٠ م
(٧) سورة النور / ٣١

ولده وأهله بالتربية القرآنية المحمدية وإنفاقه عليهم وتعليمه إياهم من أمور دينهم ما يحتاجون إليه لقوله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارا وقودها الناس والحجارة)(١) .

٥٤ — بر الوالدين ، لقوله تعالى : (واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا وبالوالدين إحسانا)(٢) ولقوله تعالى : (وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا إما يبلغن عند الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريما واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيرا)(٣) .

٥٥ — صلة الرحم لقوله تعالى : (فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا فى الأرض وتقطعوا أرحامكم . أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم)(٤) .

٥٦ — الإحسان إلى المماليك ، لقوله تعالى (واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا وبالوالدين إحسانا وبذى القربى واليتامى والمساكين والجار ذى القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل وماملكت أيمانكم)(٥) ومن مقتضيات هذا الإحسان : الرفق به .

٥٧ — قيام المملوك بحق سيده من لزومه له وإقامته فيما يراه له ويأمره به وطاعته فيما يطيق لقوله ﷺ : (العبد إذا نصح سيده وأحسن عبادة ربه كان له أجره مرتين)(٦) .

---

(١) سورة التحريم ٦ م — (٢) سورة النساء/ ٣٦ م

(٣) سورة الاسراء/ ٢٣ - ٢٤ ك — (٤) سورة (محمد) ٢٢ - ٢٣ م

(٥) سورة النساء/٣٦ م

(٦) انظر صحيح البخارى ٥٦/٢ ط محمد عبد اللطيف .

(النوع الثالث من شعب أعمال البدن) : ما يتعلق بالعامة ، ويندرج تحته :

٥٨ — الحكم بين الناس بالعدل لقوله تعالى : (وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل(١)) .

٥٩ — طاعة أولى الأمر لقوله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ، أولى الأمر منكم(٢)) وأولو الأمر هم الحكام وأمراء السرايا والعلماء ، وطاعتهم واجبة فيما لا معصية فيه للخالق جل شأنه .

٦٠ — التمسك بما عليه الجماعة لقوله تعالى : (واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا(٣)) وقوله سبحانه : (إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم فى شىء(٤)) .

٦١ — الإصلاح بين الناس ويشمل : الإصـــلاح بين المسلمين فى المعاملات والإصلاح بين الزوجين والإصلاح بين المسلم والكافر والإصلاح بين الفئة الباغية والفئة العادلة قال تعالى : (لا خير فى كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس(٥)) قال الحافظ بن حجر : (ويدخل فيه قتال الخوارج والبغاة) قال تعالى : (وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تفىء إلى أمر الله(٦)) .

٦٢ — التعاون على البر والتقوى ، لقوله تعالى : (وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان(٧)) .

---

(١) سورة النساء / ٥٨ م
(٢) سورة النساء / ٥٩ م
(٣) سورة آل عمران / ١٠٣ م
(٤) سورة الأنعام / ١٥٩ ك
(٥) سورة النساء / ١١٣ م
(٦) سورة الحجرات / ٩ م
(٧) سورة المائدة / ٢ م

وقد أدخل صاحب (الفتح) فى هذه الشعبة : شعبة أخرى وردت مستقلة فى مختصر الشعب البيهقى ، ألا وهى : الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، قال تعالى ، [illegible] أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون)(١) .

٦٣ — الجهاد فى سبيل الله تعالى لقوله جل شأنه (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وابتغوا إليه الوسيلة وجاهدوا فى سبيله لعلكم تفلحون)(٢) ، وقد أمرنا الله تعالى بالغلظة على الكفار وأعداء الله تعالى فقال : (يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة)(٣) وقد جعل البيهقى مباعدة الكفار والغلظة عليهم شعبة مستقلة(٤) .

كما جعل كلا من المرابطة فى سبيل الله تعالى والثبات للعدو وترك الفرار من الزحف شعبة بنفسها وهما من متممات الجهاد وأركانه ، لقوله تعالى . (يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا . .)(٥) وقوله سبحانه : (يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا)(٦) .

٦٤ — أداء الأمانات إلى أهلها لقوله تعالى: (إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها)(٧) وقد أدخل ابن حجر فى هذه الشعبة : أداء الخمس من المغنم بينما ورد فى مختصر الشعب للبيهقى شعبه بذاتها(٨) ، قال تعالى :

---

(١) سورة آل عمران / ١٠٤ م .

(٢) سورة المائدة / ٣٥ م .

(٣) سورة التوبة / ١٢٣ م . (٤) انظر مختصر الشعب / ١١٦ .

(٥) سورة آل عمران / ٢٠٠ م . (٦) سورة الأنفال / ٤٥ م .

(٧) سورة النساء / ٥٨ م .

(٨) انظر فتح البارى ١ / ٥٩ ومختصر الشعب للبيهقى / ٨٧ .

(واعلموا أنما غنمتم من شيء فأن لله خمسه وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل إن كنتم آمنتم بالله وما أنزلنا على عبدنا . .)(١) .

٦٥ — حسن المعاملة(٢) وكسب الحلال . يقول الله تعالى : يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل إلا أن تكون تجارة عن تراض منكم ولا تقتلوا أنفسكم إن الله كان بكم رحيما)(٣) ، ويقول جل شأنه : (يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم واشكروا الله إن كنتم إياه تعبدون)(٤) .

وقال ﷺ : (رحم الله عبدا سمحا إذا باع سمحا إذا اشترى سمحا إذا اقتضى)(٥) .

٦٦ — إنفاق المال فى حقه . وقد جعل ابن حجر من هذه الشعبة : ترك التبذير والإسراف ، وهو ما جعله البيهقى شعبة بذاتها ، قوامها : الاقتصاد فى النفقة وضم إليها تحريم أكل المال بالباطل . قال تعالى : (ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التى جعل الله لكم قياما)(٦) .

---

(١) سورة الانفال ـ ٤١ م .

(٢) يبدو من تصنيف الحافظ ابن حجر أن المراد بالمعاملة هنا خصوص المعاملة المالية بدليل أنه ألحق بهذه الشعبة (جمع المال من حله) أما حسن الخلق الذى أفرده البيهقى بشعبة مستقلة : فقد تقدم مضمونها فى شعب : الرحمة والتواضع وترك الغضب وغيرها .

(٣) سورة النساء ـ ٢٩ م .

(٤) سورة البقرة ـ ١٧٢ م .

(٥) خرجه الحافظ المنذرى عن البخارى وابن ماجة ـ واللفظ له ـ فى الترغيب والترهيب ٤ ـ ٢٩ .

(٦) سورة النساء ـ ٥ م .

وقال تعالى شأنه : (ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا)(١) .

٦٧ — اكرام الجار لقوله تعالى (وبالوالدين إحسانا وبذى القربى واليتامى والمساكين والجار ذى القربى والجار الجنب . .)(٢) .

٦٨ — كف الاذى عن الناس لقوله تعالى : (والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا فقداحتملوا بهتانا وإثما مبينا)(٣) وقد روى الامام احمد عن أبى ذر رضى الله عنه أنه قال: قلت يا رسول الله أى العمل أفضل ؟ قال : ايمان بالله تعالى وجهاد فى سبيله ، قلت : يا رسول الله : فأى الرقاب أفضل ؟ قال : أنفسها عند أهلها وأغلاها ثمنا ، قال : فإن لم أجد ؟ قال : تعين صانعا أو تصنع لأخرق ، وقال : فإن لم أستطع ؟ قال : كف أذاك عن الناس فإنها صدقة تصدق بها عن نفسك)(٤) .

ويدخل فى هذه الشعبة ما جعله البيهقى شعبة بنفسه وهو الستر على أصحاب القروف والذنوب وعدم هتك أستارهم م لم يكن منهم مجاهرة أو إصرار على الذنب(٥) .

٦٩ — إقامة حدود الله تعالى . وقد أطلق شيخ الاسلام ابن حجر هذا العنوان دون أن يبين المراد من الحدود ، وبالبحث وجدنا أشفى بيان

---

(١) سورة الاسراء - ٢٩ ك .

(٢) سورة النساء - ٣٦ م .

(٣) سورة الاحزاب - ٥٨ م ،

(٤) انظر المسند ٥ - ١٥٠ .

(٥) انظر مختصر الشعب - ٢٢٤ .

لمعنى الحدود فيما أورد الامام الواحدى(١) فى تفسيره عن الأزهرى قال : (حدود الله على ضربين : - ضرب منها ما حد للناس فى مطاعمهم ومشاربهم ومناكحهم وغيرها مما أحل وحرم وأمر بالانتهاء إليها ونهى عن تعديها . والضرب الثانى : عقوبات جعلت لمن تعداها كحد السارق وحد الزانى وحد القاذف ، سميت حدودا لأنها تحد أى تمنع من ارتكاب المعاصى التى جعلت عقوبات فيها ، وسميت الأولى حدودا لأنها نهايات أمر الله لا تتعدى) .

ثم عقب أبو الحسن الواحدى على ذلك بقوله :(وعلى ما ذكر الأزهرى — وهو حسن صحيح — :

الضرب الأول سمى حدودا : لأنها ممنوعة لا تؤتى كالأكل بعد الفجر فى الصوم ، والضرب الثانى مانع . والمصدر يطلق على المفعول والفاعل كثيرا كقولهم نسج اليمن وضرب الأمير وقوله تعالى : (.. إن أصبح ماؤكم غورا)(٢) .

ويؤكد ما ذكرنا من المعنى فى الحدود قوله تعالى : (.. فلا تقربوها)(٣) أى : لا تأتوها ، فبين أنها ممنوعة)(٤) اهـ .

وبهذا البيان الشافى لمعنى الحدود : تستوعب هذه الشعبة التى أوردها

---

(١) هو أبو الحسن على بن أحمد الواحدى إمام المفسرين فى القرن الخامس الهجرى (ت سنة ٤٦٨ هـ) وقد قدم مؤلف هذا الكتاب بحثه الذى نال به شهادة العالمية : (الدكتوراه عن : (الواحدى ومنهجه فى التفسير) وطبعت الرسالة ونشرت بالمجلس الأعلى للشئون الاسلامية .

(٢) سورة الملك - ٣٠ ك .

(٣) من قوله تعالى : (تلك حدود الله فلا تقربوها - سورة البقرة/١٨٧م .

(٤) انظر تفسير البسيط للواحدى (مخطوط) ١ / ٤٠٩ .

صاحب (الفتح) خمسا من الشعب الواردة فى مختصر شعب الايمان للبيهقى وهى :

(ا) تحريم قتل النفوس والجنايات عليها لقوله تعالى : (ومن يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم خالدا فيها وغضب الله عليه . .)(١) .

(ب) تحريم الفروج وما يجب فيها من التعفف لقوله تعالى (ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة وساء سبيلا)(٢) .

(جـ) قبض اليد عن الأموال ؛ ويدخل فيها : تحريم السرقة وقطع الطريق وأكل الرشا وأكل مالا يستحقه شرعا لقوله تعالى : (ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل)(٣) .

(د) وجوب التورع فى المطاعم والمشارب والاجتناب عما لا يحل منها ، لقوله تعالى : (حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به والمنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وما أكل السبع إلا ما ذكيتم وما ذبح على النصب)(٤) :

وقوله سبحانه : (يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون)(٥) :

(هـ) تحريم ما حرم من الملابس والزى والأوانى والامتناع عما يكره منها لأحاديث كثيرة منها قوله ﷺ : (من لبس الحرير فى الدنيا لم يلبسه فى الآخرة)(٦)

---

(١) سورة النساء / ٩٣ م .

(٢) سورة الإسراء / ٣٢ ك .

(٣) سورة البقرة / ١٨٨ .

(٤) سورة المائدة / ٣ م

(٥) سورة المائدة / ٩٠ م

(٦) أنظر صحيح البخارى ٤ / ٢١ .

ولما رواه البخارى عن ابن أبى ليلى قال : كان حذيفة بالمدائن فاستسق وأتاه دهقان بماء فى إناء من فضة فرماه به ، وقال : إنى لم أرمه إلا أنى نهيته فلم ينته . قال رسول الله ﷺ : (الذهب والفضة والحرير والديباج هى لهم فى الدنيا ولكم فى الآخرة)(١) .

وبالمفهوم الأشمل : فإن حدود الله هى كل أحكامه المشروعة .

٧٠ — اجتناب اللهو وتحريم الملاعب والملاهى المخالفة للشريعة لقوله تعالى : (قل ما عند الله خير من اللهو ومن التجارة)(٢) .

ولمثل قوله ﷺ : (من لعب بالنردشير (٣) فكأنما صبغ يده فى لحم خنزير ودمه)(٤) .

٧١ — الغيرة وترك المذاء(٥) لقوله تعالى (قوا أنفسكم وأهليكم نارا)(٦) وقوله سبحانه (وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن)(٧) . ولقوله ﷺ : (إن الله يغار وإن المؤمن يغار وغيرة الله أن يأتى

---

(١) نفس المصدر .   (٢) سورة الجمعة / ١١ م

(٣) النردشير اسم أعجمى معرب و (شير) بمعنى حلو ، ويطلق على ما يعرف الآن بالطاولة .

(٤) أنظر صحيح مسلم بشرح النووى ١٥ / ١٥ .

(٥) تعرف الغيرة بأنها الحمية والأنفة كما فى النهاية وعرفها القاضى عياض بأنها تغير القلب وهيجان الغضب أى عند رؤية مالا ينبغى . وأما المذاء - بكسر الميم - فقد عرفه الحليمى بأنه الجمع بين الرجال والنساء وتخليتهم يماذى بعضهم بعضا - أخذا من المذى - وقيل هو أن يتحول الرجل عن فراشه الذى يضاجع عليه حليلته ليفترشه غيره - والعياذ بالله - (مختصر الشعب / ٢٣٦)

(٦) سورة التحريم / ٦ م   (٧) سورة النور / ٣١ م

المؤمن ما حرم عليه)(١) . ومن ثم فإن غيرة المؤمن (الشرعية) من غيرة الله عز وجل .

٧٢ — تقديم القرابين التى يتقرب بها إلى الله عز وجل من الأنعام ، كالهدى والأضحية والعقيقة لقوله تعالى : (فصل لربك وانحر)(٢).

وقوله تعالى شأنه : (والبدن جعلناها لكم من شعائر الله لكم فيها خير)(٣) .

٧٣ — القرض الحسن مع الوفاء به ، لقوله تعالى : (من ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له أضعافا كثيرة)(٤) .

ولقوله ﷺ : (من أخذ أموال الناس يريد أداءها أدى الله عنه ومن أخذ يريد إتلافها أتلفه الله)(٥)

وقد انفرد الحافظ ابن حجر بهذه الشعبة الجليلة .

٧٤ — رد السلام لقوله تعالى :(وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها)(٦) .

٧٥ — تشميت العاطس لقوله ﷺ : (إذا عطس أحدكم فحمد الله فشمتوه فإن لم يحمد الله فلا تشمتوه)(٧) .

٧٦ — عيادة المريض لقوله ﷺ : (من عاد مريضا لم يزل فى خرفة الجنة قيل : يا رسول الله : وما خرفة الجنة ؟ قال : (جناها)(٨) .

---

(١) أنظر صحيح مسلم بشرح النووى ٧٨/١٧

(٢) سورة الكوثر / ٢ ك

(٣) سورة الحج / ٣٦ م

(٤) سورة البقرة / ٢٤٥ م

(٥) أنظر صحيح البخارى ٣٧/٢

(٦) سورة النساء / ٨٦ م .

(٧) أنظر صحيح مسلم بشرح النووى ١٢١/١٨

(٨) نفس المصدر ١٢٥/١٦ .

٧٧ — اتباع الجنائز والصلاة على من مات من أهل القبلة لما رواه البخارى عن البراء بن عازب قال: (أمرنا النبى ﷺ بسبع ونهانا عن سبع: أمرنا باتباع الجنائز وعيادة المريض وإجابة الداعى ونصرة المظلوم، وإبراز القسم ورد السلام وتشميت العاطس، ونهانا عن آنية الفضة وخاتم الذهب، والحرير والديباج والقسى والاستبرق)(١).

٧٨ — الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر الوارد - بدليله - مع شعبة التعاون على البر والتقوى.

٧٩ — إماطة الأذى عن الطريق وهى أدنى شعب الإيمان بنص الحديث الشريف الذى أوردناه تزيينا لها فى شعبه الحب فى الله تعالى:

تلك هى شعب الإيمان كما وردت فى القرآن الكريم والسنة المطهرة نسأل الله تعالى أن يحققنا بها ويحيينا بها وأن يميتنا عليها على أحسن حال بجاه رسوله الأعظم سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم.

(١) أنظر صحيح البخارى ١ / ١٥٠

مقاييس الإيمان وصفات المؤمنين

تجلت عناية القرآن الكريم بتقويم الجانب الإيمانى وقياس مدى تحققه فى كيان المؤمن وسلوكه ، فكان من أروع خصائص المنهج القرآنى فى بناء العقيدة الإيمانية : أنه لم يطرح المبادىء مجردة ، أو التعاليم مطلقة ، وإنما ربطها بالواقع ، وترجمها بالمعايير التطبيقية ، ووشجها بالمقاييس التقديرية ليتسنى لكل مستبصر معرفة مبلغه من الإيمان ودرجته من اليقين ، (ولكل درجات مما عملوا وما ربك بغافل عما يعملون)(١) .

(يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات)(٢) .

وإذا كان محور الإيمان هو : (شهادة أن لا إله إلا الله وأن سيدنا محمدا رسول الله) : فإن مواقف الخلق من كلمة التوحيد شتى ومتفاوتة تفاوتا بعيدا : فمن الناس من يلفظها ، ومنهم من يتلفظ بهـا ، ومنهم من يتعقلها ، ومنهم من يؤمن بها ، وثمة من يوقن بها وهناك من يتحقق بها شهوداً ومشاهدة .

(إن هذا لهو حق اليقين فسبح باسم ربك العظيم)(٣) .

ولا يتأتى لمخلوق أن يتسنم درجة اليقين — التى هى ذروة الإيمان — إلا إذا تحققت فيه شعب الإيمان التى عرضنا لها ، وتمثلت فيه تمثلا كاملا ، وعلى قدر حظ العبد من هذه الشعب — كيفا وكما — ينال العبد من درجات الإيمان .

---

(١) سورة الأنعام / ١٣٢ ك .

(٢) « المجادلة / ١١ م

(٣) سورة الواقعة / ٩٥–٩٦ ك

من ثم : كانت مقاييس الإيمان ونعوت المؤمنين الصادقين فى القرآن العظيم منارات وسرجا على طريق الإيمان ، يرى العبد فى ضوئها ذاتيته الإيمانية ومبلغها من الصدق والتحقق ، ويسترشد بها لتكميل تلك الذاتية على هدى وبصيرة .

وبالتدبر فى آى التنزيل التى عرضت لمقاييس الإيمان : نستطيع أن نصنف طرائق عرض القرآن الكريم لها إلى أنواع ثلاثة :

(النوع الأول) المقاييس الشرطية : وهى التى جعل تحقق الإيمان فيها شرطا مقتضيا لتحقيق أمر ما ،

(النوع الثانى) المقاييس الحصرية : وهى التى ورد بها قصر المؤمنين على صفات يتجسد فيها جوهر الإيمان وتضىء فيها شعبه أو التى حصرت بها صفة الإيمان ، فيمن تحققوا به فنطق حالهم بحقيقتهم ، وسلوكهم بيقينهم .

(النوع الثالث) المقاييس الوصفية : وهى التى جاءت بأوصاف ، ونعوت المؤمنين الصادقين .

فأما المقاييس التى تنتظم فى سلك النوع الأول :

فقد وردت بها آيات عديدة : — من ذلك قوله تعالى :

(. . فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم وأطيعوا الله ورسوله إن كنتم مؤمنين)(١) .

ولقد تضمنت هذه الآية الكريمة مقاييس أربعة هى : —

---

(١) سورة الأنفال / ١ م

١ — تقوى الله تعالى : وتعنى أجمالا : امتثال المأمورات واجتناب المنهيات طبقا لما جاء به التنزيل وبينه الرسول الكريم ﷺ .

والتقوى فى القرآن بحث مستقل سيأتى فى هذا المصنف إن شاء الله تعالى :

٢ — إصلاح ذات البين . وقد مضى إيراده شعبة من شعب الإيمان ، والمراد به إصلاح الحال التى بينكم بالمودة وترك النزاع ، وبالمواساة والمساعدة فيما رزقكم الله تعالى :

فإن حسن الصلة بين المسلم وأخيه مظهر لقوة الإيمان بينهما .

٣ — طاعة الله تعالى : فهى معقد الخير والفلاح والمقياس الحقيقى للإيمان به سبحانه .

٤ — طاعة الرسول الأعظم صلى الله تعالى عليه وآله وسلم : فهى مقياس لطاعة الله تعالى : لقوله سبحانه : (من يطع الرسول ، فقد أطاع الله)(١) .

وقد تكرر الأمر فى نفس السورة — الأنفال — بطاعة الله والرسول صلى الله عليه وسلم . حيث قال تعالى :

(يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله ورسوله ، ولا تولوا عنه وأنتم تسمعون)(٢) .

وقد قال البيضاوى فى تفسيرها : (أى : ولا تتولوا عن الرسول فإن

---

(١) سورة النساء / : ٨٠م

(٢) سورة الأنفال / ٢٠ م

المراد من الآية : الأمر بطاعته والنهى عن الأعراض عنه ، وذكر طاعة الله : للتوطئة والتنبيه على أن طاعة الله فى طاعة الرسول لقوله تعالى : (من يطع الرسول فقد أطاع الله) ..)(١) . ثم تكرر الأمر بطاعة الله ورسوله ﷺ فى ذات السورة مرة أخرى - بصورة الأمر بالاستجابة لهما - إذ قال عز من قائل :

(يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم)(٢) .

وفى هذه الآية الكريمة تتجلى ثمرة الطاعة فى قوله سبحانه : (لما يحييكم) فإن فى طاعة الله ورسوله: الحياة كأسمى وأرفع ماتكون الحياة ، إنها حياة القلب بالعلم الشرعى وحياة الروح بالعيش فى ساحة الإيمان وإنها للحياة الأبدية فى كنف الله ورسوله متعنا الله تعالى بها فى الدارين بجاه سيد الكونين صلوات الله وسلامه عليه .

ومن الآيات التى جاءت متضمنة تأكيد هذا المقياس الإيمانى الشرطى - طاعة الله ورسوله - قوله تعالى : (يحلفون بالله لكم ليرضوكم والله ورسوله أحق أن يرضوه إن كانوا مؤمنين)(٣) قال البيضاوى : (.. « والله ورسوله أحق أن يرضوه » : أحق بالإرضاء بالطاعة والوفاق . وتوحيد الضمير لتلازم الرضاءين (٤) .

ومن الآيات التى جاءت فيها التقوى مقياسا شرطيا للايمان:قوله تعالى:

---

(١) أنظر أنوار التنزيل ١/٢٢٥

(٢) سورة الأنفال / ٢٤م

(٣) سورة التوبة / ٦٢م

(٤) أنظر أنوار التنزيل ١/٣٥١

(إذ قال الحواريون يا عيسى بن مريم هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء قال إتقوا الله إن كنتم مؤمنين)[١] . فهذا معاضد لما جاء فى آية الأنفال ،

ومن ثم يتحصل لنا من فاتحة سورة الأنفال أربعة[٢] مقاييس شرطية للإيمان وقد عقب عليها البيضاوى فى تفسيره بقوله : (.. فإن الإيمان يقتضى ذلك . أو : إن كنتم كاملى الإيمان ، فإن كمال الإيمان بهذه الثلاثة : طاعة الأوامر والاتقاء عن المعاصى وإصلاح ذات البين بالعدل والإحسان)[٣] .

كذلك جاء الخوف من الله تعالى وإنتفاء الخوف مما سواه مقياسا شرطيا للإيمان فى التنزيل حيث قال سبحانه : (إنما ذلكم الشيطان يخوف أوليائه فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين)[٤] . لقد علل القاضى البيضاوى لهذا الشرط قائلا : (فإن الإيمان يقتضى إيثار خوف الله تعالى على خوف الناس)[٥] .

وأيضاً أثبت الحق تعالى أحقيته بأن يخشى منه دونما سواه ومن سواه إذ قال عز من قائل (أتخشونهم فالله أحق أن تخشوه إن كنتم مؤمنين)[٦] .
والخشيه : هى الخوف مع التعظيم ولذلك خصت بالعلماء فى قوله تعالى : (إنما يخشى الله من عباده العلماء)[٧] .

---

(١) سورة المائدة / ١١٢م

(٢) هى أربعة تفصيلا وثلاثة إجمالا بضم طاعة الرسول ﷺ إلى طاعة الله تعالى .

(٣) أنظر أنوار التنزيل ٢٢١/١

(٤) سورة آل عمران / ١٧٥م (٥) أنظر أنوار التنزيل ١٦٦/١

(٦) سورة التوبة /١٣م (٧) سورة فاطر /٢٨ك

ومن المقاييس الشرطية للايمان فى القرآن الكريم: التوكل على الله تعالى.

قال عز وجل: (وقال موسى يا قوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين)(١) والمعنى: إن كنتم مصدقين بالله تعالى وآياته فخصوه سبحانه بإسناد جميع الأمور إليه مع الثقة به والاعتماد عليه وذلك لا يتحصل إلا بعد أن تكونوا مخلصين لله تبارك وتعالى مستسلمين بأنفسكم له سبحانه ليس الشيطان فيكم نصيب وإلا فاتركوا أمر التوكل)(٢) ومن المقاييس الشرطية للايمان فى التنزيل أيضاً: إنتفاء موالاة الكافرين.

حيث قال سبحانه (ترى كثيرا منهم يتولون الذين كفروا لبئس ما قدمت لهم أنفسهم أن سخط الله عليهم وفى العذاب هم خالدون، ولو كانوا(٣) يؤمنون بالله والنبي وما أنزل إليه ما اتخذوهم أولياء ولكن كثيراً منهم فاسقون)(٤) ويعاضد هذا المقياس الشرطى قوله تعالى: (لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ومن يفعل ذلك فليس من الله فى شىء إلا أن تتقوا منهم تقاة ويحذركم الله نفسه وإلى الله المصير)(٥).

وكذلك نجد من مقاييس الإيمان من هذا النوع فى القرآن الكريم إنتفاء الوهن والضعف عن الجهاد وإنتفاء الحزن على من يكرمه الله بالشهادة

---

(١) سورة يونس / ٨٤ك

(٢) أنظر روح المعانى للامام الآلوسى ١١/١٧٠

(٣) فسر الضمير (إسم كان): بالمنافقين الموالين للمشركين أو لليهود المجاهرين (روح المعانى ٦/٢١٤).

(٤) سورة المائدة / ٨٠-٨١م

(٥) سورة آل عمران /٢٨م

فى سبيل الله تعالى وعلو الشأن على أعداء الله فقد قال سبحانه وتعالى :(ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين) .

قال العلامة البيضاوى عند تفسير الآية الكريمة (.. « إن كنتم مؤمنين» متعلق بالنهى أى : لا تهنوا إن صح إيمانكم فإنه يقتضى قوة القلب بالوثوق على الله . أو بالأعلون)(١) اهـ

ومن المقاييس الايمانية الشرطية أيضاً : إتقاء الله وترك الربا .

قال تعالى : (يا أيها الذين آمنوا إتقوا الله وذروا ما بقى من الربا إن كنتم مؤمنين)(٢) ومضمون هذا المقياس الايمانى : أن مصداق الإيمان القلبى إمتثال الأمر الشرعى والالتزام بما شرع الله سبحانه وتعالى .

وأما المقاييس التى ينتظمها النوع الثانى (وهى المقاييس الحصرية) : فقد وردت بها آيات كثيرة فى التنزيل .

فمن ذلك قوله تعالى : (إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا وعلى ربهم يتوكلون . الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون . أولئك هم المؤمنون حقا لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم)(٣) .

ولقد جاءت هذه الآيات الكريمات الثلاث تاليه للآية الأولى من سورة الأنفال التى تضمنت - كما بينا آنفا - أربعة مقاييس شرطية للايمان فكان من روعة إعجاز التنزيل فى نظمه وبيانه أن يردفها بهذه

---

(١) أنظر أنوار التنزيل ١/١٥٧

(٢) سورة البقرة / ٢٧٨م

(٣) سورة الأنفال /٢-٤م

الآيات الثلاث(١) التى تضمنت خمسا من المقاييس الحصرية للايمان لتبلغ جملة المقاييس تسعا من نوعين متآخيين فى ثلاث آيات متتاليات جسدت حقيقة الإيمان الكامل للعيان .

أما المقاييس الحصرية التى جاءت فى الآيات الثلاث فهى .

١ — وجل القلب وخوفه وفزعه عند ذكر الله تعالى إستعظاما لشأنه الجليل وتهيبا منه جل وعلا كما قال جل شأنه : (الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثانى تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ..)(٢) . وهذا المقياس : أخص مما ذكرناه فى شعب الإيمان عن شعبة الخوف من الله تعالى ؛ يقول الإمام الفخر قدس الله سره :

(وقال أصحاب الحقائق : الخوف على قسمين : خوف العقاب وخوف العظمة والجلال . أما خوف العقاب : فهو للعصاة ، وأما خوف الجلال والعظمة : فهو لا يزول عن قلب أحد من المخلوقين سواء كان ملكا مقربا أو نبيا مرسلا وذلك لأنه تعالى غنى لذاته عن كل الموجودات ، وما سواه من الموجودات فمحتاجون إليه ، والمحتاج إذا حضر عند الملك الغنى يهابه

---

(١) قال الإمام الفخر الرازى فى الربط بين قوله تعالى : (إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله ..) وبين الآية السابقة : (أعلم أنه تعالى لما قال : (وأطيعوا الله ورسوله إن كنتم مؤمنين) واقتضى ذلك كون الإيمان مستلزما للطاعة : شرح ذلك فى هذه الآية مزيد شرح وتفصيل وبين أن الإيمان لا يحصل إلا عند حصول هذه الطاعات فقال : (إنما المؤمنون ..) الآية . وأعلم أن هذه الآية تدل على أن الإيمان لا يحصل إلا عند حصول أمور خمسة .) أنظر مفاتيح الغيب ٣٢٨/٤

(٢) سورة الزمر / ٢٣ ك

ويخافه وليست تلك الهيبة من العقاب بل بمجرد علمه بكونه غنيا عنه وكونه محتاجا إليه يوجب تلك المهابة وذلك الخوف)(١) ومن ثم يعلم : أن ثمة من يخافون عذاب الله(٢) وهناك من يخافون ذات الله تعالى بما لها من جلال وهيبة وعظمة ، وهؤلاء هم الأعلون الذين يقع الخوف والوجل فى قلوبهم بمجرد ذكره تعالى لذاته رضى الله عنهم وجعلنا منهم ومعهم فى الدارين .

٢ — زيادة الإيمان بسماع تلاوة القرآن الكريم ، فإن سماع آيات التنزيل بما تتضمنه من كثرة الدلائل والبراهين يزيل الشك ويقوى اليقين ويضىء القلب بأنوار كلام الله تعالى ويزيد فى الإيمان بزيادة القدر المؤمن به ، ويربيه وينميه بالعمل بما كان به العبد فى كتاب ربه . فإذا ما أحس العبد عند سماع آيات الله تتلى عليه بقوة فى إيمانه وسكينة فى قلبه وحنين إلى ربه دل ذلك على أنه مؤمن حقا .

٣ — التوكل على الله تعالى وتفويض الأمور كلها إلى جنابه الأعلى والثقة بالصدق فى وعده ووعيده . وقد أفاد تقديم المتعلق على عامله فى قوله تعالى : (وعلى ربهم يتوكلون) : الحصر ومفاده : أن المؤمنين لا يتوكلون إلا على ربهم ، وهذه الحالة - كما يقول الإمام الفخر - (مرتبة عالية ودرجة شريفة ، وهى أن الإنسان بحيث يصير لا يبقى له اعتماد فى أمر من الأمور إلا على الله)(٣) .

---

(١) أنظر : مفاتيح الغيب ٤/٣٤٨ .

(٢) من فسر الوجل فى الآية بهذا المعنى للخوف قال بأن المؤمن : هو الرجل الذى يهم بمعصية فيقال له اتق الله فينزع عنها خوفا من عقابه (أنظر تفسير البيضاوى ١/٣٢١) .

(٣) أنظر مفاتيح الغيب ٤/٣٤٩ .

ولمنزلة التوكل على الله تعالى من الإيمان نجده قد ورد فى التنزيل مقياسا شرطيا تارة ومقياسا حصريا - كما هنا - تارة أخرى .

ثم إن هذه المقاييس الحصرية الثلاثة التى تضمنتها الآية الثانية من (الأنفال) قد جاءت على نمط بديع فى ترتيبها ، حيث جاءت مرتبة ترتيبا تصاعديا بحيث تسلم كل مرتبة منهـا إلى تاليتها باقتضاء محكم وتسلسل مبهر .

فالمرتبة الأولى : هى الوجل والخوف من الله تعالى .

والمرتبة الثانية : هى الانقياد لمقامات التكاليف لله .

والمرتبة الثالثة : هى الانقطاع بالكلية عما سوى الله ، والاعتماد بالكلية على فضل الله بل الغنى بالكلية عما سوى الله تعالى(١) .

٤ - إقامة الصلاة : بمعنى أدائها فى أوقاتها مع المواظبة عليها وتعديل ركانها وحفظها من أن يقع زيغ فى أفعالها .

٥ - الانفاق من كل ما رزق الله تعالى من النعم الظاهرة والباطنة . فالإنفاق فى الآية الكريمة للزكاة المفروضة وللصدقة المندوبة فى المال وفى غيره ، قال الإمام البيضاوى : (وإليه ذهب من قال . ومما خصصناهم به من أنوار المعرفة يفيضون)(٢) .

ومن بديع النظم فى القرآن الكريم : أن المقاييس الحصرية الثلاثة الواردة فى ثانية آيات (الأنفال) جاءت بالأعمال القلبية من الخشية والإخلاص

---

(١) نفس المصدر .
(٢) أنظر أنوار التنزيل ١/١٥ .

والتوكل ثم جاءت الآية الثالثة بمقياسين من قبيل الأعمال القالبية وهى الصلاة والصدقة(١) .

ثم إن الوجل والإيمان والتوكل من حظ القلب . والصلاة من حظ البدن والزكاة من حظ المال !! .

ولقد عقب التنزيل على تلك النعوت المثلى التى جاءت بها المقاييس الحصرية الخمسة بهذا التعقيب الحصرى المحكم : (وأولئك هم المؤمنون حقا ...) أى هؤلاء هم الذين اكتملت فيهم حقيقة الإيمان واستوى فيه ظاهرهم وباطنهم .

ولقد كان السلف الصالح رضوان الله عليهم على إدراك بصير بهذه المقاييس الإيمانية ، وكانوا يعرضون إيمانهم عليها لمعرفة مدى تحققهم بحق الإيمان وحقيقته ، فقد روى القرطبى فى تفسيره أن رجلا سأل الإمام الحسن البصرى رضى الله عنه فقال : يا أبا سعيد : أمؤمن أنت ؟؟ فقال له : الإيمان إيمانان . فإن كنت تسألنى عن الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله والجنة والنار والبعث والحساب : فأنا به مؤمن . وإن كنت تسألنى عن قول الله تبارك وتعالى : (إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم — إلى قوله — أولئك هم المؤمنون حقا) : فوالله ما أدرى أنا منهم أم لا(٣))(٤) .

---

(١) أنظر تفسير الآلوسى ٩/١٦٧ .

(٢) أنظر تفسير القرطبى ١/١٧٩ .

(٣) لا شك أن هذا القول من الإمام الحسن إنما هو من قبيل اتهام النفس والوقوف مع آداب العبودية مع الله تعالى وإلا : فهو من علية المؤمنين المتحققين ، وناهيك بسيد التابعين .

(٤) أنظر الجامع لأحكام القرآن الكريم . للقرطبى ٧/١٦٧ .

ومن المقاييس الإيمانية الحصرية فى التنزيل ماورد فى قوله تعالى : (إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله وأولئك هم الصادقون)(١) .

لقد جاءت هذه الآية الكريمة بعد قوله تعالى - فى سابقتها - (قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان فى قلوبكم .) فأرشدت الآية اللاحقة إلى حقيقة الإيمان ، ومفادها : إن كنتم تريدون الإيمان : فإن المؤمنين الصادقين هم من آمنوا بالله وبرسوله ثم لم يشكوا بل أيقنوا بما آمنوا به وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى طاعة الله تعالى على تكثر فنونها من العبادات البدنية المحضة والمالية الصرفة والمشتملة عليهما معا كالحج والجهاد(٢). ومن ثم تضمنت هذه الآية الكريمة من المقاييس .

١ — الإيمان بالله تعالى .

٢ — الإيمان برسول الله صلى الله عليه وسلم وبما جاء به .

٣ — الإيقان وعدم الارتياب(٣) أو الشك فى الإيمان بدءا واستمرارا .

٤ — الجهاد بالمال وبالنفس فى سبيل الله تعالى ومرضاته لأنهم أيقنوا أن بعد هذه الدار دارا فجاهدوا طالبين العقبى (أولئك هم الصادقون) فى إيمانهم وفى صلتهم بالله تعالى .

ثم من المقاييس الإيمانية الحصرية فى القرآن الكريم : ما تضمنه قوله

---

(١) سورة الحجرات / ١٥ م .
(٢) أنظر تفسير أبى السعود بهامش مفاتيح الغيب ٧/٧٥٧ .
(٣) الارتياب هو الشك مع التهمة .

تعالى شأنه : (فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليما)(١) حيث حصر(٢) الإيمان فى تحكيمه ﷺ فيما شجر بينهم وما عطف عليه ، ومن ثم فقد تضمنت هذه الآية الكريمة ثلاثة مقاييس حصرية للإيمان وقد عبر عنها الإمام الفخر بالشرائط إذ قال قدس سره : (اعلم أن قوله تعالى : « فلا وربك لا يؤمنون » : قسم من الله تعالى على أنهم لا يصيرون موصوفين بصفة الإيمان إلا عند حصول شرائط :

(أولها) : قوله تعالى « حتى يحكموك فيما شجر بينهم » . وهذا يدل على أن من لم يرض بحكم الرسول لا يكون مؤمنا . . .

(الشرط الثانى) : قوله : « ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجا مما قضيت » قال الزجاج : لا تضيق صدورهم من أقضيتك . واعلم أن الراضى بحكم الرسول عليه الصلاة والسلام قد يكون راضيا به فى الظاهر دون القلب . فبين فى هذه الآية أنه لابد من حصول الرضا به فى القلب ، واعلم أن ميل القلب ونفرته شىء خارج عن وسع البشر ، فليس المراد من الآية ذلك ، بل المراد منه : أن يحصل الجزم واليقين فى القلب بأن الذى يحكم به الرسول هو الحق والصدق .

(الشرط الثالث) : قوله تعالى: « ويسلموا تسليما » : واعلم أن من عرف بقلبه كون ذلك الحكم حقا وصدقا قد يتمرد عن قبوله على سبيل العناد أو

---

(١) سورة النساء / ٦٥ م .

(٢) طريق القصر فى الآية الكريمة هو النفى — بلا — والاستثناء — بحتى — التى تأتى مرادفة لإلا فى الاستثناء كما صرح ابن هشام فى المغنى (١/١٢٥ ط صبيح) .

يتوقف فى ذلك القبول ، فبين تعالى أنه كما لابد فى الإيمان من حصول ذلك اليقين فى القلب : فلا بد أيضاً من التسليم معه فى الظاهر .

فقوله « ثم لايجدوا فى أنفسهم حرجا مما قضيت » والمراد به : الإنقياد فى الباطن وقوله « ويسلموا تسليما » المراد منه : الإنقياد فى الظاهر والله أعلم)(١) .

ولقد ورد الإنقياد لحكم الله ورسوله ﷺ مقياسا حصريا للإيمان — أيضا فى قوله تعالى شأنه (إنما كان قول المؤمنين إذ ادعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا وأولئك هم المفلحون)(٢) لقد جاءت هذه الآية الكريمة بهذا المقياس الإيمانى عقيب تبيان الحق تعالى لشأن من أعرض عن حكم الله ورسوله فتنكب طريق الإيمان ، وهم الذين قال تعالى فيهم : (ويقولون آمنا بالله وبالرسول وأطعنا ثم يتولى فريق منهم من بعد ذلك وما أولئك بالمؤمنين . وإذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم إذا فريق منهم معرضون ، وإن يكن لهم الحق يأتوا إليه مذعنين)(٣) .

ثم شخص التنزيل أدواءهم وأمراضهم القلبية الحائلة بينهم وبين تحقيق الإيمان فقال سبحانه من قائل : (أفى قلوبهم مرض ؟ أم ارتابوا ؟ أمن يخافون أن يحيف الله عليهم ورسوله ؟ بل أولئك هم الظالمون)(٤) .

ومن المقاييس الحصرية للإيمان فى التنزيل ما ذكره الحق تعالى ذكره بقوله : (والذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا فى سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئك هم المؤمنون حقا لهم مغفرة ورزق كريم)(٥) .

---

(١) انظر : مفاتيح الغيب ٣/٢٥٤ (٢) سورة النور / ٥١ م .
(٣) سورة النور / ٤٧ — ٤٩ م (٤) سورة النور / ٥٠ م .
(٥) سورة الأنفال / ٧٤ م .

قال الإمام البيضاوى فى تفسيرها : (لما قسم المؤمنين ثلاثة أقسام بين أن الكاملين فى الإيمان منهم هم الذين حققوا إيمانهم بتحصيل مقتضاه من : الهجرة والجهاد وبذل المال ونصرة الحق . ووعد لهم الموعد الكريم فقال : « لهم مغفرة ورزق كريم » لا تبعة له ولا منة فيه)(١) .

ومن المقاييس الإيمانية الحصرية فى القرآن الكريم ما ورد فى قوله تعالى : (إنما يؤمن بآياتنا الذين إذا ذكروا بها خروا سجدا وسبحوا بحمد ربهم وهم لا يستكبرون تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفا وطمعاً ومما رزقناهم ينفقون فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون)(٢) .

ففى هذه الآيات الكريمات من مقاييس الإيمان ما يلى :

١ — إن المؤمن هو من يخر ساجدا لله تعالى تعظيما لآياته عند سماعها إجلالا لخالقه وخوفا من سطوته وعذابه « حيث أن السجود مظهر للتعظيم والخشية .

٢ — وأن المؤمن هو من إذا ذكر بآيات ربه سبح بحمده ساجدا أو مصليا(٣) ونزهه عما لا يليق به تعالى تنزيها مصحوبا بالحمد والشكر على ما وفقه إليه من الإسلام والهدى .

٣ — وأن المؤمن هو المتواضع لعظمة الله تعالى فلا يستكبرون عن

---

(١) انظر أنوار التنزيل ١/٢٣٦

(٢) سورة السجدة / ١٥ — ١٧ ك .

(٣) نقل القرطبى عن الإمام سفيان أنه قال : (وسبحوا بحمد ربهم) أى : صلوا حمدا لربهم . انظر تفسير القرطبى ١٤/٩٩

الإيمان والطاعة بل هو دائم العبودية والعكوف على خدمة سيده جل شأنه .

٤ — والمتحقق بكمال الإيمان هو من يتجافى جنبه عن مضجعه ويتنحى عن فرشه فزعاً إلى ربه مؤثراً للوقوف لجنابه والحظوة بخطابه على حظ بدنه ونفسه كما كان حال سيدنا رسول الله ﷺ إذ قال فيه سيدنا عبد الله بن رواحة رضى الله عنه :

وفينا رسوله الله يتلو كتابه
إذا انشق معروف من الصبح ساطع
يبيت يجافى جنبه عن فراشه
إذا استثقلت بالمشركين المضاجع

إنه التهجد وقيام الليل الذى كان دأب سلفنا الصالح رضوان الله عليهم أجمعين .

٥ — وأن المؤمن بآيات ربه حقا ، هو من يدعو ربه فى كل حال(١) خوفا من عذابه وطمعا فى ثوابه أو خوفا من القطيعة وطمعا فى دوام الوصول .

٦ — وأن المؤمن حقا هو من ينفق من كل ما أتاه الله من نعمة ومما رزقه من فضله فليس الإنفاق قاصراً على الزكاة المالية فحسب كما ذكرنا من قبل .

---

(١) ذكر القرطبى أن الدعاء هنا يحتمل أن يكون صفة مستأنفة ، أى : تتجافى جنوبهم وهم أيضاً فى كل حال يدعون ربهم ليلهم ونهارهم (الجامع لأحكام القرآن ١٤/١٠٣) .

والنتيجة : (فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون) .

لقد قال سيدنا عبد الله بن عباس رضى الله عنهما فى أمر هذا الجزاء : (الأمر فى هذا أجل وأعظم من أن يعرف تفسيره)(١) !! .

اللهم اجعلنا من هؤلاء المؤمنين بك وبآياتك الحسنى واحشرنا معهم إلى جوار نبيك الأعظم ﷺ آمين :

ثم ننتقل إلى ثالث أنواع المقاييس الإيمانية فى القرآن الكريم : وهو :

(المقياس الوصفى) الذى جسدته لنا أوصاف ونعوت كمل المؤمنين فى التنزيل الحكيم ويعتمد هذا المقياس - أساسا - على الصفات المخصصة التى تخصص المؤمنين بمن تحققوا بكمالات الإيمان واستجمعوا شعبه وارتقوا فى معاريج مثالياته التى لا ينهض لها إلا الخاصة الذين اجتباهم ربهم اقربه وحباهم بتمحيص ذواتهم لجنابه الأقدس فتسنموا ذرى الفلاح أولئك الذين قال فيهم جل شأنه :(قد أفلح المؤمنون ، الذين هم فى صلاتهم خاشعون ، والذين هم عن اللغو معرضون ، والذين هم للزكاة فاعلون ، والذين هم لفروجهم حافظون ، إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين . فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون ، والذين هم على صلواتهم يحافظون ، أولئك هم الوارثون ، الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون)(٢) .

لقد تضمنت هذه الآيات الكريمات من المقاييس الإيمانية الوصفية ما يأتى :-

---

(١) أنظر تفسير القرطبى ١٤/١٠٤ .

(٢) سورة المؤمنون / ١ — ١٠ ك

١ — خشوع القلب فى الصلاة . وهذا الخشوع مركب من الخوف والتذلل .(١) . وهو مستلزم لخشوع الأعضاء فى الصلاة ، وللحضور مع الحق تبارك وتعالى وبه يتم مقصود الصلاة وهو الصلة بالله تعالى ، ومن هيئات هذا الخشوع ملازمة البصر لموضوع السجود

٢ — الاعراض عن اللغو - وهو مالا يعنى من قول أو فعل(٢) - لأن المؤمن الحقيقى لديه من الجد مايشغله عن اللغو واللهو كلية - والإعراض أبلغ من الترك لإفادة البعد عنه رأسا ،

فإذا ماأردنا أن نتصور - فى ضوء هذا المقياس - مؤمنا حقيقيا ، فلنتصور إنسانا لايلتفت عن ربه إطلاقا ، إذ أن نفى اللغو بالإعراض مثبت لتمام الاقبال على الله تعالى

٣ — فعل الزكاة ، والزكاة - كما يقول الزمخشرى - اسم مشترك بين عين ومعنى ، فالعين : القدر الذى يخرجه المزكى من النصاب إلى الفقير . والمعنى : فعل المزكى الذى هو التزكية وهو الذى أراده الله تعالى فجعل المزكين فاعلين له ،(٣) وعلى هذا : فالمراد من الزكاة هنا ماهو أعم من الحق الواجب فى المال ، وهو فعل كل محمود مرضى من الطاعات المطهرة للعبد من الأوشاب

---

(١) انظر حاشية الشهاب على البيضاوى ٦ / ٣١٩

(٢) هذا هو معنى اللغو كما ذكره البيضاوى فى تفسيره (٢ / ٨١) وقد نقل القرطبى فى تفسيره (١٢ / ١٠٥) عن الإمام الحسن أنه فسر اللغو بالمعاصى كلها . وعليه يكون مفاد هذا المقياس الايمانى : الإعراض عن المعاصى بالكلية وهو مفاد جليل

(٣) انظر الكشاف ٣ / ٢٦

كقوله تعالى (قد أفلح من تزكى)(١) أى تطهر من الكفر والمعصية أو تكثر من التقوى(٢)

٤ — حفظ الرجل فرجه إلا من زوجه أو أمته . وقد مر بنا أن هذا شعبة من شعب الإيمان .

٥ — رعاية الأمانة والعهد ، وهذا مقياس جامع لكل حقوق الحق تعالى وكذلك الخلق قال القرطبي : (والأمانة والعهد : يجمع كل مايحمله الإنسان من أمر دينه ودنياه قولا وفعــلا ، وهذا يعم معاشرة الناس والمواعيد وغير ذلك ، وغاية ذلك : ـ حفظه والقيام به ، والأمانة أعم من العهد ، وكل عهد فهو أمانة فيما تقدم فيه قول أو فعل أو معتقد)(٣)

٦ — المحافظة على الصلاة بتأديتها فى أوقاتها بشروطها وإتمام أركانها مع المداومة عليها ، ولعظم أمر الصلاة وسمو منزلتها فى الإيمان : صدرت بها نعوت المؤمنين كما ختمت بها ، وكان البدء بالخشوع : لأنه روح الصلاة ، والختم بالمواظبة : لاستبقاء الفضل مع الزيادة . والجزاء :(أولئك هم الوارثون الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون) .

ومن المقاييس الإيمانية الوصفية فى القرآن الكريم أيضا : ماورد فى قوله تعالى : ـ

(التائبون العابدون الحامدون السائحون الراكعون الساجدون الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر والحافظون لحدود الله وبشر المؤمنين)(٤)

---

(١) سورة الأعلى / ١٤ ك

(٢) انظر تفسير البيضاوى ٢ / ٤٣٥

(٣) انظر الجامع لأحكام القرآن للقرطبى ١٢ / ١٠٧

(٤) سورة التوبة / ١١٢ م

قال الإمام الفخر عند تفسير هذه الآية الكريمة : - (اعلم أنه تعالى لما ذكر فى الآية الأولى أنه اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة : بين فى هذه الآية أن أولئك المؤمنين هم الموصوفون بهذه الصفات التسعة وفيه مسألتان : (المسألة الأولى) فى رفع قوله (التائبون - العابدون - الحامدون) وجوه ؛ الأول : أنه رفع على المدح والتقدير : هم التائبون يعنى . المؤمنين المذكورين فى قوله . (اشترى من المؤمنين أنفسهم) هم التائبون) اهـ (١)

هذا وقد قرأ أبى وعبد الله - وهى فى مصحفه - : (التائبين العابدين) بالجر . فيكون صفة للمؤمنين(٢) . ومن ثم يتضح أن الصفات التسع إنما هى صفات مخصصة للمؤمنين وبالتالى : فإنها مقاييس وصفية للايمان . وهذه المقاييس هى :-

١ — التوبة من كل شرك ونفاق ومعصية وهذه التوبة لا تتحقق إلا بأمور اربعة أولها : ماقد عبر الفخر عنه بقوله (احتراق القلب فى الحال على صدور تلك المعصية عنه ، وثانيها : الندم على مامضى . وثالثها : عزمه على الترك فى المستقبل . ورابعها : أن يكون الحامل له على هذه الأمور الثلاثة : طلب رضوان الله تعالى وعبوديته(٣)

٢ — دوام العبادة لله عز وجل ، وأحسن ما عرفت به العبادة ما أوردناه فى كتابنا (ضياء الفرقان) من أنها : غاية الخضوع والتذلل لمن يعتقد الخاضع له أوصاف الربوبية .(٤) وقد فسر قتادة (العابدون) بقوله : « هم قوم أخذوا

---

(١) انظر مفاتيح الغيب ٤ / ٥٠٧ - ٥٠٨

(٢) انظر نفس المصدر وتفسير القرطبى ٨ / ٢٧١

(٣) نفس المصدر

(٤) والتعريف ثابت فى زاد المسلم للحافظ الشنقيطى ٢ / ٣١ والنسخة =

من أبدانهم فى ليلهم ونهارهم » .

٣ — القيام بحق حمد الله تعالى وشكره على نعمه دينا ودنيا . وجعل ذلك عادة ملازمة ،

٤ — السياحة : وقد فسرها الإمام الفخر قدس الله سره بوجوه ثلاثة أولها الصيام . استنادا إلى قول الإمام ابن عباس رضى الله عنهما : كل ماذكر فى القرآن من السياحة فهو الصيام . وثانيها : الانتقال من بلد إلى بلد لطلب العلم وهو قول عكرمة . وثالثها : الضرب فى الأرض للجهاد فى سبيل الله تعالى ، وهو قول أبى مسلم (١)

٥ ، ٦ — الركوع والسجود فى الصلاه فرضا ونفلا وقد خصهما بالذكر من بين أركانها لدلالتها على غاية الخضوع والعبودية التى هى المقصود من الصلاة ؛

٧ ، ٨ — الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، والمراد بالمعروف : الإيمان وقيل السنة ، وبالمنكر الكفر وقيل البدعة ، وقيل هو عموم فى كل معروف ومنكر (٢)

٩ — حفظ حدود الله تعالى ، وهو مقياس جامع — ولذا ختم به — ويشمل القيام بطاعة الله تعالى فى كل مابينه وعينه من الحقائق والشرائع ويدخل فيه ضمنا . حفظ فرائض الله تعالى بأدائها على أكمل وجه . كما يتضمن : القيام على أمر الله تعالى ورعاية حقوقه جل شأنه (٣) ثم فى خاتمة

= الخطبة من ضياء الفرقان / ٥٢

(١) انظر مفاتيح الغيب ٤ / ٥٠٨ - ٥٠٩

(٢) انظر تفسير القرطبى ٨ / ٢٧٠

(٣) انظر تفسير ابن كثير ٤ / ١٥٧ وتفسير البيضاوى ١ / ٣٦١

هذه المقاييس الإيمانية الوصفية : (وبشر المؤمنين) وفيها يقول البيضاوى : يعنى به هؤلاء الموصوفين بتلك الفضائل ، ووضع المؤمنين موضع ضميرهم : للتنبيه على أن إيمانهم دعاهم إلى ذلك ، وأن المؤمن الكامل من كان كذلك وحذف المبشر به : للتعظيم كأنه قيل : وبشرهم بما يجل عن إحاطة الأفهام وتعبير الكلام)(١)

ثم فى خاتمة تناولنا للمقاييس الايمانية فى التنزيل نستشرف إلى رياض السنة المحمدية المطهره على صاحبها أزكى التحية وأفضل الصلاه وأتم السلام

من مقاييس الإيمان فى السنة النبوية الشريفة :-

روى الإمام احمد رضى الله عنه بسنده عن أبى الدرداء رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : (لكل شىء حقيقة ، وما بلغ عبد حقيقة الإيمان حتى يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه وما أخطأه لم يكن ليصيبه)(٢)

ومن المقاييس الإيمانية أيضا : ما رواه الإمام أحمد بسنده عن عمرو الجموح رضى الله عنه أنه سمع النبى ﷺ يقول (لايحق العبد حق صريح الإيمان حتى يحب الله تعالى ويبغض لله ، فإذا أحب لله تبارك وتعالى وأبغض لله تبارك وتعالى فقد استحق الولاء من الله وإن أوليائى من عبادى وأحبائى من خلقى : الذين يذكرون بذكرى وأذكر بذكرهم)(٣) إنه مقياس الولاية لله عز وجل التى هى تتويج تحقق الإيمان .

وقد بين الحديث الشريف أن من أقرب الطرق إليها : الحب فى الله تعالى والبغض فيه سبحانه وهما من شعب الإيمان كما تقدم لنا .

---

(١) نفس المصدر (٢) انظر المسند ٦ / ٤٤١ - ٤٤٢

(٣) انظر المسند ٣ / ٤٣٠

ثم نقف على مقياس آخر من أروع المقاييس الإيمانية فى السنة المطهرة:

وذلك فى الحديث الذى رواه البزاز - فى مسنده - والبيهقى - فى الشعب - عن سيدنا أنس بن مالك رضى الله عنه : أن النبى ﷺ لقى رجلا يقال له حارثه(١) فى بعض سكك المدينة فقال « كيف أصبحت يا حارثة ؟ قال : أصبحت مؤمنا حقا . قال : إن لكل قول(٢) حقيقة فما حقيقة إيمانك ؟ فقال : عزفت نفسى عن الدنيا فأسهرت ليلى وأظمأت نهارى ، وكأنى أنظر إلى عرش ربى ، وكأنى أنظر إلى أهل الجنة يتزاورون فيها ، وكأنى أسمع عواء أهل النار . فقال : « مؤمن نور الله قلبه » - وفى رواية - « عرفت فالزم مؤمن نور الله قلبه » - وفى رواية الطبرانى - « من سره أن ينظر إلى من نور الله قلبه فلينظر إلى الحارث بن مالك »)(٣) ،

ومن هذا الحديث الشريف نستنبط هذه المقاييس الايمانية التى تجسد حقيقة حق الإيمان :

١ - عزوف النفس عن الدنيا ومتاعها والزهد فيها بالكلية .

٢ - إسهار الليل بالقيام للسيد الأعلى جل شانه .

٣ - إظماء النهار بالصيام للواحد الصمد حتى تتفجر ينابيع الحكمه فى قلب المؤمن .

---

(١) ورد فيما أخرجه الطبرانى أنه : الحارث بن مالك الأنصارى رضى الله عنه (أنظر : اتحاف الساده المتقين بشرح أسرار إحياء علوم الدين ٩/٣٢٧) .

(٢) فى بعض الروايات (لكل حق حقيقة) أنظر اللمع للطوسى/٣٠ ، ١٤٣ ، ١٨٠

(٣) أنظر تخريج الحديث فى المراجع الآنفة وفى كتاب (الإعلام بان التصوف من شريعة الاسلام للحافظ أبى الفضل الغمارى ص ٣٤

٤ – المشاهدة للملكوت وكشف الأستار ليرى العارف من العرش إلى الفرش بنور الله تعالى . وينظر إلى أهل الجنة وأهل النار بعد أن تصفى روحه من كدر الأغيار .. ولا يعجب الإنسان العادى من إثبات هذه المراتب العلية فإنها ليست لآحاد الناس بل أنها قاصرة على من عرفه النبى ﷺ بقوله (مؤمن نور الله قلبه) وعلى من وصل إلى درجة المعرفة فقيل له : (عرفت فالزم) اللهم اجعلنا منهم فى الدنيا والآخرة .

ثمرة الإيمان فى الدنيا وفى الآخرة

كشف لنا التنزيل عن عظمة النتاج الذى يحققه الإيمان الصادق للمؤمن فى دنياه وفى أخراه ليعرف العبد عاقبة أمره وثمار صلته بالله تعالى فيزداد المؤمنون إيمانا مع إيمانهم ولتجتذب الفطر التواقة للنور إلى رحاب الايمان والأمان .

فإبراز هذه الثمار الإيمانية ركيزة اساسية فى منهج القرآن الكريم فى الدعوة إلى الإيمان وذلك بطريق الترغيب القائم على إبراز النتائج الإيمانية التى يسفر عنها نور الأيمان .

وقد لاح لنا فى تعرفنا على هذه النتائج والثمار فى التنزيل : أنها تبلغ من الكثرة والشمول والتشعب حدا بعيدا يستوجب استقصاؤه تصنيفا مستقلا ، ومن ثم : جنح بنا البحث إلى الرؤية الشمولية نتعرف بها أبرز هذه النتائج ونستعرضها فى إطار منهجى وقد ارتأينا — بتوفيق الله تعالى — تصنيف هذه الثمار الايمانية إلى : —

(ا) ثمار تتحقق المؤمن فى الدنيا .

(ب) ثمار تتحقق للمؤمن فى الدنيا والآخرة .

(حـ) ثمار يجتنيها المؤمن فى الدار الآخرة فحسب حيث لا تتحقق فى دار التكليف .

فأما الثمار التى يحققها الايمان للعبد فى الدنيا : فإن من أبرزها — مما سجله التنزيل الحكيم — ما يأتى : —

١ — الإخراج من الظلمات إلى النور : قال تعالى : (الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت

يخرجونهم من النور إلى الظلمات)(١) .

وهذه الظلمات هى : ظلمات الكفر والجهل واتباع الهوى وقبول الوساوس والشبه المؤدية الى الكفر ، وهذا الإخراج إلى نور الايمان إنما هو بهداية الله تعالى وتوفيقه(٢) .

كما قال تعالى شأنه : (أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه)(٣) .

٢ — هداية القلب إلى سلوك الصراط المستقيم المؤدى إلى الجنة وإلى ادراك الحقائق كما قال تعالى : (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات يهديهم ربهم بإيمانهم تجرى من تحتهم الأنهار فى جنات النعيم)(٤) ، وكما قال سبحانه : (وإن الله لهادى الذين آمنوا إلى صراط مستقيم)(٥) والهداية هى : الدلالة الموصلة إلى البغية وهى مشروطة بحصول الإيمان كما قال عز من قائل : (ومن يؤمن بالله يهد قلبه) (٦) .

٣ — الأمن من العذاب والاهتداء إلى الحق والصواب لقوله تعالى : (الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون)(٧) .

٤ — الاستخلاف فى الأرض للمؤمنين .

٥ — تمكين الدين المرتضى لهم .

٦ — تبديلهم من بعد خوفهم من عدوهم أمنا ونصرا ، وهذه الثمار الثلاث محققة بالوعد الالهى فى قوله تعالى : (وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم

---

(١) سورة البقره / ٢٥٧ م
(٢) انظر أنوار التنزيل ١ / ١١٨
(٣) سورة الزمر / ٢٢ ك
(٤) سورة يونس / ٩ ك
(٥) سورة الحج / ٥٤ م
(٦) سورة التغابن / ١١ م
(٧) سورة الأنعام / ٨٢ ك

وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا ..)[١]
قال الامام الفخر فى تفسيرها : —

(اعلم أن تقدير النظم : بلغ أيها الرسول وأطيعوه أيها المؤمنون فقد وعد الله الذين آمنو منكم وعملوا الصالحات ـ أى الذين جمعوا بين الايمان والعمل الصالح ـ أن يستخلفهم فى الأرض فيجعلهم الخلفاء والغالبين والمالكين كما استخلف عليها من قبلهم فى زمن داود وسليمان ـ عليهما السلام ـ وغيرهما، وأنه يمكن لهم دينهم ، وتمكينه ذلك : هو أن يؤيدهم بالنصرة والإعزاز ويبدلهم من بعد خوفهم من العدو أمنا بأن ينصرهم عليهم فيقتلوهم ويأمنوا بذلك شرهم فيعبدونني آمنين لا يشركون بى شيئا ولا يخافون)[٢] .

٧ — دفاع الله تعالى عن المؤمنين كما قال سبحانه : (إن الله يدافع عن الذين آمنوا ..)[٣] أى : يبالغ فى دفع غوائل الكفرة والمشركين واضرارهم التى من جملتها : الصد عن سبيل الله تعالى مبالغة من يغالب فيه . أو يدفعها عنهم مرة بعد أخرى حسبما تجدد منهم القصد إلى الاضرار بالمسلمين كما فى قوله تعالى : (كلما أوقدوا نارا للحرب أطفأها الله)[٤] ..)[٥] .

٨ — إنزال السكينة على المؤمنين ، كما قال تعالى : (ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين ..)[٦] والمراد بالسكينة هنا : الرحمة التى تسكن بها القلوب وتطمئن اطمئنانا كليا مستتبعا للنصر القريب وقيل : هى الأمان لحضرته ﷺ ولمن معه من المؤمنين[٧] .

---

(١) سورة النور / ٥٥ م — (٢) انظر مفاتيح الغيب ٦ / ٣٠٠
(٣) سورة الحج / ٣٨ م
(٤) سورة المائدة ـ ٦٤ م
(٥) انظر تفسير أبى السعود بهامش مفاتيح الغيب ٧ / ١٢٩
(٦) سورة التوبة ـ ٢٦ م — (٧) انظر روح المعانى ١٠ / ٧٥

٩ — زيادة الايمان للمؤمنين وذلك بأمور مترتبة على إيمانهم منها: إنزال السكينة فى قلوبهم كما قال عز من قائل: (هو الذى أنزل السكينة فى قلوب المؤمنين ليزدادوا إيمانا مع إيمانهم ..)(١) وفى المراد بالسكينة ههنا وجوه: منها: الطمأنينة والثبات، المسببان عن الصلح والأمن، ومنها: الرحمة، وقيل: العقل، لسكونه عن الميل إلى الشهوات وعن الرعب، وقيل: هى الوقار والعظمة لله تعالى ولرسوله ﷺ، وقيل: هى السكون والميل إلى ما جاء به الرسول ﷺ من الشرائع.

وقيل السكينة ملك يسكن قلب المؤمن ويؤمنه كما روى أن سيدنا عليا كرم الله وجهه قال: إن السكينة لتنطق على لسان عمر(٢).

ومن الأمور المترتبة على الايمان وتتحقق بها زيادته للمؤمنين: تلاوة القرآن الكريم كما قال تعالى (وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا)(٣).

ومنها أيضا نزول الخطب والابتلاء اذ يقول سبحانه (ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله وما زادهم إلا إيمانا وتسليما)(٤).

١٠ — التقوى مع زيادة الهدى. قال تعالى: (والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم)(٥) قال الامام القرطبى فى تفسيرها: « .. والذين اهتدوا »: أى للايمان زادهم الله هدى، وقيل: زادهم النبى صلى الله عليه وسلم هدى، وقيل ما يستمعون من القرآن

---

(١) سورة الفتح / ٤ م

(٢) انظر تفسير الإمام الآلوسى ٢٦ / ٩٢

(٣) سورة الأنفال / ٢ م

(٤) سورة الأحزاب/٢٢ م

(٥) سورة (محمد)/ ١٧ م

هدى ، أى : يتضاعف يقينهم ، وقال الفراء : زادهم إعراض المنافقين واستهزاؤهم . هدى ، وقيل : زادهم نزول الناسخ هدى .

وفى الهدى الذى زادهم أربعه أقاويل: أحدها : زادهم علما - قاله الربيع ابن أنس - .

الثانى : أنهم علموا ما سمعوا وعملوا بما علموا ، - قاله الضحاك -

الثالث : زادهم بصيرة فى دينهم وتصديقا لنبيهم - قاله الكلبى - .

الرابع : شرح صدورهم بما هم عليه من الإيمان .

وآتاهم تقواهم ، : أى : ألهمهم إياها ، وقيل : فيه خمسة وجوه : -

أحدها : آتاهم الخشية . - قاله الربيع - .

الثانى : ثواب تقواهم فى الآخرة - قاله السدى -

الثالث : وفقهم للعمل الذى فرض عليهم - قاله مقاتل - .

الرابع : بين لهم ما يتقون . - قاله ابن زياد والسدى أيضا - .

الخامس : أنه ترك المنسوخ ، والعمل بالناسخ ، - قاله عطية الماوردى — .

ويحتمل سادسا : أنه ترك الرخص والأخذ بالعزائم)(١) .

١١ — الانتفاع بمافى القرآن الكريم من الهدى والبشرى والرحمة ، والشفاء والذكرى والموعظة إذ الإيمان هو المصحح لجنى هاتيك الثمار : كما قال تعالى : (طس تلك آيات القرآن وكتاب مبين هدى وبشرى للمؤمنين)(٢) .

---

(١) أنظر الجامع لأحكام القرآن ١٦/٢٣٩-٢٤٠

(٢) سورة النمل / ا ك .

(وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين)(١) .

(إن في ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون)(٢) .

(يا أيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما في الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين)(٣) .

وننتقل إلى بيان ما يحققه الإيمان للمؤمنين من ثمار في الدنيا والآخرة معا ، وهي الثمار التي ليست منوطة بالتكليف في دار الدنيا فحسب وتنقطع بفنائها من حيث هي أمور تكليفية بل إنها الثمار الدائمة الممتدة إلى الخلود في دار البقاء ولها في كل من الدارين مظهرها الذي يتناسب معه وفي القاسم المشترك في كل منهما . ومن أبرز تلك الثمار .

١ — ولاية الله تعالى : التي يتولى بها عباده المؤمنين كما قال جل شأنه : (الله ولي الذين آمنوا . .)(٤) .

وولاية الله تعالى : هي حفظه وحياطته ، ومحبته ونصرته ، وقربه ومودته ؛ وهي متحققة بمعناها العام للمؤمنين وبمعناها الخاص للمؤمنين المتقين .

٢ — ولاية النبي ﷺ : وأولويته بالمؤمنين من أنفسهم لقوله تعالى : (إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون . ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون)(٥) .

---

(١) سورة الإسراء / ٨٢ ك .

(٢) سورة العنكبوت / ٥١ م .

(٣) سورة يونس / ٥٧ ك .

(٤) سورة البقرة / ٢٥٧ م .

(٥) سورة المائدة / ٥٥ ، ٥٦ م

واقوله تعالى : — (النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم . .)[١] .

قال البيضاوى فى تفسيرها : (. . «النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم» : فى الأمور كلها فإنه لا يأمرهم ولا يرضى منهم إلا بما فيه صلاحهم ونجاحهم بخلاف النفس فلذلك أطلق . فيجب عليهم أن يكون أحب إليهم من أنفسهم وأمره أنفذ فيهم من أمرها ، وشفقته عليهم أتم من شفقتهم عليها)[٢].

٣ — ولاية الملائكة للمؤمنين حيث قال تعالى : (إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون . نحن أولياؤكم فى الحياة الدنيا ، وفى الآخرة ولكم فيها ما تشتهى أنفسكم ولكم فيها ما تدعون نزلا من غفور رحيم)[٣] .

٤ — ولاية المؤمنين بعضهم لبعض كما قال تعالى : (والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض)[٤] .

وأخوتهم فى الإيمان كما قال سبحانه : (إنما المؤمنون إخوة)[٥] .

٥ — حب الله تبارك وتعالى : كما قال جل شأنه : (ومن الناس من يتخذ أندادا يحبونهم كحب الله والذين آمنوا أشد حبا لله . .)[٦] .

---

(١) سورة الأحزاب / ٦م .
(٢) أنظر : أنوار التنزيل ٢ / ١٩٠ .
(٣) سورة فصلت / ٣٠-٣٢ ك .
(٤) سورة التوبة / ٧١ م .
(٥) سورة الحجرات / ١٠ م .
(٦) سورة البقرة / ١٦٥ م

وحب الله تعالى : مستلزم لحب سيدنا رسول الله ﷺ : ولحب من أحب الله من المؤمنين ولحب ما أحب الله تعالى : من الطاعات والأعمال والأشياء ، ومقياس حب الله تعالى طاعته فى الأمر والنهى :

٦ — معية الله تبارك وتعالى : للمؤمنين بالتأييد والعون والإمداد والتوفيق كما قال تعالى (وأن الله مع المؤمنين)(١) : فهى معية خاصة مضافة إلى المعية العامة .

٧ — نصر الله تعالى للمؤمنين كما قال تعالى : (وكان حقا علينا نصر المؤمنين)(٢) :

وكما قال تعالى شأنه : (إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد)(٣) .

وهذا النصر إنما يكون بالحجة والظفر والانتقام لهم من الكفرة وقد قال القاضى البيضاوى معقبا على هذه الآية الكريمة : (أى فى الدارين ولا ينقض ذلك بما كان لأعدائهم عليهم من الغلبة أحيانا ، إذ العبرة ، بالعواقب وغالب الأمر)(٤) ،

٨ — العزة للمؤمنين كما قال تعالى شأنه : (ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين)(٥) :

---

(١) سوره الأنفال / ١٩ م
(٢) سوره الروم / ٤٧ ك .
(٣) سوره غافر / ٥١ ك .
(٤) أنظر : أنوار التنزيل ٢ / ٢٦٩
(٥) سوره المنافقون / ٨ م

أى : لهم الغلبة والقوه ، وقد نقل الإمام الآلوسى عن سيدى أبى حفص السهروردى قدس الله سره التفريق بين العزة والكبر بما نصه : (العزه غير الكبر لأن العزة معرفة الإنسان بحقيقة نفسه وإكرامها أن لا يضعها لأقسام عاجلة كما أن الكبر : جهل الإنسان بنفسه وإنزالها فوق منزلتها ؛ فالعزه ضد الذلة كما أن الكبر ضد التواضع)[1] .

٩ – الرفعة لقوله تعالى : (يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات)[2] .

قال العلامة البيضاوى : (... « يرفع الله الذين آمنوا منكم » : بالنصر وحسن الذكر فى الدنيا وإيوائهم غرف الجنان فى الآخره)[3] :

١٠ – النجاه من الهلاك فى الدنيا ومن العذاب فى الآخره ، قال تعالى : (ثم ننجى رسلنا والذين آمنوا كذلك حقا علينا ننج المؤمنين)[4] :

وقال عز شأنه : (يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم ؟ تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون فى سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ، ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون ، يغفر لكم ذنوبكم ويدخلكم جنات تجرى من تحتها الأنهار ومساكن طيبة فى جنات عدن ذلك الفوز العظيم وأخرى تحبونها نصر من الله وفتح قريب وبشر المؤمنين)[5] :

إن هذا هو ربح التجاره الإيمانية .. التجاره التى لا تبور ..

---

(١) أنظر روح المعانى : ٢٧/ ١١٦ .

(٢) سوره المجادلة / ١١ م

(٣) أنظر أنوار التنزيل ٢ / ٣٦٥ .

(٤) سوره (يونس) ١٠٣ ك

(٥) سوره الصف / ١١ - ١٣ م

إنها التجارة المنجية من العذاب الأليم والمخلدة فى النعيم المقيم. قوامها: الإيمان بالله ورسوله والجهاد فى سبيله. وقد تقدم أن الجهاد من شعب الإيمان. فالجزاء مترتب على الإيمان المكتمل.

ومن دلالة هذه الآيات الكريمات نستوضح: أن التجارة المنجية من عذاب الله تعالى مبنية على شرط وجزاء فالشرط: هو تحقق الإيمان والجهاد والجواب: غفران الذنوب ودخول الجنات و(ذلك الفوز العظيم) ثم نعمة أخرى منتظمة فى سلك الجزاء وهى (نصر من الله وفتح قريب) والبشرى بذلك كله للمؤمنين.

١١ — الفلاح: وهو الفوز والظفر بالمطلوب فى الدنيا والآخرة وقد حقق الحق تعالى حصول الفلاح للمؤمنين إذ قال جل شأنه: (قد أفلح المؤمنون)(١)، وقد تقدم بيانهم.

١٢ — التثبيت بالقول الثابت كما قال تعالى شأنه: (يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة)(٢). وبمقتضى هذا التثبيت الإلهى: لا يزل المؤمنون عن دينهم إذا افتتنوا فى الدنيا - كأصحاب الأخدود - ولا يتلعثمون إذا سئلوا عن معتقدهم فى القبر أو فى الموقف، ولا تدهشهم أهوال القيامة(٣) اللهم ثبتنا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة واجعلنا من عبادك السعداء بجاه نبيك سيدنا محمد ﷺ.

١٣ — شفاعة سيدنا محمد ﷺ: فهى محققة لأمته فى الدنيا والآخرة لقوله تعالى (من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه) وقوله سبحانه: (ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله

---

(١) سورة المؤمنون / ١ ك   (٢) سورة (إبراهيم) / ٢٧ك
(٣) أنظر أنوار التنزيل ١/٤٣٨

توابا رحيما)، فهذا تشفع به ﷺ وباستغفاره فى الدنيا . ولقوله ﷺ - فيما رواه الإمام أحمد فى مسنده (٢/٥٤٠) عن أبى هريرة - (أنا سيد ولد آدم وأول من تنشق عنه الأرض وأول شافع وأول مشفع) اللهم شفع فينا نبيك سيدنا محمد سيد الأنبياء صلى الله عليه وآله وصحبه وتابعيه وورثته الأوفياء الأولياء يا خالق الأرض والسماء .

وأما الثمار التى تنتظر المؤمن فى دار أخراه :

فإن آى التنزيل حافلة بتبشير المؤمنين الصادقين بما وعدهم به ربهم من أصناف العطاء الإلهى الذى لا يحد بمدى ولا يقدر بقدر ولا يدخل فى مكنة العقل استكناه ماهيته(١) ومن خلال وفرة وتنوع هذا العطاء نقتطف أقرب هذه الثمار إلى متناولنا الآن :

١ — إنتفاء كلى من الحزن على ما فات والخوف مما هو آت : (فمن آمن وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون) أى : لا خوف عليهم من العذاب ولا هم يحزنون بفوات الثواب(٢) وهذا الانتفاء إنما هو فى الآخرة لأن المؤمن لا ينبغى له أن يأمن من مكر الله ولا من عذابه طالما هو فى هذه الدار . لكن إذا وصل إلى دار القرار فى حفظ العزيز الغفار فلا خوف عليه من عذاب النار ، فلقد حكى سبحانه قول المؤمنين فى جنات عدن بقوله تعالى : (وقالوا الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن إن ربنا لغفور شكور)(٣)

---

(١) أعنى بهذا الصنف الأخير الذى يند تصوره عن طاقة العقل : رؤية البارى جل جلاله إذ هى محققة بلا كيف ولا إحاطة ولا جهة ولا مكان ولا تحيز . الخ هذه المعقولات

(٢) أنظر أنوار التنزيل ١/٢٦١

(٣) سورة فاطر / ٣٤ ك

وقال تعالى : (يا عباد لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون)(١) .

٢ — ظهور نور المؤمن يسعى بين يديه وبيمينه على الصراط كما قال تعالى : (يوم لا يخزى الله النبى والذين آمنوا معه نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم يقولون ربنا أتمم لنا نورنا واغفر لنا إنك على كل شىء قدير)(٢) .

٣ — دخول الجنة : ومجرد دخول الجنة ـ بغض النظر مبدئيا عن نعيمها والخلود فيها : نعمة كبرى وثمرة عظمى عبر عنها مولانا عز وجل بالفوز إذ قال تعالى : (فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز)(٣) فحسب داخل الجنة أنه نجا من عذاب النار وأدخل دار الأمان والاطمئنان أياً كان منزله فيها ، ولا يكون دخول الجنة إلا بعد تحقق المنة بتكفير السيئات وغفران الزلات إذ لا تكون التحلية إلا بعد التخلية ، ولذا يقول سبحانه : (يا أيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحا عسى ربكم أن يكفر عنكم سيئاتكم ويدخلكم جنات تجرى من تحتها الأنهار)(٤) .

٤ — التنعم بنعيم الجنات مع الخلود فيها : وإنها لجنان ثمان ورد ذكرها جميعاً فى القرآن الكريم وهى : جنة الخلد وجنة المأوى، وجنة النعيم ودار السلام ودار المقامة وجنة عدن وجنة الفردوس ، ثم الوسيلة(٥) التى قال عنها سيدنا رسول الله ﷺ ـ فيما رواه سيدنا أبو هريرة رضى الله عنه :

---

(١) سورة الزخرف/٦٨ ك (٢) سورة التحريم/ ٨م

(٣) سورة آل عمران /١٨٥ م

(٤) سورة التحريم / ٨ م

(٥) ذكر المفسرون أنها منزلة سيدنا رسول الله ﷺ وداره فى الجنة وهى أقرب أمكنة الجنة إلى العرش ، وبها فسرت الوسيلة ـ على وجه ـ فى قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا إتقوا الله وابتغوا إليه الوسيلة) المائدة/٣٥م أنظر تفسير ابن كثير ٣/٩٧ ط الشعب .

(إذا صليتم على فسلوا الى الوسيلة ، قيل يا رسول الله : وما الوسيلة ؟ قال : أعلى درجة فى الجنة لا ينالها إلا رجل واحد وأرجو أن أكون أنا هو)(١).

اللهم آت سيدنا محمدا ﷺ الوسيلة والفضيلة والدرجة الرفيعة .

وقد حفل القرآن الكريم بوصف نعيم الجنان الذى تتوق إليه أفئدة المؤمنين وتشتاقه قلوب عباد الله الصالحين فقال عز من قائل : (وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار كلما رزقوا منها من ثمرة رزقا قالوا هذا الذى رزقنا من قبل وأتوا به متشابها ولهم فيها أزواج مطهرة وهم فيها خالدون)(٢) .

وقال تعالى شأنه : (يا عباد لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون . الذين آمنوا بآياتنا وكانوا مسلمين ، ادخلوا الجنة أنتم وأزواجكم تحبرون ، يطاف عليهم بصحاف من ذهب وأكواب وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين وأنتم فيها خالدون وتلك الجنة التى أورثتموها بما كنتم تعملون لكم فيها فاكهة كثيرة منها تأكلون (٣).

ويقول سبحانه : (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات إنا لا نضيع أجر من أحسن عملا أولئك لهم جنات عدن تجرى من تحتها الأنهار يحلون فيها من أساور من ذهب ويلبسون ثيابا خضرا من سندس واستبرق متكئين فيها على الارائك نعم الثواب وحسنت مرتفقا)(٤) ، وألوان من النعيم يخلد فيها المؤمنون ويحبرون .

---

(١) أنظر مسند الإمام أحمد : ٢٦٥/٢

(٢) سورة البقرة /٢٥ م

(٣) سورة الزخرف / ٦٨ - ٧٢ ك

(٤) سوره الكهف / ٣١ ك

(٥) ثم مع نعيم الجنات هناك درجات عند الله تعالى فى الآخرة .. درجات فى القرب الإلهى والنعيم الأخروى يرتفع إليها المؤمن فى الآخرة: (ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكوراً كلا نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظوراً انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا)(١). فالمقصود بهذه الثمرة الإيمانية الأخروية: إنما هو الدرجات العلى التى لا تنال إلا فى الآخرة وهى التى قال عنها الحق تعالى: (ومن يأته مؤمنا قد عمل الصالحات فأولئك لهم الدرجات العلى. جنات عدن تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك جزاء من تزكى)(٢) أنها مراتب فى القرب والنعيم متفاوتة على قدر صلاح المؤمن وصلته بربه فى دار الدنيا.

(٦) إلحاق ذرية المؤمن بدرجته فى الجنة وإن كانوا دونه لتقربهم عينه كما قال تعالى: (والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم وما ألتناهم من عملهم من شىء كل امرىء بما كسب رهين)(٣) وقد روى البزاز - مرفوعا - عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال: (إن الله يرفع ذرية المؤمن فى درجته وإن كانوا دونه لتقربهم عينه - ثم تلا هذه الآية -)(٤).

(٧) وللمؤمنين - فى الجنة - ما يشاءون عند ربهم. قال تعالى: (.. والذين آمنوا وعملوا الصالحات فى روضات الجنات لهم ما يشاءون عند ربهم ذلك هو الفضل الكبير)(٥) أى أن لهم ما يشتهون من ربهم من فنون الملذات بما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب

---

(١) سورة الإسراء / ١٩ - ٢١ ك.

(٢) سورة (طه) / ٧٥-٧٦ ك

(٣) سورة الطور / ٢١ ك

(٤) انظر حاشية الشهاب على البيضاوى ٨/ ١٠٤.

(٥) سورة الشورى / ٢٢ ك

بشر ، ولقد روى الحافظ ابن كثير – فى تفسيره – والحافظ السيوطى – فى الدر المنثور – بالإسناد المتصل عن أبى طيبة أنه قال : (إن الشرب[١] من أهل الجنة لتظلهم السحابة فتقول : ما أمطركم ؟ قال : فما يدعو داعٍ من القوم بشىء إلا أمطرتهم حتى إن القائل منهم ليقول : أمطرينا كواعب أترابا !!)[٢] .

(٨) رضوان الله الأكبر ، وهو الفوز العظيم الذى هو أسمى من الجنات ونعيمها بل : هو المبدأ لكل سعادة وكرامة إلى نيل الوصول والفوز باللقاء[٣] وقد قال تعالى شأنه : (وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ومساكن طيبة فى جنات عدن ورضوان من الله أكبر ذلك هو الفوز العظيم)[٤] وقد أخرج البخارى بسنده عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه أنه قال : قال رسول الله ﷺ : (إن الله يقول لأهل الجنة : يا أهل الجنة ، يقولون : لبيك ربنا وسعديك ، فيقول : هل رضيتم ؟ فيقولون : وما لنا لا نرضى وقد أعطيتنا ما لم تعط أحدا من خلقك فيقول : أنا أعطيكم أفضل من ذلك . قالوا : يارب وأى شىء أفضل من ذلك؟ فيقول : أحل عليكم رضوانى فلا أسخط عليكم أبدا)[٥] .

اللهم امنحنا رضوانك الأكبر وعطاءك الأوفر وفضلك الجزيل بلا سلب بعد عطاء يا كريم بجاه نبيك الكريم عليه وآله وصحبه أفضل الصلاة وأتم التسليم .

---

(١) أى الجماعة المجتمعون على الشراب ، وفى الدور المنثور (٥/٦) السرب :

(٢) انظر تفسير ابن كثير ١٨٧/٧

(٣) انظر أنوار التنزيل ٣٥٣/١

(٤) سورة التوبة /٧٢ م

(٥) انظر صحيح البخارى : (كتاب الرقاق ٩١/٤)

(٩) أرفع مراتب النعيم : النظر إلى وجه الله الكريم ، وهو المراد بالزيادة فى قوله تعالى : (للذين أحسنوا الحسنى وزيادة)(١) ؛ فقد روى الامام أحمد بسنده عن سيدنا صهيب رضى الله عنه : أن رسول الله ﷺ تلا هذه الآية : (للذين أحسنوا الحسنى وزيادة) ، وقال : (إذا دخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار نادى مناد يا أهل الجنة : إن لكم عند الله موعدا يريد أن ينجزكموه . فيقولون : وما هو ؟ ألم يثقل موازيننا ويبيض وجوهنا ويدخلنا الجنة ويجرنا من النار ؟ قال . — فيكشف لهم الحجاب فينظرون إليه ، فوالله ما أعطاهم شيئا أحب إليهم من النظر إليه ولا أقر لأعينهم)(٢) اللهم متعنا بالنظر إلى وجهك الكريم بجاه نبيك الكريم يا كريم .

تلك هى أبرز ثمرات الإيمان التى أعدها الله تعالى بمنه وفضله لعباده المؤمنين فى دار الدنيا ودار الآخرة .

---

(١) سورة يونس / ٢٦ ك (٢) انظر المسند ٤/٣٣٢

مثل عليا ونماذج رفيعة

للمؤمنين والمؤمنات فى القرآن الكريم

حينما نتدبر آى التنزيل المتعلقة بالإيمان — من جوانبه وزواياه المختلفة — نقف على نماذج شامخة وصور رائعة تتجسد فيها عظمة الإيمان وقوته وروعته والتفانى فى الحفاظ على مبادئه والذود عن حماه ، والإذعان للحق والمضى فى سبيله مهما تراكمت العوائق وتكاثرت العقبات وادلهمت الخطوب حتى تنجاب الظلمات وتنقشع الغواشى وينشق دجى الليل عن ضياء الفجر مصحوبا بأذان الحق معلنا أن : (جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا) .

وفى تلك النماذج السامية يبدو ألق الصدق وعبير الصفاء وإشراقة الروح بسموها ونورانيتها المتألقة : إنها الشخصيات الربانية التى اصطفها الحق تعالى لنفسه ورباها على عينه لتكون منارات هادية وقيادات مرشدة يتأسى بها التواقون إلى النور فى كل عصر ومصر إنها نماذج القرآن للإيمان ! ! .

ولقد ساق لنا الذكر الحكيم هذه المثل الإيمانية والنماذج الشخصية عبر الرسلات السماوية المتعددة ليؤكد أن نور الإيمان الحق يسرى فيها وينتظمها جميعا وسنسوق من هذه المثل ما يجسد عظمة الإيمان وروعته على امتداد الرسالات السماوية عبر أحقاب التاريخ حتى جاءت الرسالة المحمدية الخاتمة الكاملة المكملة لخير أمة أخرجت للناس فسطعت أنوارها وتجلت مثاليتها الوضاءة فى صحابة واتباع سيد المرسلين ﷺ :

وها هى تلك المثل الإيمانية التى نقدمها من كتاب الله تعالى من خلال التاريخ الإيمانى كله :

أولا : مثل من الأمم السابقة : ونذكر منهم : —

١ — سحرة فرعون : وهم الذين قص علينا القرآن الكريم قصتهم الإيمانية فى أكثر من موضع فى التنزيل فمرة فى سورة (الأعراف) وأخرى فى (طه) وثالثة فى (الشعراء) ففى سورة الأعراف يقول سبحانه : —

(ثم بعثنا من بعدهم موسى بآياتنا إلى فرعون وملائه. فظلموا بها فانظر كيف كان عاقبة المفسدين . وقال موسى يافرعون إنى رسول من رب العالمين حقيق على أن لا أقول على الله إلا الحق قد جئتكم ببينة من ربكم فأرسل معى بنى إسرائيل . قال إن كنت جئت بآية فأت بها إن كنت من الصادقين فألقى عصاه فإذا هى ثعبان مبين . ونزع يده فإذا هى بيضاء للناظرين . قال الملأ من قوم فرعون إن هذا لساحر عليم . يريد أن يخرجكم من أرضكم فماذا تأمرون؟؟ قالوا : أرجه وأخاه وأرسل فى المدائن حاشرين يأتوك بكل ساحر عليم .

وجاء السحرة فرعون ، قالوا : إن لنا لأجرا إن كنا نحن الغالبين ؟؟

قال : نعم . وإنكم لمن المقربين .

قالوا . ياموسى : إما أن تلقى وأما أن نكون نحن الملقين .

قال : ألقوا ، فلما ألقوا : سحروا أعين الناس واسترهبوهم وجاءوا بسحر عظيم .

وأوحينا إلى موسى : أن ألق عصاك فإذا هى تلقف ما يأفكون .

فوقع الحق وبطل ما كانو يعملون . فغلبوا هنالك وانقلبوا صاغرين .

وألقى السحرة ساجدين قالوا آمنا برب العالمين ، رب موسى وهارون .

قال فرعون : آمنتم به قبل أن آذن لكم ؟؟ إن هذا لمكر مكرتموه

في المدينة لتخرجوا منها أهلها فسوف تعلمون، لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ثم لأصلبنكم أجمعين.

قالوا: إنا إلى ربنا منقلبون، وما تنقم منا إلا أن آمنا بآيات ربنا لما جاءتنا ربنا أفرغ علينا صبرا وتوفنا مسلمين)(١) إنها قوة الايمان وروعة الإسلام!!

٢ — امرأة فرعون (آسية) ومريم ابنة عمران. رضى الله عنهما: مثلان رفيعان للمرأة المؤمنه المحصنة، يقول تعالى شأنه: —

(وضرب الله مثلا للذين آمنوا امرأة فرعون إذ قالت رب ابن لى عندك بيتا فى الجنة ونجنى من فرعون وعمله ونجنى من القوم الظالمين.

ومريم ابنة عمران التى أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا وصدقت بكلمات ربها وكتبه وكانت من القانتين)(٢) ولقد قال سيدنا رسول الله ﷺ: —

(كمل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء إلا مريم بنت عمران وآسية امرأة فرعون، وفضل عائشه على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام)(٣).

وقال ﷺ: (حسبك من نساء العالمين: مريم ابنة عمران وخديجة بنت خويلد وفاطمة بنت محمد وآسية امرأة فرعون)(٤).

---

(١) سورة الأعراف - ١٠٣ - ١٢٦ ك واقرأ نفس القصة فى سياقين آخرين: فى سورة (طه) الآيات: ٥٦ - ٧٥ ك، وفى سورة الشعراء: الآيات: ١٠ - ٥١ ك.

(٢) سورة التحريم - ١١ - ١٢ م.

(٣) رواه البخارى فى كتاب الأطعمة من صحيحة ٣ / ١٩٨.

(٤) رواه الترمذى فى سننه [٥ / ٧٠٣] وقال: (هذا حديث صحيح)

٢ — الحواريون : وهم صفوة أصحاب سيدنا عيسى — على نبينا الاعظم وعليه الصلاة والسلام — وتسميتهم مأخوذة من الحور وهو البياض الخالص ، وقد سموا بذلك لخلوص نيتهم ونقاء سريرتهم ، وقيل : كانوا ملوكا يلبسون البياض وقد استنصربهم سيدنا عيسى — على نبينا وعليه السلام — من اليهود ، وقيل : كانوا قصارين يحورون الثياب ، أى يبيضونها(١) .

ماذا قال الله تعالى فى شأنهم ؟؟ قال تعالى : —

(فلما أحس عيسى منهم(٢) الكفر قال : من أنصارى إلى الله ؟ قال الحواريون : نحن أنصار الله آمنا بالله واشهد بأنا مسلمون . ربنا آمنا بما أنزلت واتبعنا الرسول فاكتبنا مع الشاهدين)(٣) .

أى : مع الشاهدين بوحدانيتك ، أو : مع الأنبياء الذين يشهدون لأتباعهم ، أو : أمة سيدنا محمد ﷺ فإنهم شهداء على الناس)(٤) .

وقال تعالى : (وإذ أوحيت(٥) إلى الحواريين أن آمنوا بى وبرسولى ، قالوا : آمنا واشهد بأننا مسلمون . إذ قال الحواريون : ياعيسى بن مريم هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء ؟ قال اتقوا الله إن كنتم مؤمنين ، قالوا : نريد أن نأكل منها وتطمئن قلوبنا ونعلم أن

---

(١) انظر أنوار التنزيل ١/١٤٠ .
(٢) الضمير المجرور لبنى إسرائيل .
(٣) سورة آل عمران / ٥٢ - ٥٣ م .
(٤) انظر أنوار التنزيل ١ - ١٤٠ .
(٥) أى أمرتهم على ألسنة رسلى (أنوار التنزيل ١ / ٢٥١) .

قد صدقتنا ونكون عليها من الشاهدين ، قال عيسى بن مريم اللهم ربنا أنزل علينا مائدة من السماء تكون لنا عيداً لأولنا وآخرنا وآية منك وارزقنا وأنت خير الرازقين ، قال الله انى منزلها عليكم ، فمن يكفر بعد منكم فإنى أعذبه عذابا لا أعذبه أحدا من العالمين)(١) .

وقد روى الامامان : الطبرى وابن كثير — فى شأن المائدة — عن الإمام ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال : (نزلت على عيسى بن مريم والحواريين خوان عليه خبز وسمك يأكلون منه أينما نزلوا إذا شاءوا)(٢).

كما عرض القاضى البيضاوى لبعض الأقوال الأخرى فى شأن نزول المائدة فمما قاله فى هذا الصدد :-

« .. وقيل : لما وعد الله إنزالها بهذه الشريطة : استغفروا وقالوا : لانريد ، فلم تنزل .

وعن مجاهد : أن هذا مثل ضربه الله لمقترحى المعجزات .

وعن بعض الصوفية(٣) : المائده ههنا : عباره عن حقائق المعارف فإنها غذاء الروح كما أن الأطعمة غذاء البدن : وعلى هذا : فلعل الحال : أنهم رغبوا فى حقائق لم يستعدوا للوقوف عليها ، فقال لهم عيسى — عليه الصلاة والسلام — : إن حصلتم الإيمان فاستعملوا التقوى حتى تتمكنوا من

---

(١) سورة المائدة - ١١٥ م

(٢) انظر تفسير ابن كثير ٣ / ٢٢٢

(٣) يفيد هذا النقل عن بعض الصوفية أن الإمام البيضاوى كان صوفى النزعة حيث جعل الصوفيه من مصادره فى التفسير مع الإذعان لأقوالهم النورانية دونما تعقيب عليها بالنكران .

الإطلاع عليها ، فلم يقلعوا عن السؤال وألحوا فيه ، فسأل لأجل اقتراحهم، فبين الله سبحانه : أن إنزاله سهل ، ولكن فيه خطر وخوف عاقبه ، فإن السالك إذا انكشف له ما هو أعلى من مقامه : لعله لا يحتمله ولا يستقر له فيضل به ضلالا بعيدا)(١) .

لقد أنبأ هذا التفسير الإشارى عن حقيقة الحواريين من خلال درس سلوكى رفيع .

٤ – أصحاب الكهف والرقيم(٢) :

نموذج قرآنى آخر للمؤمنين الصادقين ، ويتمثل فى فتية من أشراف الروم أرادهم (دقيانوس) على الشرك فأبوا وثبتوا على الإيمان بالله تعالى وأووا إلى الكهف فأحاطهم الله تعالى : بعنايته ورعايته وقواهم بالصبر والتمسك بالحق ونشر لهم من عظيم رحمته نخرق لهم العوائد وأظهر فيهم ولهم الكرامات البينات وجعلهم آية من آيات الله وحديثا خالد الذكر فواح الأريج ومثلا رائعا للمؤمنين الموقنين .

يقول ربنا جل شأنه فى قصتهم من سورة (الكهف) – التى عنونت باسم موضع أحداث تلك القصة الإيمانية :

« أم حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجبا . إذ أوى الفتية إلى الكهف فقالوا : ربنا آتنا من لدنك رحمة وهىء لنا من

---

(١) أنظر أنوار التنزيل للإمام البيضاوى رضى الله عنه ٢٥٢/١

(٢) الكهف : هو الغار الواسع فى الجبل ، والرقيم : إما اسم الجبل أو الوادى الذى فيه كهفهم أو اسم قريتهم أو كلبهم ، أو لوح رصاصى أو حجرى رقت فيه أسماؤهم وجعل على باب الكهف .

أمرنا رشدا . فضربنا على آذانهم(١) فى الكهف سنين عددا . ثم بعثناهم لنعلم أى الحزبين(٢) أحصى لما لبثوا أمدا .

نحن نقص عليك نبأهم بالحق : إنهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى ، وربطنا على قلوبهم إذ قاموا فقالوا : ربنا رب السموات والأرض لن ندعو من دونه إلها لقد قلنا إذاً شططا .

هؤلاء قومنا اتخذوا من دونه آلهة لولا يأتون عليهم بسلطان بين فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا . وإذ اعتزلتموهم ، وما يعبدون إلا الله فأووا إلى الكهف ينشر لكم ربكم من رحمته ، ويهيء لكم من أمركم مرفقا .

وترى الشمس إذا طلعت تزاور عن كهفهم ذات اليمين(٣) ، وإذا غربت تقرضهم(٤) ذات الشمال .وهم فى فجوة منه(٥) . ذلك من آيات الله ، من يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدا .

---

(١) المعنى : ضربنا عليها حجابا يمنع السماع أى : أنمناهم إنامة لاتنبههم فيها الاصوات .

(٢) المراد بالحزبين : الفريقان المختلفان فى مدة لبثهم فى الكهف .

(٣) أى : تميل الشمس عن كهفهم وقت طلوعها إلى اليمين لئلا يقع شعاعها عليهم فيؤذيهم لأن الكهف كان جنوبيا . (أنظر تفسير البيضاوى ٢/٤) .

(٤) أى تتركهم وتتجاوز عنهم .

(٥) أى فى متسع من الكهف — فى وسطه — بحيث ينالهم روح الهواء ولا يؤذيهم كرب الغار ولا حر الشمس .

وتحسبهم أيقاظا ، وهم رقود ، ونقلبهم ذات اليمين وذات الشمال(١) .
وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد(٢) لو أطلعت عليهم لوليت منهم فرارا ولملئت
منهم رعبا .

وكذلك بعثناهم(٣) ليتساءلوا بينهم ؛ قال قائل منهم كم لبثتم ؟ قالوا :
لبثنا يوما أو بعض يوم . قالوا : ربكم أعلم بما لبثتم فابعثوا أحدكم بورقكم
هذه إلى المدينة(٤) فلينظر أيها أزكى طعاما فليأتكم برزق منه وليتلطف
ولا يشعرن بكم أحدا . إنهم إن يظهروا عليكم يرجموكم أو يعيدوكم فى ملتهم ؛
ولن تفلحوا إذاً أبدا .

وكذلك أعثرنا عليهم ليعلموا أن وعد الله حق وأن الساعة لا ريب
فيها إذ يتنازعون بينهم أمرهم فقالوا : ابنوا عليهم بنيانا ، ربهم أعلم بهم ؛
قال الذين غلبوا على أمرهم لنتخذن عليهم مسجدا(٥) . سيقولون ثلاثة
رابعهم كلبهم ويقولون خمسة سادسهم كلبهم رجما بالغيب ويقولون سبعة
وثامنهم كلبهم . قل ربى أعلم بعدتهم ما يعلمهم إلا قليل .

---

(١) أى نقلبهم فى رقدتهم كيلا تأكل الأرض ما يليها من
أجسادهم .

(٢) أى : بفناء الكهف .

(٣) أى كما أنمناهم آية بعثناهم آية على كمال قدرتنا .

(٤) الورق : الفضة ، والمدينة : طرسوس .

(٥) قال الإمام النسفى فى تفسيره (٣/٧) : — (.. « قال الذين
غلبوا على أمرهم » : من المسلمين وملكهم وكانوا أولى بهم وبالبناء عليهم
« لنتخذن عليهم » : على باب الكهف « مسجدا » : يصلى فيه المسلمون
ويتبركون بمكانهم) . ه .

فلا تمار فيهم إلا مراء ظاهرا ولا تستفت فيهم منهم أحدا(١) ، .)(٢) :

إنها قصة قلوب اجتمعت على الإيمان وتمردت على الكفر والعصيان فلم تخش فى الله بطشا ولا تنكيلا ، ولم تكن عزلتهم عن قومهم إلا نفرة من ظلمة الشرك وفرارا إلى الله تعالى : بديهم لينشر لهم مولاهم من رحمته .

وفى الكهف كانت الآيات البينات والكرامات الظاهرات :

ثانيا : مثل إيمانية عليا من الأمة المحمدية :

ونأتى إلى أكرم الأمم على الله تعالى : إلى خير أمة أخرجت للناس . . إلى أمة الرسول الأعظم سيدنا محمد ﷺ . فنجد أشرف المثل الإيمانية وأعظمها : ونقف أمام قمم شامخة ورواسى ثابتة على الإيمان واليقين ، والنور المبين فسجل لها التنزيل آيات تشهد بالمجد والفخار وعلى رأس تلك المثل العليا :

١ — الصديق الأعظم سيدنا أبو بكر رضى الله تعالى عنه :

إنه الصاحب الأول لسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم : ورفيقه فى الغار وفيه نزل قوله تعالى : (إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثانى اثنين إذ هما فى الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن

---

(١) المعنى : لا تجادل فى شأن الفتية إلا جدا لا ظاهرا غير متعمق فيه ولا تسأل أحدا من أهل الكتاب عن قصتهم .

(٢) سورة الكهف ـ ٩ ـ ٢٢ ك .

إن الله معنا ، فأنزل الله سكينته عليه ، وأيده بجنود لم تروها ، وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هى العليا والله عزيز حكيم)(١) .

إن هذه الآية الكريمة — كما يقول القرطبى(٢) — تضمنت فضائل الصديق رضى الله عنه :

١ — لأنها حققت وصف الصحبة له فى كتاب الله تعالى : ومن ثم قال بعض العلماء . من أنكر أن يكون عمر وعثمان أو أحد من الصحابة صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم : فهو كذاب مبتدع ومن أنكر أن يكون أبو بكر رضى الله عنه صاحب رسول الله ﷺ : فهو كافر لأنه أنكر نص القرآن(٣) .

٢ — ولأنها أثبتت نصرة الصديق رضى الله عنه للنبى صلى الله عليه وسلم : وانفراده بهذه المنة العظمى فى هذا الموطن الجليل .

ولذا قال الإمام سفيان بن عيينة ، (خرج أبو بكر بهذه الآية من المعاتبة التى فى قوله ، (إلا تنصروه)(٤) .

---

(١) سورة التوبة - ٤٠ م .

(٢) أنظر تفسيره : ٨ / ١٤٦ .

(٣) نفس المصدر .

(٤) نفس المصدر ص ١٤٣ .

ومن ثم قال بعض المفسرين فى تفسير الآية الكريمة : (.. فقد نصره الله بصاحبه فى الغار بتأنيسه له وحمله على عنقه وبوفائه ووقايته له بنفسه ومواساته له بماله)(١) .

وقال سيدنا الإمام الليث بن سعد رضى الله عنه : (ما صحب الأنبياء عليهم السلام مثل أبى بكر الصديق)(٢) .

٣ ـ كما أثبتت الآية الكريمة لسيدنا أبى بكر رضى الله عنه معية خاصة مع الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم : ومن ثم نقل القرطبى عن الإمام المحاسبى رضى الله عنه أنه قال فى قوله تعالى (إن الله معنا) : (يعنى معهما بالنصر والدفاع لا على معنى ما عم به الخلائق)(٣) .

وفى هذه الآية الكريمة سر لطيف كشف عنه أبو بكر بن العربى بروايته عن جمال الإسلام أبى القاسم أنه قال : (قال موسى ـ ﷺ ـ « كلا إن معى ربى سيهدين » وقال فى محمد ﷺ : « لا تحزن إن الله معنا » : لا جرم لما كان الله مع موسى وحده : ارتد أصحابه بعده فرجع من عند ربه ووجدهم يعبدون العجل . ولما قال فى محمد ﷺ : « إن الله معنا » : بقى أبو بكر مهتديا موحداً عالماً جازماً قائماً بالأمر فلم يتطرق إليه اختلال)(٤) .

وسيدنا أبو بكر هو الذى شهد له التنزيل بالفضل إذ قال تعالى : (ولا يأتل أولوا الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولى القربى والمساكين والمهاجرين فى سبيل الله وليعفوا وليصفحوا ..)(٥) .

---

(١) نفس المصدر .

(٢) نفس المصدر .

(٣) نفس المصدر .

(٤) انظر تفسير القرطبى ١٤٧/٨

(٥) سورة النور ٢٢ م .

وهو الذى شهد له التنزيل بالتصديق والتقوى فقال تعالى (والذى جاء بالصدق وصدق به أولئك هم المتقون . لهم ما يشاءون عند ربهم ذلك جزاء المحسنين)(١) .

قال الحافظ السيوطى ، (.. وأخرج ابن جرير والبارودى – فى معرفة الصحابة – وابن عساكر من طريق أسيد بن صفوان – وله صحبة – عن على بن أبى طالب قال ، (« والذى جاء بالصدق » محمد صلى الله عليه وسلم « وصدق به » أبو بكر رضى الله عنه ، هكذا الرواية بالحق ولعلها قراءة لعلى رضى الله عنه)(٢) . إنه الصديق الأكبر والمدافع الأول عن الدعوة الإسلامية المحمدية ، روى البخارى بسنده عن عروة بن الزبير قال ، سألت عبد الله بن عمرو عن أشد ما صنع المشركون برسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال ، رأيت عقبة بن أبى معيط جاء إلى النبى صلى الله عليه وسلم وهو يصلى فوضع رداءه فى عنقه فخنقه خنقاً شديداً فجاء أبو بكر حتى دفعه عنه صلى الله عليه وسلم فقال ، (أتقتلون رجلا أن يقول ربى الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم ؟؟)(٣) . رضى الله عنك يا ثانى اثنين يا صديق سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ،

(٢) المهاجرون والأنصار ، أروع المثل الإيمانية الصادقة ، وتلك شهادة القرآن الكريم لهم ، بعظمة التفانى فى نصرة الله ورسوله صلى الله عليه وسلم وبروعة الأخاء فى الله تعالى ،

قال تعالى شأنه : (للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلا من الله ورضواناً وينصرون الله ورسوله أولئك

---

(١) سورة الزمر / ٣٣ – ٣٤ك .
(٢) انظر الدر المنثور ٣٢٨/٥ وتفسير القرطبى ٢٥٦/١٥
(٣) انظر صحيح البخارى ١٩٥/٢

هم الصادقون ، والذين تبوءوا الدار والايمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون ، والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولاخواننا الذين سبقونا بالايمان ولا تجعل فى قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا إنك رءوف رحيم)(١) ،

بالعظمة الايمان فى قلوب المهاجرين والأنصار !! صنوان من الطراز الأرفع فى الايمان والتضحية والايثار ، فهؤلاء المؤمنون المهاجرون من صحابة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ما أخرجهم من ديارهم وأموالهم إلا ابتغاء فضل الله ورضوانه ونصرة الله ورسوله فتجسد فيهم صدق الايمان واليقين ،

وهؤلاء الأنصار الأخيار الذين تبوءوا دار الهجرة ودار الايمان تجسد فيهم الحب فى الله تعالى فأحبوا إخوانهم المهاجرين ولم يجدوا فى أنفسهم حسداً أو حزازة من تميزهم عليهم فى الفيء ونحوه بل تجاوزوا هذه السماحة إلى القمة فآثروهم على أنفسهم حتى مع إلمام الخصاصة والحاجة بهم ، وهاك المثل الأرفع فى الاخاء الذى يفوق بروعته كل ما راود أحلام الفلاسفة من مثاليات نظرية ، —

---

(١) سورة الحشر / ٨ — ١٠ م

روى البخارى بسنده عن إبراهيم بن سعد عن أبيه عن جده قال : لما قدموا(١) المدينة آخى رسول الله ﷺ بين الرحمن بن عوف وسعد بن الربيع . قال(٢) لعبد الرحمن : إنى أكثر الأنصار مالا فاقسم مالى نصفين ، ولى امرأتان فانظر أعجبهما إليك فسمها لى أطلقها فإذا إنقضت عدتها فتزوجها !! قال : بارك الله تعالى لك فى أهلك ومالك ، أين سوقكم ؟ فدلوه على سوق بنى قينقاع ، فما انقلب إلا ومعه فضل من أقط وسمن ، ثم تابع الغدو ، ثم جاء يوما وبه أثر صفرة فقال النبى ﷺ مهيم(٣) ؟ قال : تزوجت . قال : كم سقت إليها ؟ قال نواة من ذهب أو وزن نواة من ذهب)(٤) وأمثلة وأمثلة تشع بأضواء التربية الإيمانية المحمدية المثلى .

٣ — رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه : وفيهم قال الحق جل شأنه : (من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا ليجزى الله الصادقين بصدقهم ويعذب المنافقين إن شاء أو يتوب عليهم إن الله كان غفوراً رحيما)(٥) .

أخرج الإمام أحمد(٦) ومسلم والترمذى والنسائى عن أنس بن مالك رضى الله عنه أنه قال :

---

(١) أى : لما قدم المهاجرون . (٢) القائل سيدنا سعد بن الربيع .

(٣) أى : ما حالك وشأنك ؟

(٤) انظر صحيح البخارى : ٢٠٦/٢ ط محمد عبد اللطيف .

(٥) سورة الأحزاب / ٢٣ — ٢٤ م .

(٦) انظر المسند : ١٩٤/٣ وتفسير القرطبى : ١٥٩/١ وروح المعانى ١٧٠/٢١ وتفسير ابن كثير ٣٩٣/٦ — ٣٩٤ ط الشعب .

والرواية فى المصدر الأخير أقرب إلى ما فى المسند مع تصحيح ما ألم بنسخ المسند من إضطراب فى السند وزيادة تكرار لفظ (قال) فى المتن .

عمى أنس بن النضر — سميت به ، لم يشهد مع النبى صلى الله عليه وسلم يوم بدر .

فشق عليه وقال : فى أول مشهد شهده رسول الله ﷺ غبت عنه ، لئن أرانى الله مشهداً فيما بعد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ليرين الله ما أصنع !! قال : فهاب أن يقول غيرها ، فشهد مع رسول الله ﷺ يوم أحد : فاستقبل سعد بن معاذ ، فقال له أنس : يا أبا عمر : أين ؟ واها لريح الجنة أجده دون أحد !! قال : فقاتلهم حتى قتل ، قال : فوجد فى جسده بضع وثمانون من ضربة وطعنة ورمية !!

فقالت أخته — عمتى الربيع ابنة النضر — : فما عرفت أخى إلا ببنانه، ونزلت هذه الآية : (.. رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه[1] ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا) قال : فكانوا يرون أنها نزلت فيه وفى أصحابه) .

وفى تفسير قوله تعالى : (فمنهم من قضى نحبه ...) إلخ يقول الإمام القرطبى : (أى : منهم من بذل جهده على الوفاء بعهده حتى قتل ، مثل حمزة ، وسعد بن معاذ وأنس بن النضر وغيرهم . ومنهم من ينتظر الشهادة ومابدلوا عهدهم ونذرهم)[2] .

وأخرج أبو الشيخ وابن عساكر عن سيدنا على كرم الله وجهه ورضى عنه أنه قال :

-. وقد قيل له : حدثنا عن طلحة — : (ذاك امرؤ نزل فيه آية من كتاب الله : (فمنهم من قضى نحبة ومنهم من ينتظر) . وكان سيدنا طلحة

---

(١) النحب الوقت والمدة ويطلق على الموت : كما يطلق على النذر والعهد وهو الأنسب لسياق الآية الكريمة . (٢) انظر تفسير القرطبى ١٤/١٦٠

ابن عبيد الله رضي الله تعالى عنه : وقد ثبت يوم أحد حتى أصيبت يده(١) .

٤ — أصحاب النبي ﷺ عامة : وهم الذين قال فيهم(٢) جل شأنه :

(محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعا سجداً يبتغون فضلا من الله ورضوانا سيماهم في وجوههم من أثر السجود ذلك مثلهم في التوراة ومثلهم في الإنجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغظ بهم الكفار وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجراً عظيما)(٣) .

لقد أثبت القرآن الكريم في هذه الآية المباركة هذه الصفات الحسنى والمناقب العظمى .

١ — أنهم — من منطلق الايمان به والمتشرف بمعيته والتأدب بآدابه صلى الله عليه وسلم :

أشداء على الكفار ، أى غلاظ عليهم كالأسد على فريسته كما أمر الحق تعالى بقوله :

(يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة)(٤) .

---

(١) انظر أسباب النزول للواحدى بتحقيق السيد صقر / ٣٧٢ وتفسير الامام الآلوسى : ٢١/١٧١

(٢) يرى الامام ابن عباس رضى الله عنهما أن المراد بالذين معه : من شهد الحديبية ، بينما يرى الجمهور : أن المراد بهم ، جميع أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ورضى عنهم أجمعين (تفسير الآلوسى ٢٦/١٢٣) .

(٣) سورة الفتح / ٢٩ م (٤) سورة التوبة / ١٢٣ م

٢ — وأنهم رحماء بينهم ، إذ بقدر ما فيهم من غلظة وشدة على أعداء الدين : تمتلىء قلوبهم بالرحمة والرقة والرأفة والمحبة لاخوانهم المؤمنين كما قال تعالى : (فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين)(١) .

ولقد بلغ من تشدد الصحابة رضوان الله عليهم — على الكفار : أنهم كانوا يتحرزون من ثيابهم أن تلزق بثيابهم ومن أن تمس أبدانهم .

كما بلغ من تراحمهم فيما بينهم : أنه كان لا يرى مؤمن مؤمنا إلا صافحه وعانقه . روى ذلك عن الامام الحسن رضى الله تعالى عنه(٢) .

٣ — كما وصفهم بكثرة العمل والعبادة والتقرب إلى الله عز وجل بالصلاة التى هى خير الأعمال ومعراج الوصول إلى ملك الملوك جل وعلا .

٤ — ونعتهم بالاخلاص لله تعالى فى عبادتهم وابتغائهم منه سبحانه وتعالى الفضل والرضوان .

٥ — كذلك وسمهم سبحانه فى وجوههم بعلامات يعرفون بها - فى الدنيا والآخرة - أنهم سجدوا لله تعالى ، وهذه العلامات هى :

(ا) إما الآثار الحسية التى تحدث فى جباه السجاد من كثرة السجود ، وقد كان كل من العليين — سيدى : على زين العابدين بن مولانا الامام الحسين رضى الله تعالى عنهما ، وسيدى على بن عبد الله ابن العباس رضى الله عنهم أجمعين — يقال له : ذو الثفنات ، لأن كثرة سجودهما أحدثت فى مواقعه منهما أشباه ثفنات البعير (٣) .

---

(١) سورة المائدة / ٥٤ م

(٢) انظر روح المعانى للامام الآلوسى ٢٦/١٢٣

(٣) انظر البحر المحيط لأبى حيان ٨/١٠٢

(ب) وإما هى السمت الحسن وخشوع يبدو على الوجه كما قاله الإمام ابن عباس رضى الله عنه (١) .

(ج) وإما هى : بياض وصفرة وبهيج يعترى الوجه من السهر . كما روى الإمام الحسن وغيره (٢) .

(د) وإما هى : النور الذى يغشى وجوههم يوم القيامة كما رواه الطبرانى وابن مردويه بسند حسن عن أبى بن كعب قال : (قال رسول الله ﷺ فى قوله تعالى « سيماهم فى وجوههم من أثر السجود » : النور يوم القيامة) (٣) . وقد عقب الإمام الآلوسى — قدس الله سره — على هذا بقوله : (ولا يبعد أن يكون النور علامة فى وجوههم فى الدنيا والآخرة ، لكنه لما كان فى الآخرة أظهر وأتم : خصه النبى ﷺ بالذكر ، وإذا صح الحديث فهو مذهبى) (٤) وأقول هذا القول ونعم قائله .

٦ — ثم لقد أثبت الحق — تعالى شأنه — مثل هؤلاء الصحابه الأكرمين ووصفهم الرائع العجيب الشأن الجارى فى الغرابة مجرى الأمثال السائرة : فى كل من التوراة والانجيل .

وهذا المثبت فى الكتابين والإلهيين السابقين إما مثل واحد — كما ذهب إليه مجاهد والفراء — وهذا المثل هو وصفهم بأنهم أشداء على الكفار رحماء بينهم . الخ . والمبين بالتمثيل المستأنف (كزرع) الخ .

وإما مثلان — كما قال الإمام ابن عباس رضى الله عنهما — أحدهما مثبت فى التوراة وهو ما ذكر أولا من نعوتهم الجليلة — وعليه يكون الوقف

---

(١) نفس المصدر (٢) نفس المصدر

(٣) أنظر : روح المعانى للإمام الآلوسى : ١٢٥/٢٦

(٤) نفس المصدر .

على (التوراة) ، وثانيهما : مثبت فى الانجيل وهو : (كزرع أخرج شطأه ..) الخ .

وهذا هو الرأى الأرجح ؛ لأنه مؤيد بما روى عن قتادة من قوله : (مثل أصحاب النبى ﷺ فى الإنجيل مكتوب : أنه سيخرج من أمة محمد ﷺ قوم ينبتون نباتاً كالزرع يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر)(١) .

ونقل ابن كثير عن الإمام مالك رضى الله تعالى عنه أنه قال : (بلغنى أن النصارى كانوا إذا رأوا الصحابة الذين فتحوا الشام يقولون : « والله لهؤلاء خير من الحواريين فيما بلغنا) وعقب ابن كثير بقوله : وصدقوا فى ذلك فإن هذه الأمة معظمة فى الكتب المتقدمة ، وأعظمها وأفضلها : أصحاب رسول الله ﷺ ، وقد نوه الله بذكرهم فى الكتب المنزلة والأخبار المتداولة ولهذا قال ههنا : (ذلك مثلهم فى التوراة) ثم قال : (ومثلهم فى الإنجيل كزرع أخرج شطأه) أى : فراخه(٢) .

(فآزره) : أى شده (فاستغلظ) : أى : شب وطال (فاستوى على سوقه يعجب الزراع) أى : فكذلك أصحاب محمد — ﷺ — آزروه ، وأيدوه ، ونصروه ، فهم معه كالشطء مع الزرع (ليغيظ بهم الكفار)(٣) .

ثم قال عز من قائل : (وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم(٤)

---

(١) أنظر البحر المحيط لأبى حيان : ١٠٢/٨ وروح المعانى للإمام الآلوسى : ١٢٦/٢٦ .

(٢) يطلق الشطء فى اللغة على فرخ الزرع والنخل وعلى ورق الزرع وعلى الطرف وعلى السنبل ،

(٣) أنظر تفسير ابن كثير ٣٤٣/٧

(٤) نص جمهرة المفسرين على أن (من) ههنا : لبيان الجنس لا للتبعيض ؛ لأنهم كلهم بالصفة المذكورة .

مغفرة وأجرا عظيما) ألحقنا الله تعالى بهم وحشرنا فى معيتهم المباركة مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا .

تلك هى المثل العليا والنماذج الرفيعة للمؤمنين نختتم بها موضوع الإيمان(١) فى القرآن العظيم ، وأسأل الله تعالى بجاه رسوله الأعظم سيدنا ومولانا محمد وآله صحبه الأكرمين أن يثبت قلوبنا على الإيمان والإسلام والإحسان حتى نلقاه فى زمرة أحبابه المؤمنين اللهم آمين .

---

(١) مما يجدر التنويه به : أن موضوع الإيمان فى التنزيل قد إقتضى مناهذا التوسع فى البحث نظرا لسعة إطاره الموضوعى ولتشعب جوانبه التى يعد كل منها موضوعا قائما برأسه .

التقوى فى القرآن الكريم

وفى نور الذكر الحكيم وفى هدى البيان النبوى الكريم : نتعايش مع التقوى ونفحات من زادها — الذى هو خير الزاد — كما تعايشنا مع الإيمان فى القرآن الكريم ، وتضلعنا من ينبوعه النورانى الزاخر بالعطاء ، فالتقوى: هى الامتداد الحيوى للإيمان ، وهى نتاجه وثمرته ، وهى مقياس تحقق حقيقته ، وإن شئت فقل : إنها حقيقة حقه .

ولأن الحقيقة أخص من الحق — لأنها لبه وسويداء قلبه(١) — فإن العلاقة بينها وبينه هى العموم والخصوص المطلق ، فكل تقى مؤمن وليس كل مؤمن تقيا ؛ ومن ثم : كان تحقق التقوى مقياسا صادقا لاكتمال الإيمان فى قلب المؤمن ، كما قال سبحانه : (قال إتقوا الله إن كنتم مؤمنين)(٢) أى: إن صدقتم فى إدعاء الإيمان والاسلام فاتقوا الله ، فإن ذلك مما يوجب التقوى (٣) .

ولأن التقوى هى إمتداد الإيمان وثمرته العظمى ونتاج هداه : قال تعالى : (والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم)(٤) فالتقوى فضل الله يؤتيه من يشاء من عباده ، ممن وفقهم للايمان الكامل ، والأتقياء هم خاصة عباد الله المؤمنين .

ومن ثم كانت التقوى مع الإيمان هما ركيزتا الولاية الخاصة لله عزوجل حيث قال تعالى : (ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون الذين آمنوا وكانوا يتقون . لهم البشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة لا تبديل لكلمات الله ذلك هو الفوز العظيم)(٥) .

---

(١) آية ذلك قوله ﷺ لسيدنا حارثه — فى الحديث الذى أوردناه فى مقاييس الإيمان — « إن لكل حق حقيقة ، فما حقيقة إيمانك ؟ » الخ .

(٢) سورة المائدة / ١١٢ م

(٣) أنظر إرشاد العقل السليم للامام أبى السعود ٢/٧٣

(٤) سورة (محمد) /١٧ م

(٥) سورة (يونس) ٦٢ - ٦٤ ك

ونقول الولاية الخاصة : لأن ثمة ولاية عامة هى لعامة المؤمنين ومبناها هو الإيمان وحده كما قال تعالى : (الله ولى الذين آمنوا)(١) ، فإذا ما إنضمت التقوى إلى الإيمان إرتقى المؤمن بهما إلى أوج الولاية الخاصة التى يمن الله تعالى بها على خاصة عباده وهم ورثة الأنبياء والرسل صلوات الله وسلامه عليه أجمعين ، وهم الذين وعدهم الحق تعالى بالبشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة وبالفوز العظيم .

كذلك قصر الحق تعالى ولايته الخاصة على عباده المتقين فقال تعالى شأنه : (إن أولياؤه إلا المتقون ولكن أكثرهم لا يعلمون)(٢) .

لهذا الارتباط الوثيق بين الإيمان والتقوى : ارتأينا — بتوفيق الله تعالى — إردافها به فى البحث الموضوعى فى التنزيل لنستجمع معالم الإيمان فى إطاره الخاص وذروته العليا : (التقوى) وللتقوى فى القرآن العظيم جانب موضوعى رحيب يتجلى فيه جوهرها وحقيقتها ، وتتضح فى إطاره معالمها وأبعادها ، ويتاح — بالوقوف عليه : استكنناه خصائصها وخصالها وإدراك خوافيها ومراميها ، ورؤية مدارجها ومراتبها . ثم التعرف على نتاجها وثمارها .

لقد حفل التنزيل بإبراز هذه المعطيات للتقوى فى مواطن شتى بالغة الكثرة من آياته البينات النيرات ، حيث وردت مادة (التقوى) وماتفرع واشتق من أصلها اللغوى (وقى) فى ثمانية وخمسين ومائتين موضعا من التنزيل(٣) .

---

(١) سورة البقرة / ٢٥٧م (٢) سورة الأنفال / ٣٤م

(٣) من هذه المواضع : تسعة عشر موضعا وردت بها مشتقات الوقاية - بدون إبدال الواو تاء — وباقى المواضع بالإبدال ، والإحصاء من المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم للعلامة محمد فؤاد عبد الباقى (ص٧٥٨-٧٦١)

وقد تكشف لنا بالبحث - بتوفيق الله تعالى - أن الجوانب الرئيسية لهذا الموضوع في القرآن الكريم تتمثل في أربعة :

أولها : حقيقة التقوى ومنزلتها من الدين .

وثانيها : مراتبها ودرجاتها .

وثالثها : جوانبها وشعابها .

ورابعها : نتائجها وثمارها .

وسنسلط فيما يلي : ضوء البحث على هذه الجوانب الموضوعية في التنزيل الحكيم فأقول : - وبالله التوفيق -

(الجانب الأول) حقيقة التقوى :

للتقوى حقيقة لغوية - وردت بها في الاستعمال اللغوي - وحقيقة شرعية استعملت بها في لسان الشرع الشريف وبها نطق الكتاب والسنة وهي محل بحثنا التفسيري .

فأما حقيقتها اللغوية : فهي اسم على (فعلى) مأخوذ من وقيت الشيء أقيه وقاية ووقاء(١) . والوقاية في أصل اللغة : هي الصيانة والحفظ(٢) ،

---

(١) الوقاية - بفتح الواو وكسرها وضمها - والقاء - بفتح الواو وكسرها - وكذلك : الوقى - بفتح الواو وسكون القاف - والواقية : كلها مصادر للفعل (وقى) . كذلك يرى ابن الأعرابي : أن التقاة والتقية والتقوى والاتقاء : كله واحد ، وعليه تكون التقوى مصدرا (أنظر لسان العرب : ٢٠/٢٨١ — ٢٨٢ .

(٢) وقد عرفها القاضي البيضاوي في اللغة بأنها : فرط الصيانة ، وتعقبه الشهاب بقوله : (وفيما قاله شيء لأن المذكور في كتب اللغة : تفسيرها =

وتطلق على الدفع وعلى التجنب والحذر(١)، وكذلك تطلق مجازا على الخوف من حيث هو أصلها ومنشؤها .

قال الراغب فى (مفرداته) : - (الوقاية : حفظ الشىء مما يؤذيه ويضره يقال : وقيت الشىء أقيه وقاية ووقاء ، قال : (فوقاهم الله ..)(٢) ، (.. ووقاهم عذاب الجحيم(٣)) (٤) ، (.. ومالهم من واق)(٥) ، (..مالك من الله من ولى ولا واق)(٦) ، (.. قوا أنفسكم وأهليكم نارا)(٧) .

والتقوى : جعل النفس فى وقاية مما يخاف هذا تحقيقه .

ثم يسمى الخوف تارة : تقوى ، والتقوى خوفا ، حسب تسمية الشىء بمقتضيه والمقتضى بمقتضاه)(٨) .

وإذ كانت التقوى - فى أصلها اللغوى - تعنى الصيانة والحفظ - كما رأينا - : فإنها قد وردت فى التنزيل بمعان شتى لها بالمعنى اللغوى الحقيقى وشائج وعلائق كالسببية والمسببية واللزومية ونحو ذلك . يقول الإمام الرازى فى تفسيره - بعد تبيان المعنيين اللغوى والشرعى للتقوى -(واعلم أن التقوى هى الخشية ، قال فى أول (النساء) : « يا أيها الناس اتقوا ربكم » ،

= بالحفظ والصيانة ، وماذكره من الزيادة زيادة) أنظر حاشية الشهاب على تفسير البيضاوى ١٩٧/١ .

(١) أنظر اللسان : ٢٨١/٢٠ - ٢٨٢ .

(٢) سورة الإنسان / ١١ م .

(٣) فى نص (المفردات) خطأ بالنسخ حيث أبدلت السعير بالجحيم ،

(٤) سورة الدخان / ٥٦ ك . (٥) سورة الرعد / ٣٤ م .

(٦) سورة الرعد / ٣٧ م . (٧) سورة التحريم / ٦ م .

(٨) أنظر : مفردات الراغب (ص ٥٣٠) .

ومثله : فى أول «الحج» وفى الشعراء، «إذ قال لهم أخوهم نوح ألا تتقون»(١) يعنى : ألا تخشون الله ؟؟ وكذلك قال هود وصالح ولوط وشعيب لقومهم(٢) .

وفى العنكبوت : قال إبراهيم لقومه : « . . اعبدوا الله واتقوه »(٣) يعنى : اخشوه . وكذا قوله : « .. اتقوا الله حق تقاته »(٤) ، «وتزودوا فإن خير الزاد التقوى »(٥) ، «واتقوا يوما لا تجزى نفس عن نفس شيئا »(٦) ...)(٧) .

لقد عزا الإمام الفخر التقوى فى هذه الآيات الكريمات إلى الخشية مع أنه قد فسر بعضها فى موضعه تفسيرا آخر(٨) - وذلك من قبيل تسمية الشىء بمقتضيه كما مر بنا ، ثم إنه يعود فيقول فى نفس الموضع من تفسيره الكبير - واعلم أن حقيقة التقوى - وإن كانت هى التى ذكرناها - إلا أنها قد جاءت فى القرآن الكريم والغرض الأصلى منها : الإيمان تارة، والتوبة أخرى، والطاعة ثالثا ، وترك المعصية رابعا ، والإخلاف خامسا .

أما الإيمان : فقوله تعالى : «وألزمهم كلمة التقوى » أى التوحيد ،

---

(١) الآية ١٠٦ ك .

(٢) أنظر الآيات : ١٢٤ ، ١٤٢ ، ١٦١ ، ١٧٧ من سورة الشعراء .

(٣) سورة العنكبوت / ١٦ ك .

(٤) سورة آل عمران/١٠٢م

(٥) سورة البقرة / ١٩٧ م

(٦) سورة البقرة / ٤٨ م

(٧) أنظر مفاتيح الغيب ١/ ٢٦١

(٨) أنظر مثلا تفسيره للتقوى فى قوله تعالى : «وتزودوا فإن خير الزاد التقوى» بأنها : معرفة الله ومحبته والإعراض عما سواه تعالى (مفاتيح الغيب ٢/١٦٨) .

« أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى »(١) ، وفى الشعراء : « . . قوم فرعون ألا يتقون »(٢) أى : ألا يؤمنون ؟

وأما التوبة ، فقوله : « ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا . . »(٣) أى تابوا .

وأما الطاعة : فقوله ـ فى « النحل » ـ أن أنذروا أنه لا إله إلا أنا فاتقون »(٤) وفيها أيضا : (. . أفغير الله تتقون)(٥) ؟ وفى « المؤمنين » : « وأنا ربكم فاتقون »(٦) .

وأما ترك المعصية : فقوله : (وأتوا البيوت من أبوابها واتقوا الله)(٧) أى : فلا تعصوه .

وأما الإخلاص : فقوله فى « الحج » : « فإنها من تقوى القلوب »(٨) أى : من إخلاص القلوب ، فكذا قوله : « وإياى فاتقون »(٩) اهـ .

وهكذا يعرض فخر المفسرين لاستعمالات التقوى فى القرآن الكريم لتبدو معانيها آخذة من شرب الأصل اللغوى ومتدفقة فى حياض المعنى الشرعى ؛ ومن هذا المنطلق ننتقل إلى بيان .

---

(١) سورة الحجرات / ٣ م
(٢) سورة الشعراء / ١١ ك
(٣) سورة الأعراف / ٩٦ ك
(٤) سورة النحل / ٢ ك
(٥) سورة النحل / ٥٢ ك
(٦) سورة المؤمنون / ٥٢ ك
(٧) سورة البقرة / ١٨٩ م
(٨) سورة الحج / ٣٢ م .
(٩) سورة البقرة / ٤١ م

الحقيقة الشرعية للتقوى :

لقد تعددت وتنوعت الآثار والأقوال والآراء فى بيان حقيقة التقوى الشرعية وتجسيدها من مناظير شتى ورؤى متفاوتة فى الإحاطة بجوهرها واستجماع معالمها إلا أنها بهذا الثراء والتنوع تحقق تضافرا وتكافلا فى تصوير الحقيقة من سائر جوانبها ومعالمها ، ومن ثم : سنعرض لنخبة من تلك التعاريف والأقوال الشارحة للتقوى التى تضمنتها التفاسير المختلفة والمصادر الحافلة لنقف على مقربة من الحقيقة .

ولقد تراءى لنا أن نصنف تلك التعاريف بحسب الجامع المشترك بينها ، حيث تتلاقى كل زمرة منها فى إطار كلى واحد ، وتتعدد الرؤى وتتنوع العبارات فى داخل هذا الإطار .

فثمة اتجاه يرمى إلى تعريف التقوى بالجانب السلبى - وهو جانب الترك والتجنب والصيانة - فحسب .

ومن ثم يكون متعلق التقوى(١) حينئذ : هو المحظورات والمناهى والآثام الشرعية وفى هذا الاتجاه تعاريف كثيرة للتقوى ، نجد من أبرزها :

١ - تعريف سيدنا على بن أبى طالب - كرم الله وجهه ورضى عنه - الذى أورده الفخر فى تفسيره وهو :

---

(١) نعنى بالمتعلق ههنا : متعلق التقوى المباشر ، وهو متعلق الترك والصيانة ، وإلا فمن الممكن تعلق التقوى المباشر - من هذا الجانب السلبى - بالأوامر تعليقا غير مباشر بأن يتقى ترك الأوامر . فيكون سلب السلب إيجابا .

التقوى : ترك الإصرار على المعصية ، وترك الاغترار بالطاعة)[١] .

٢ - تعريف سيدى أبى يزيد البسطامى - رضى الله عنه - الذى أورده أبو السعود فى تفسيره وهو :

(التقوى هو التورع عن كل ما فيه شبهة)[٢] : وهو مستقى من قول الحبيب المصطفى ﷺ : (الحلال بين والحرام بين وبينهما مشتبهات لا يعلمها كثير من الناس فمن اتقى الشبهات استبرأ لدينه وعرضه)[٣] إلخ :

ونظيره قول سيدنا عبد الله بن سيدنا عمر رضى الله تعالى عنهما :

(لا يبلغ العبد حقيقة التقوى حتى يدع ما حاك فى الصدر)[٤] .

وفى إطار مفهوم الورع أيضا يعرف شهر بن حوشب[٥] : المتقى بأنه : من يترك مالا بأس به حذرا من الوقوع فيما فيه بأس[٦].

٣ - تعريف أبى عبد الله الروزبارى - الذى نقله عنه الإمام القشيرى رضى الله عنهما - وهو :

(التقوى : مجانبة ما يبعدك عن الله)[٧] .

---

(١) انظر : مفاتيح الغيب ١٦١/١ .

(٢) أنظر : إرشاد العقل السليم ٢٢/١

(٣) أخرجه البخارى فى كتاب الايمان من صحيحه ٢٣/١

(٤) أنظر صحيح البخارى ٦/١

(٥) هو التابعى الجليل شهر بن حوشب الأشعرى الشامى المتوفى سنة ١٠٠هـ، قرأ على الامام ابن عباس رضى الله عنهما وكان كثير الرواية حسن الحديث، ترجمه ابن العماد فى شذرات الذهب ١١٩/١

(٦) أنظر تفسير أبى السعود ٢٢/١

(٧) أنظر الرسالة القشيرية ١٧٩/١ ،

٤ — تعريف أبي القاسم النصراباذى — رضى الله عنه — وهو :

(التقوى أن يتقى العبد ما سوى الله عز وجل)(١) .

٥ — تعريف سيدى إبراهيم بن أدهم رضى الله عنه — الذى أورده الفخر فى تفسيره — وهو :

(التقوى : ألا يجد الخلق فى لسانك عيبا ، ولا الملائكة فى أفعالك عيبا ، ولا ملك العرش فى سرك عيبا)(٢) .

٦ — تعريف سيدى أبي العباس بن مسروق الطوسى رضى الله عنه قال :

(التقوى : ألا تمد عينيك إلى زهرة الدنيا ولا تتفكر بقلبك فيها)(٣) .

٧ — تعريف الامام الغزالى — رضى الله عنه — الذى أورده عن شيوخ الصوفية رضوان الله عليهم أجمعين وهو : —

(التقوى هو تنزية القلب عن ذنب لم يسبق عنك مثله ، حتى تحصل لك من قوة العزم على تركها(٤) وقاية بينك وبين المعاصى)(٥) .

وقد رجح حجة الاسلام هذا التعريف للتقوى على غيره فى تعليقه عليه باستدلال قرآنى رائع بقوله : —

(فهذه هى الحقيقة فى التقوى دون الأولين(٦) ، ألا ترى أن الله تعالى :

---

(١) أنظر نفس المصدر ٢٧٨/١ .

(٢) أنظر مفاتيح الغيب ١٦١/١ .

(٣) أنظر طبقات الصوفية للسلمى ص ٢٤١

(٤) أى على ترك الذنوب .

(٥) أنظر : سراج الطالبين شرح منهاج العابدين ٣٤٢/١

(٦) أى دون تعريفها بالخشية وبالطاعة .

يقول : (ومن يطع الله ورسوله ويخش الله ويتقه فأولئك هم الفائزون)[١] .

ذكر الطاعة والخشية ، ثم ذكر التقوى . فعلمت أن حقيقة التقوى معنى سوى الطاعة والخشية ، وهى : تنزيه القلب عما ذكرناه)[٢] .

إنها الروعة الاستنباط وعظمة التفهم لكتاب الله عز وجل !!

٨ — تعريف الامام أبى السعود "تمادى للتقوى — فى تفسيره — بقوله:

(والتقوى فى عرف الشرع : عبارة عن كمال التوقى عما يضره فى الآخرة)[٣] .

وقد تبعه فيه الامام الألوسى :

الاتجاه الثانى فى تعريف التقوى :

تعريفها بالجانب الايجابى ، وهو جانب الايجاد والفعل ، وإذا كان الاتجاه الأول يظاهره دلالة الأصل اللغوى لمادة الوقاية ، فإن هذا الاتجاه يؤيده صياغة (الافتعال) من المادة والعدول به عن صياغة (الفعل) وذلك: لأن الافتعال له معان منها الايجاد ، قال اللغويون : ومنه : اتقى[٤] :

وفى هذا الاتجاه نجد جملة من التعاريف من بينها :

١ — تعريف سيدنا عبد الله بن عباس رضى الله عنهما — الذى رواه عنه الشعبى — وهو :

---

(١) سورة النور ٥٢ م

(٢) أنظر : سراج الطالبين ١/٣٤٦ - ٣٤٧

(٣) أنظر تفسير أبى السعود ١/٢٢

(٤) أنظر حاشية الشهاب على البيضاوى ١/١٩٧

(التقوى: كرم الخلق وطيب المطعم)(١).

٢ — تعريف الضحاك بن مزاحم — الذى أورده عنه الطبرى — من قوله: (والتقوى: عمل بطاعة الله)(٢).

٣ — تعريف الواقدى ـ الذى أورده عنه الفخر فى تفسيره ـ وهو: (التقوى: أن تزين سرك للحق كما زينت ظاهرك للخلق)(٣).

٤ — تعريف الامام سهل بن عبد الله التسترى ـ رضى الله عنه ـ وهو: (التقوى: مشاهدة الأحوال على قدم الانفراد).

قال صاحب (التعرف): معناه: أن يتقى عما سوى الله: مسكونا إليه واستجلاء له»(٤).

الاتجاه الثالث:

تعريف التقوى بالجانبين — السلبى والايجابى ـ معا: —

وهو متجه الكثير من المفسرين والعلماء، لاشتماله على التخلية والتحلية فى إطار معرف واحد، ولذا نجد كثرة وافرة من التعاريف المندرجة تحت هذا الاتجاه:

---

(١) أنظر طبقات الصوفية لأبى عبد الرحمن السلمى ص ١٠٨
(٢) أنظر جامع البيان ٢/٢٨١ ط الحلبى.
(٣) أنظر: مفاتيح الغيب ١/١٦٣.
(٤) أنظر: التعرف لمذهب أهل التصوف بتحقيق الدكتور عبد الحليم محمود والشيخ طه عبد الباقى ص ٩٨.

١ — فالحقيقة الشرعية للتقوى عند سيدنا عبد الله بن عباس - رضى الله عنهما - هى :

(الحذر من الله وعقوبته فى ترك ماعرف من الهدى ، والرجاء لرحمته فى التصديق بما جاء به)(١) .

٢ — وعند سيدنا عبد الله بن مسعود - رضى الله عنه - هى :-

(أن يطاع الله فلا يعصى ، وأن يذكر فلا ينسى ، وأن يشكر فلا يكفر)(٢) .

٣ — وعند سيدنا الحسن البصرى - رضى الله عنه - هى :-

(أن لا تختار على الله سوى الله ، وتعلم أن الأمور كلها بيد الله)(٣) .

٤ — وعند سيدنا عمر بن عبد العزيز - رضى الله عنه - هى :-

(ترك ما حرم الله تعالى وأداء ما فرض الله سبحانه)(٤) .

٥ — وعند طلق بن حبيب - رضى الله عنه - هى :-

---

(١) أنظر : تفسير الطبرى ١/٩٩ ط الحلبى والدر المنثور للسيوطى ١/٢٤ وجامع العلوم والحكم لابن رجب /١٤٩ .

(٢) رواه ابن كثير موقوفا - وصحح إسناده - ثم رواه مرفوعا إلى النبى ﷺ : وخرجه عز الحاكم فى مستدركه الذى صححه على شرط الشيخين . أنظر تفسير ابن كثير ١ /٧١-٧٢ .

(٣) أنظر : مفاتيح الغيب ١ /١٦١ .

(٤) أنظر تفسير أبى السعود ١/٢٢ :

(العمل بطاعة الله على نور من الله رجاء رحمة الله ، وترك معاصى الله على نور من الله مخافة عذاب الله)(١) .

٦ — وعند الإمام الجنيد — رضى الله عنه — هى :

(أن لا يراك الله حيث نهاك ولا يفقدك حيث أمرك)(٢) .

٧ — وعند الإمام سهل بن عبد الله التسترى ـ رضى الله عنه ـ هى :

(التبرؤ من دعوى الحول والقوة دون الله تعالى ، والرجوع إلى اللجأ والافتقار إلى حول الله تعالى وقوته)(٣) .

٨ — وعند الإمام شهاب الدين أبى عبد الله عمر السهروردى — رضى الله عنه ـ هى :

(الاحتماء عن مساخط المولى ، والتحرز عن المخاوف ، والتشمير للوظائف)(٤) .

وقد أردف ـ رضوان الله عليه ـ هذا التعريف بشرح حقيقة التقوى قائلا :

(.. فالتقوى : حفظ النفس عما يؤثمها .

---

(١) انظر : تفسير ابن كثير ١/١١٩ والدر المنثور ١/٢٤ (واللفظ له مخرجا عن ابن أبى حاتم وغيره) .

(٢) انظر نتائج الأفكار القدسية فى بيان معانى شرح الرسالة القشيرية ٢/١٤٨

(٣) انظر : تفسير الإمام سهل التسترى ص ٨ ط الحلبى ، وتفسير أبى السعود ١/٢٢

(٤) انظر : (جذب القلوب إلى مواصلة المحبوب) للإمام السهروردى ص ١٢ ط : حلب وانظر توثيق نسبته له فى فهرس الخزانة التيمورية ٣/١٤٧

ثم اتفق العلماء على أن التقوى هو : الاقتداء برسول الله ﷺ : قولا وفعلا ، ظاهراً وباطنا ، فالقول : التمسك بأقواله والفعل . متابعته فى أفعاله والظاهر : محافظة الحدود ، والباطن : الخوف والاخلاص) اهـ .

أجل : هذا هو فصل الخطاب فى شرح مضمون التقوى فى الشرع : الاقتداء التام بسيد المرسلين سيدنا محمد ﷺ والتزام منهاجه الوضاء ظاهرا وباطنا فى جميع ما جاءنا عن ربه عز وجل .

٩ — ثم نجد — فى هذا الإتجاه أيضا — الإمام فخر الدين الرازى — رضى الله عنه — يعرف بحقيقة التقوى فى تفسيره قائلا : — (والتقوى فى عرف الشرع والقرآن : عبارة عن : فعل الواجبات ، وترك المحظورات)(١) .

وعلى هذا أيضا : درج كثير من العلماء فى تبيان مضمون التقوى بأنه امتثال أوامر الله تعالى واجتناب نواهيه سبحانه(٢) ، والمحققون منهم : على شمول الأوامر لجميع المندوبات والقربات وعلى شمول المنهيات لجميع الصغائر

---

(١) انظر مفاتيح الغيب ١٦٩/٢

(٢) انظر تفسير ابن عطيه ١٤٤/١ وحاشية الجمل على الجلالين ١١/١ — ١٢ وشرح الشبراوى على الأربعين النووية ص ٧١ وقد أكد ابن رجب الحنبلى هذا الإتجاه بأنه هو الحقيقة وأن العدول عنه إلى الاقتصار على الجانب السلبى انما هو من قبيل التغليب فقال فى جامع العلوم والحكم (ص ١٥٠) : (وقد يغلب استعمال التقوى على اجتناب المحرمات كما قال أبو هريرة — وسئل عن التقوى — فقال : (هل أخذت طريقا ذا شوك ؟ قال : نعم . قال فكيف صنعت ؟ قال : إذا رأيت الشوك عزلت عنه أو جاوزته أو قصرت عنه ، قال : ذاك التقوى) اهـ .

والمكروهات(١) وبعد تبيان هذه الاتجاهات الثلاثة فى تعريف التقوى — فى الشرع — نستطيع أن نتبين — بجلاء — : إنسحاب المدلول اللغوي للتقوى وهو الحفظ والصيانة — واستبطانه فى جميع التعاريف الاصطلاحية والشرعية، إذ مؤداها جميعاً، ماحققه الراغب من: جعل النفس فى وقاية مما يخاف.

كذلك: نتحقق — بجلاء — من أن الدعامة الرئيسية التى تقوم عليها التقوى الشرعية إنما هى: الخوف من الله تعالى، لذاته أو لعقابه، فخوف الغضب أو العذاب هو الدافع إلى فرط الصيانة من موجباته من فعل أو ترك، ومن ثم: يفرغ التقى وسعه وجهده فى الاحتماء من مساخط المولى عز وجل ونحوها . والتشمر لوظائف العبادة والعبودية والعبودة لله تعالى حيث يجد العبد ذاتيته الربانية فى التخلى عما يشغل عن الله عز وجل والتحلى بصحبة الحق تعالى على قدم الاقتداء بسيد العالمين صلوات الله وسلامه عليه وآله وصحبه أجمعين.

منزلة التقوى من الدين:

و: من المنطلق القرآنى والبيان المحمدى نتعرف: منزلة التقوى من الدين(٢): من آى التنزيل نستطلع شرف مكانة التقوى فى إطار الدين الشامل.

إنها الأصل الأصيل لقواعد الدين والجامع الشامل لأركانه وشعابه وفروعه ثم هى الثمرة اليانعة التى تحتل ذروة شجرة الإسلام، هى الماء السارى بالحياة فى أصل الشجرة والمتدفق فى عروقها والصاعد إلى ذروتها فى عنان السماء.

---

(١) انظر حاشية السيد الشريف الجرجانى على الكشاف (١/١٢٠) وانظر: روح المعانى للإمام الآلوسى ١/١٠٨ وحاشية الشهاب على البيضاوى ١/١٩٨

(٢) سنتعرف المزيد عن منزلة التقوى لدى الوقوف على ثمارها عبر السطور القادمة.

من ثم كانت التقوى هى وصية رب العالمين للأولين والآخرين ؛ قال تعالى :

(ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم وإياكم أن اتقوا الله)(١).

وهى صنو التوحيد فى رسالة الله ووحيه الذى نزل به ملائكته على رسله ليبلغوها للناس . قال تعالى :

(ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده أن أنذروا أنه لا إله إلا أنا فاتقون)(٢) قال القاضى البيضاوى فى تفسيرها : (والآية تدل على نزول الوحى بواسطة الملائكة وأن حاصله : التنبيه على التوحيد الذى هو منتهى كمال القوة العلمية والأمر بالتقوى الذى هو أقصى كمالات القوة العملية)(٣) اهـ

ومن ثم أمر الحق تعالى عباده بالتقوى فى أكثر من ثمانين موطنا فى التنزيل(٤) .

وقد جعل سبحانه (التقوى) هى غاية العبـــادة بأسرها إذ قال عز من قائل :

---

(١) سورة النساء / ١٣١ م

(٢) سورة النحل / ٢ ك

(٣) انظر أنوار التنزيل ٤٥٢/١

(٤) ورد الأمر بصيغة (اتق) ثلاث مرات وبصيغة (اتقين) مرة وبصيغة (اتقوا) فى تسع وستين مره وبصيغة (فليتقوا) مرة ، وبصيغة (اتقون) خمس مرات وبصيغة (اتقوه) أربع مرات ، وبصيغة (قوا) مرة واحدة ، جملتها : أربع وثمانون مرة والإحصاء من المعجم المفهرس ص ٧٥٨ — ٧٦٠

(يا أيها الناس أعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون)(١) .

قال العلامة البيضاوى فى تفسيرها : (نبه به : على أن التقوى منتهى درجات السالكين وهو : التبرى من كل شىء سوى الله تعالى إلا الله)(٢) .

وناهيك بحديث النبى ﷺ الذى رواه الإمام أحمد — بسنده — عن أبى سعيد الخدرى — رضى الله عنه — : أن رجلا جاءه فقال : أوصنى . فقال : سألت عما سألت عنه رسول الله ﷺ من قبلك(٣) : أوصيك بتقوى الله فإنه رأس كل شىء وعليك بالجهاد فإنه رهبانية الإسلام ، وعليك بذكر الله وتلاوة القرآن ؛ فإنه روحك فى السماء وذكرك فى الأرض)(٤) صدقت يا سيدى يا رسول الله وأعظمت النصيحة ، صلى الله عليك وآلك وصحبك وورثتك وسلم عدد كمالاتك الحسنى وكفاء ما أسديت من فضل للعالمين .

ثم : لقد جسد لنا الصادق المصدوق صلى الله عليه وسلم منزلة التقوى فى حديث آخر مروى عن أبى سعيد الخدرى — رضى الله عنه — بلفظ :

---

(١) سورة البقرة /٢١ م .

(٢) انظر أنوار التنزيل ١/٣٠

(٣) قال الحافظ ابن رجب الحنبلى فى (جامع العلوم والحكم ص ١٥٠) (وخرج الإمام أحمد من حديث أبى سعيد الخدرى : قال : (قلت يا رسول الله أوصنى ، قال : أوصيك . .)

(٤) انظر المسند ٣/٨٢

(عليك بتقوى الله فإنها جماع كل خير ..)(١) قال الحافظ المناوى فى شرحه : (أى أنها — وإن قل لفظها — كلمة جامعة لحقوق الحق وحقوق الخلق)(٢) اهـ .

وأخرج الترمذى عن يزيد بن سلمة الجعفى أنه قال : يا رسول الله ، إنى قد سمعت منك حديثاً كثيراً أخاف أن ينسينى أوله آخره فحدثنى بكلمة تكون جماعاً : قال : — (اتق الله فيما تعلم)(٣) .

ومن ثم كانت التقوى — لأنها رأس الدين وجماع أصوله وآدابه — هى وصية سلفنا الصالح - رضوان الله عليهم أجمعين - فكان سيدنا أبو بكر الصديق - رضى الله عنه - يقول فى خطبته (.. أما بعد : فإنى أوصيكم بتقوى الله وأن تثنوا عليه بما هو أهله ، وأن تخلطوا الرغبة بالرهبة وتجمعوا الإلحاف بالمسألة فإن الله عز وجل أثنى على زكريا وأهل بيته فقال : « إنهم كانوا يسارعون فى الخيرات ويدعوننا رغباً ورهباً وكانوا لنا خاشعين » . (٤))(٥) .

وكتب سيدنا عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - إلى ابنه سيدنا عبد الله : (أما بعد : فإنى أوصيك بتقوى الله عز وجل ، فإنه من اتقاه

---

(١) خرجه الحافظ السيوطى - من مسند أبى يعلى - عن أبى سعيد انظر التخريج فى فيض القدير شرح الجامع الصغير ٤/٣٣٢ كما أخرجه الامام القشيرى فى الرسالة القشيرية (١/٢٧٧) بسنده المتصل .

(٢) نفس المصدر الأسبق .

(٣) انظر سنن الترمذى : كتاب العلم ٥/٤٩

(٤) سورة الأنبياء /٩٠ ك .

(٥) انظر جامع العلوم والحكم ص ١٥٠ - ١٥١ ط الحلبى .

وقاه ، ومن أقرضه جزاه ، ومن شكره زاده ، وجعل التقوى نصب عينيك وجلاء قلبك .)(١)

واستعمل سيدنا على بن طالب - كرم الله وجهه ورضى عنه - رجلا على سرية فقال له . (أوصيك بتقوى الله عز وجل الذى لا بد لك من لقاه ، ولا منتهى لك دونه : وهو يملك الدنيا والآخرة)(٢) .

لقد أوصى أئمة سلفنا الصالح - رضى الله عنهم أجمعين وجمعنا بهم فى عليين - بالتقوى من منطلق عرفانهم لمنزلتها فى كتاب الله تعالى ، فهى : خير الزاد للمعاد ، قال تعالى : (وتزودوا فإن خير الزاد التقوى واتقون ياأولى الألباب)(٣) .

وهى خير لباس ، لقوله تعالى : (ولباس التقوى ذلك خير ذلك من آيات الله لعلهم يذكرون)(٤) .

ثم هى مناط التفاضل فى المنزلة عند الله تعالى : (إن أكرمكم عند الله اتقاكم)(٥) وفيما يلى من مباحث التقوى : مزيد تعرف على شرف منزلتها فى الإسلام وعظمة مكانتها فى القرآن الكريم

---

(١) نفس المرجع .

(٢) نفس المرجع .

(٣) سورة البقرة /١٩٧ .

(٤) سورة الأعراف /٢٦ ك .

(٥) سورة الحجرات ١٣ م

مراتب التقوى ودرجاتها :ـ

عنى أئمة المفسرين لآى التنزيل ، الفاقهين عن الله تعالى بتبيان مراتب التقوى وشرح منازلها ودرجاتها من منطلق فهمهم لحقيقتها وبصرهم بمرامى التنزيل فى تجسيد مراقيها فى معارج الكمال ومدارج الفلاح التى تكفل التنزيل بإبرازها ليهتدى إليها أولوا البصائر والألباب ممن حظوا بشرف الخطاب من لدن قدس الجناب : (واتقون يا أولى الألباب)(١)، (فاتقوا الله يا أولى الألباب الذين آمنوا قد أنزل الله إليكم ذكراً)(٢) .

لقد أبرز الإمام البيضاوى ـ قدس الله سره ـ بثاقب عرفانه القرآنى مراتب التقوى لدى بيان مدلول (المتقى) عند تفسير قوله تعالى (هدى للمتقين) فقال :ـ

(وهو ـ فى عرف الشرع ـ اسم لمن يقى نفسه مما يضره فى الآخرة ، وله ثلاث مراتب :

الأولى : التوقى من العذاب المخلد ، بالتبرى من الشرك ، وعليه قوله تعالى : (وألزمهم كلمة التقوى)(٣) .

والثانية : التجنب عن كل ما يؤثم من فعل أو ترك . حتى الصغائر عند قوم ، وهو المتعارف باسم التقوى فى الشرع . والمعنى بقوله تعالى : (ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا ...)(٤) .

---

(١) سورة البقرة /١٩٧ م
(٢) سورة الطلاق / ١٠ م
(٣) سورة الفتح / ٢٦ م
(٤) سورة الأعراف /٩٦ ك

الثالثة : أن يتنزه عما يشغل سره عن الحق (سبحانه وتعالى)(١) ويتبتل إليه بشراشره(٢)، وهو التقوى الحقيقى المطلوب بقوله : (اتقوا الله حق تقاته)(٣) . وقد فسر قوله « هدى للمتقين » ههنا على الأوجه الثلاثة)(٤)اهـ

وقد أخذ العلامة أبو السعود — فى تفسيره — هذه المراتب برمتها من من شيخه البيضاوى وعلق على أعلاها بساطع بيانه المشرق المنبىء عن مشاركته لشيخه فى مذاقه الصوفى النورانى الرفيع فقال :

(ولهذه المرتبة عرض عريض يتفاوت فيه طبقات أصحابها حسب تفاوت درجات إستعداداتهم الفائضة عليهم بموجب المشيئة الإلهية المبنية على الحكم الأبية أقصاها : ما إنتهى إليه هم الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - حيث جمعوا بين رياستى النبوة والولاية ، وما عاقهم التعلق بعالم الأشباح عن العروج إلى معالم الأرواح ، ولم يصدهم الملابسة بمصالح الخلق عن الاستغراق فى شئون الحق ، لكمال إستعداد نفوسهم الزكية المؤيده بالقوة القدسية .

وهداية الكتاب المبين : شاملة لأرباب هذه المراتب أجمعين)(٥) اهـ

ونجد فى رسالة الإمام الجليل أبى القاسم القشيرى — رضى الله تعالى عنه — إشراقا فيضيا يبين عن نسبة مراتب التقوى لأهلها فيقول — قدس الله سره :

---

(١) مضافة منى للتنزية ولبيان أنه تعالى هو المراد بالحق .

(٢) الشراشر فى الأصل : الأثقال ، والمراد بها : النفس ، والمعنى: ينقطع إليه بكليته ونفسه . (أنظر حاشية الشهاب ١٩٨/١) .

(٣) سورة آل عمران / ١٠٢م

(٤) أنظر أنوار التنزيل ١ /١٣

(٥) أنظر : إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم ١ / ٢٢

التقوى على وجوه :

للعامة ، تقوى الشرك ، وللخاصة : تقوى المعاصى ، وللاولياء : تقوى التوسل بالأفعال ، وللأنبياء · تقوى نسبة الأفعال ، إذ : تقواهم منه إليه)(١) ! !

وللامام الغزالى — قدس الله سره — تصنيف آخر لمنازل التقوى — نقله عن شيوخه — فى « منهاج العابدين » فقال :

(ثم قالوا — رحمهم الله — منازل التقوى ثلاثة :

تقوى عن الشرك ، وتقوى عن البدعة ، وتقوى عن المعاصى الفرعية .

ولقد ذكرها الله سبحانه وتعالى فى آية واحدة ، وهى قوله — جل من قائل :

(ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا إذا ما اتقوا وآمنوا وعملوا الصالحات ، ثم إتقوا وآمنوا ثم اتقوا وأحسنوا)(٢) .

فالتقوى الأولى : تقوى عن الشرك . والإيمان الذى فى مقابلتها : التوحيد .

والتقوى الثانية : عن البدعة . والإيمان الذى ذكر معها : إقرار عقود السنة والجماعة .

والتقوى الثالثة : عن المعاصى الفرعية — ولا إقرار فى هذه المنزلة — فقابلها بالإحسان ، وهو الطاعة والاستقامة عليها ، فتكون منزلة مستقيمى الطاعة ، فالآية جمعت ذكر المنازل الثلاث : منزلة الإيمان . ومنزلة السنة ،

---

(١) أنظر الرسالة القشيرية ١/٢٨٢

(٢) سورة المائدة / ٩٣ م

منزلة : إستقامة الطاعة ، فهذا ما قاله العلماء رحمهم الله فى بيان معنى التقوى)(١) .

ثم نجد منهاجا رابعاً — فى تصنيف مراتب التقوى فى التنزيل - يضيفه الإمام العارف سيدى أحمد بن عجيبة الحسنى — رضى الله عنه — فى تفسيره الفريد : (البحر المديد فى تفسير القرآن المجيد) فيقول عليه سحائب الرضوان :

والمتقى : من جعل بينه وبين مقت الله وقاية ، وله ثلاث درجات :

— حفظ الجوارح من المخالفات .

— وحفظ القلوب من المساوىء والهفوات .

— وحفظ السرائر من الوقوف مع المحسوسات .

فالأولى : لمقام الإسلام ، وإليه توجـــه الخطاب : (فاتقوا الله ما استطعتم)(٢) .

والثانية : لمقام الإيمان، وإليه توجه الخطاب بقوله : (فاتقوا الله يا أولى الألباب)(٣) .

والثالثة : لمقام الإحسان ، وإليه توجه الخطاب بقوله : (اتقوا الله حق تقاته) اهـ(٤)(٥) .

---

(١) أنظر (سراج الطالبين : شرح منهاج العابدين الى جنة رب العالمين) للشيخ احسان محمد دحلان ١/ ٣٤٧— ٣٤٩ط الحلبي

(٢) سورة التغابن /١٦ م

(٣) سورة الطلاق /١٠م

(٤) سورة آل عمران / ١٠٢م

(٥) أنظر تفسير البحر المديد : الجزء المنشور بمجلة لواء الإسلام (العدد الخامس من السنة الثانية والثلاثين) ص ٨— ٩

ولقد أوضح الإمام ابن عجيبة المقامات الثلاثة فى تفسيره لقوله تعالى : (ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا إذا ما اتقوا وآمنوا وعملوا الصالحات ثم اتقوا وآمنوا ثم اتقوا وأحسنوا والله يحب المحسنين)(١) فى تفسيره الاشارى الوضاء فقال :

(المقامات التى يقطعها المريد ثلاث: مقام الإسلام ومقام الإيمان ومقام الإحسان فمادام المريد مشتغلا بالعمل الظاهر من صلاة وصيام وذكر اللسان . سمى مقام الإسلام . فإذا انتقل إلى العمل الباطن من تخلية وتحلية وتهذيب وتصفية : سمى مقام الإيمان فإذا انتقل من الباطن .. (إلى عمل الروح(٢)) من فكرة ونظرة وشهود وعيان : سمى مقام الإحسان .

وهذا اصطلاح الصوفية : سموا مايتعلق بإصلاح الظواهر : إسلاما .

ومايتعلق بإصلاح القلوب والضمائر : إيمانا .

ومايتعلق بإصلاح الأرواح والسرائر : إحسانا(٣) .

ومن ثم يتضح لنا أن إطار التقوى شامل لجميع جوانب الدين ، وأن مراتب التقوى - وفقا للمنهج الأخير خاصة - هى نفسها مراتب الدين التى وردت فى حديث جبريل عليه السلام وهى الإسلام والإيمان والإحسان .

ومما يؤكد صدق هذا المنهج وسداده : اقتران التقوى - بمرتبتها العليا -

---

(١) سورة المائدة / ٩٣ م

(٢) مابين المعقوفتين إضافة مستوحاة من سياق النص كما سيتضح فى الفقرات التالية ، حيث يوجد تحريف بالنسخ صورته (فإذا انتقل العمل باطن من فكرة) .

(٣) أنظر : البحر المديد فى تفسير القرآن المجيد للإمام أحمد بن عجيبة ٢١٩٢/ ط الأولى سنة ١٣٧٦ هـ

بالإحسان فى أكثر من موضع فى التنزيل، كما فى قوله تعالى: (إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون(١)). قال الإمام الآلوسى - قدس الله سره - فى تفسيرها:

(.. والمراد بالمعية: الولاية الدائمة التى لايحول حول صاحبها شىء من الجزع والحزن وضيق الصدر، ومايشعر به دخول كلمة (مع) من متبوعية المتقين من حيث أنهم المباشرون للتقوى والمراد بها هنا: أعلا مراتبها؛ أعنى: التنزه عن كل مايشغل السر عن الحق سبحانه والتبتل إليه تعالى بالكلية، لأن ذلك هو المورث لولايته عز وجل المقرونة ببشارة: «ألا إن أولياء الله لاخوف عليهم ولا هم يحزنون»، والمعنى: أن الله تعالى ولى الذين تبتلوا إليه سبحانه بالكلية وتنزهوا عن كل مايشغل سرهم عنه عز وجل، فلم يخطر ببالهم شىء من مطلوب أو محذور فضلا عن الحزن عليه فواتا أو وقوعا..)(٢). ثم يقول قدس الله سره.

(وقد نبه سبحانه على أن كلا من الصبر والتقوى من قبيل الإحسان بقوله تعالى: «إنه من يتق ويصبر فإن الله لايضيع أجر المحسنين»(٣) وحقيقة الإحسان: الإتيان بالأعمال على الوجه اللائق. وقد فسره ﷺ بأن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك(٤). اهـ)(٥). من ثم تمثل عليا مراتب التقوى مقام الإحسان.

(١) سورة النحل / ١٢٨ ك
(٢) أنظر روح المعانى ٢٥٩/١٤
(٣) سورة (يوسف)/ ٩٠ك
(٤) من حديث سؤال جبريل للنبى ﷺ عن أمور الدين الثلاثة. أنظر صحيح البخارى ١٢/١
(٥) أنظر روح المعانى ٢٥٩/١٤

ولله در الإمام العارف أبي القاسم القشيري رضى الله عنه إذ قال فى تفسير قوله تعالى : (يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة ..)[١] .

(.. التقوى : جماع الطاعات . وأوله : اتقاء الشرك ، وآخره : اتقاء كل غير ، وأول الأغيار : نفسك ، ومن اتقى نفسه : وقف مع الله بلا مقام ولا شهود حال ووقف لله ، لا لشهود حظ فى الدنيا والعقبى)[٢] أجل : لقد فنوا فى شهود الحق تعالى عن شهود ماسواه !!

إنها درجات الصفوة الخاصة ممن اصطنعهم الحق تعالى لنفسه وآثرهم بقربه واجتلاء أسرار حقائق حضرة قدسه ، إنهم أولوا الدرجات العلى أهل التقى والتزكية والفلاح جعلنا الله تعالى فيهم ومنهم ومعهم فى الدنيا والآخرة .

ثم بعد الوقوف على مراقب التقوى ودرجاتها نقف على :

جوانب التقوى وشعابها :

لقد بين لنا القرآن العظيم في العديد من آياته البينات جوانب التقوى وخصالها المتشعبة فى مختلف تلك الجوانب التى تشمل دوائر الإسلام والإيمان والاحسان .

ونستوضح ذلك جليا فى وصف الله تعالى للمتقين فى كتابه المبين . قال تعالى : (الم . ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين : الذين يؤمنون

---

(١) سورة النساء / ١م

(٢) أنظر لطائف الاشارات للإمام القشيرى ٢/٧

بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون ، والذين يؤمنون بما أنزل
إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون . أولئك على هدى من
ربهم وأولئك هم المفلحون)(١) .

لقد تضمنت هذه الأوصاف التي وصف الحق تعالى بها عباده المتقين
جوانب ثلاثة :

الجانب الأول : جانب العمل القلبي وهو الإيمان الذي هو أصل العبادة
وأساسها : إذ لا تتوقف صحتها عليه مع عدم انفكاكه عنها فقال تعالى : (الذين
يؤمنون بالغيب) والغيب في الآية الكريمة : صلة للإيمان(٢) وهو مصدر
واقع موقع المفعول به ، والمراد بالغيب المؤمن به ههنا : سائر أركان
الإيمان التي عرضنا لها تفصيلا في هذا الكتاب ، وهذا التفسير مأثور ،
إذ روى الإمام الواحدي — رحمه الله تعالى — في تفسيره عن أبي العالية
رضي الله عنه أنه قال في قوله تعالى : (يؤمنون بالغيب) — : يؤمنون بالله
وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وجنته وناره ولقائه وبالبعث بعد
الموت) — ثم عقب الامام الواحدي برؤيته التفسيرية الموضوعية قائلا :
(وكأن هذا إجمال ما فصل في قوله : « كل آمن بالله وملائكته .... »
الآية . .)(٣)

وعلى هذا : فقد تضمنت الصفة الأولى من صفات المتقين : الجانب
العقدي الإيماني بما يتضمنه من أركان وشعب .

---

(١) سورة البقرة / ١ — ٥ م

(٢) تطلق الصلة في اصطلاح النحاة على المفعول به بواسطة الحرف
كما هنا (انظر حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي ١/٢١٦) .

(٣) انظر تفسير البسيط للواحدي — مخطوط بدار الكتب — ١/٥٩

الجانب الثانى : جانب العمل البدنى، ويتمثل فى إقامة الصلاة التى هى عماد الدين كما ورد فى الحديث الشريف(١) ، وهى رأس العبادات البدنية لذا وليت الايمان فى صفات المتقين : (ويقيمون الصلاة) .

الجانب الثالث : جانب العمل المالى ؛ ويتمثل فى الزكاة التى هى رأس العبادات المالية وإنما عدل فى وصف المتقين عن التعبير بإيتاء الزكاة إلى قوله تعالى : (ومما رزقناهم ينفقون) : ليتناول الإنفاق مما رزقهم الله تعالى: صرف المال فى سبيل الخير من الفرض والنفل بل وليتناول الإنفاق من غير المال من سائر ما رزق به المتقون كالعلم ونحوه ، وفى عموم التعبير تخصيص للمتقين بالمقام الأسمى فى الطاعة لله سبحانه .

وبذا جمعت أوصاف المتقين فى أول سورة البقرة : جوانب العبادة — الثلاثة — لله سبحانه قال العلامة الطيبى — رحمه الله تعالى — :

« الأعمال إما قلبية — وأعظمها اعتقاد حقية التوحيد والنبوة والمعاد — إذ لولاه : كان كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء ، أو بدنية ، وأصلها : الصلاة ، لانها الفارقة بين الكفر والإسلام ، وهى عمود الدين والأم التى تتشعب منها سائر الخيرات والمبرات(٢) ، أو مالية ،

---

(١) خرجه الشهاب فى حاشيته (٢٠٨/١) عن البيهقى فى الشعب وعن الديلمى فى الفردوس بلفظ (الصلاة عماد الدين) ثم قال : وفى معناه :حديث الترمذى عن معاذ بن جبل رضى الله عنه : (رأس الأمر : الاسلام وعموده الصلاة) .

(٢) والصلاة — أيضا — مع استتباعها لسائر الطاعات فهى مستتبعة لتجنب المعاصى والمنكرات كما قال تعالى : (إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر) : سورة العنكبوت /٤٥ ك

وهى الإنفاق لوجه الله ، وهى التى إذا وجدت : علم الثبات عـلى الايمان »(١) اهـ .

ولننهل من هذا الفيض الربانى والإلهام التفسيرى الصوفى الإشارى المتناول لنعوت المتقين فى التنزيل يقول سيدى أحمد بن عجيبة قدس الله سره : —

(... ثم وصف المتقين الذين خصوا بهداية كتابه المبين بثلاثة أوصاف فقال : — (الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون) .

قلت : هذه الأوصاف تتضمن ثلاثة أعمال : — الأول : عمل قلبى — وهو الإيمان — والثانى : عمل بدنى — وهو الصلاة — والثالث : عمل مالى — وهو الإنفاق فى سبيل الله .

وهذه الأعمال : هى أساس التقوى التى تدور عليها :

أما العمل القلبى : فهو الإيمان أولا والمعرفة ثانيا(٢)، فمادام العبد محجوبا بشهود نفسه ، محصورا فى الأكوان وفى هيكل ذاته : فهو مؤمن بالغيب ، ويؤمن بوجود الحق تعالى وبما أخبر به من أمور الغيب ؛ يستدل بوجود

---

(١) انظر حاشية الشهاب على البيضاوى ٢٠٨/١

(٢) هنا يزاوج الإمام ابن عجيبة بين الإيمان والمعرفة ليختص الايمان بالجانب الغيبى ، والمعرفة بالجانب الشهودى الذى هو عين مقام الإحسان وبانضمام العملين البدنى والمالى إليهما تشتمل التقوى على مقامات الدين الثلاثة : الإسلام والإيمان والإحسان .

أثره عليه (١) فإذا فنى عن نفسه وتلطفت دائرة حسه ، وخرجت فكرته عن دائرة الأكوان : أفضى إلى الشهود والعيان ، فصار الغيب عنده شهادة، والملك ملكوتا والمستقبل حالا والآتى واقعاً ، وقد قلت فى ذلك :

فلا ترضى بغير الله حبا   وكن أبدا بعشق واشتياق
ترى الأمر المغيب ذا عيان   وتحظى بالوصول وبالتلاقى

وفى الحكم العطائية : « لو أشرق نور اليقين فى قلبك لرأيت الآخرة أقرب من أن ترحل إليها ، ولرأيت بهجة الدنيا كسوة الفناء بادية عليها » .

وقال فى التنوير : « ولو أنهكت حجاب الوهم : لوقع العيان على فقد الأعيان ولأشرق نور الإيقان فغطى وجود الأكوان » .

وإنما اقتصر الحق تعالى على الإيمان بالغيب : لأنه هو المكلف به ، إذ هو الذى يطيقه جل العباد ، بخلاف المعرفة الخاصة ، فلا يطيقها إلا الخصوص ، والله تعالى أعلم)(٢) اهـ .

ونقرأ تجسيدا آخر لجوانب التقوى وشعابها فى قوله تعالى : —

(ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر : من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين ، وآتى المال — على حبه — ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب

---

(١) أى يستدل على الله تعالى بآثاره ، وهى مرتبة دنية عند العارفين ، فهم يعرفون الله بالله لا بما سواه !!

(٢) انظر البحر المديد للإمام ابن عجيبة : (السلسلة المنشورة بمجلة لواء الإسلام — العدد الخامس من السنة الثانية والثلاثين — جمادى الأولى سنة ١٣٩٨ هـ) .

وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس ، أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون)(١) .

لقد استجمعت هذه الآية الكريمة بجامع الكمالات الإنسانية التى يحتويها إطار التقوى ومن ثم ختمت بحصر التقوى فيمن تحقق بها(٢) ،ففى الآية الكريمة مقياس حصرى للتقوى كما أن فيها مقياسا حصريا للإيمان : (أولئك الذين صدقوا) بيد أن الجملة الحصرية للتقوى فيها مزيد تأكيد للحصر بضمير الفصل - فضلا عن تعريف الطرفين . وذلك أمعن فى الدلالة على تحقق المنعوتين بهذه الأوصاف بالتقوى الجامعة .

فلقد تضمنت الآية الكريمة سبع عشرة خصلة يجمعها إطار (البر) الذى هو اسم جامع لأنواع الخير والطاعات المقربة إلى الله عز وجل ، ويجمعها — من المنطلق ذاته — إطار التقوى ، لتلاقيهما فى المفهوم كما أكده قوله تعالى : (ولكن البر من اتقى ...)(٣) أى بر من اتقى المحارم والمآثم والمنهيات .

وتنقسم الخصال المحتواة فى إطار التقوى — فى الآية الكريمة — إلى ثلاثة جوانب رئيسية وهى :

الجانب الأول : جانب الكمالات الإنسانية المتعلقة بصحة الاعتقاد، وهو الإيمانى ويشمل : الإيمان بالله وباليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين .

---

(١) سورة البقرة / ١٧٧

(٢) وذلك حيث أفاد ضمير الفصل فى (وأولئك هم المتقون) قصر المسند - وهو « المتقون » - على المسند إليه - وهو اسم الاشارة .

(٣) سورة البقرة / ١٨٩ م .

وقد بدىء هذا الجانب بالمبدأ والمعاد اللذين هما المشرق والمغرب للوجود الإنسانى(١) .

الجانب الثانى : جانب الكمالات النفسية المتعلقة بحسن المعاشرة مع الخلق ويشمل هذا الجانب ست خصال ـ تلى الخمسة الأولى ـ وهى :

إيتاء المال — على حبه — : ذوى القربى ، واليتامى ، والمساكين ، وابن السبيل ، والسائلين وفى فك الرقاب والأسرى .

الجانب الثالث : جانب الكمالات الإنسانية المتعلقة بتهذيب النفس وتصفيتها .

ويشمل : ست خصال ، وهى :

إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ، والوفاء بالعهد الشامل لحقوق الحق تعالى وحقوق خلقه — والصبر فى البأساء — وهى البؤس والفقر — والصبر فى الضراء — وهى : السقم والألم — والصبر حين البأس ؛ أى : وقت القتال وجهاد العدو .

وقد وصف المستجمع لهذه الجوانب الثلاثة — بشعابها المتنوعة — بالصدق فى الدين واتباع الحق وطلب البر ، ثم وصف بالتقوى الشاملة لجوانب الدين الثلاثة : لحسن معاملته مع الحق تعالى ، وحسن معاشرته للخلق ، وحسن تهذيبه للنفس ترقيا فى مدارج الفوز والفلاح الأبدى(٢) .

---

(١) انظر : روح المعانى للإمام الآلوسى ٢/٤٨

(٢) انظر : أنوار التنزيل ١/٨٧ وإرشاد العقل السليم ١/١٥٠ وروح المعانى ٢/٤٨

ومن ثم قال أشرف العالمين سيدنا محمد ﷺ : (من عمل بهذه الآية فقد استكمل الإيمان(١)) .

ثم نتعرف المزيد من صفات المتقين وكمالاتهم النفسية والخلقية التى ارتقوا بها إلى مقام الإحسان ونالوا بها محبة الله عز وجل وفازوا بأجر العاملين : وذلك فى قوله عز من قائل : ـ

« وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين الذين ينفقون فى السراء والضراء ، والكاظمين الغيظ ، والعافين عن الناس والله يحب المحسنين . والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله ، ولم يصروا على مافعلوا وهم يعلمون ، أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم وجنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ونعم أجر العاملين ، قد خلت من قبلكم سنن فسيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين . هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين(٢) » .

لقد عرض الحق تعالى فى هذه الآية الكريمة لصنفين من المتقين وهما: المحسنون والعاملون فوصف الصنف الأول بثلاث صفات من كرائم صفات المتقين .

أولاها : الإنفاق فى السراء والضراء ـ أى فى اليسر والعسر كما روى عن الإمام ابن عباس رضى الله عنهما(٣) .

---

(١) خرجه الشهاب فى حاشيته : (٢ / ٢٧٢) عن ابن المنذر فى تفسيره عن أبى ميسرة .

(٢) سورة آل عمران / ١٣٣ - ١٣٨ م

(٣) انظر : روح المعانى ٤/٥٨

وثانيتها: كظم الغيظ، بمعنى: الكف عن إمضائه مع القدرة، وفى فضل هذه الخصلة أخرج عبد الرزاق وابن جرير عن أبى هريرة -رضى الله عنه- مرفوعا: (من كظم غيظا وهو يقدر على إنفاذه ملأ الله قلبه أمنا وإيمانا (١)).

وثالثتها: العفو عن الناس، أى: ترك عقوبة من استحق المؤاخذة مالم يكن فى ذلك إخلال بالدين، وفى فضل هذه الخصلة: أخرج الحاكم والطبرانى عن أبى بن كعب - رضى الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال: (من سره أن يشرف له البنيان وترفع له الدرجات: فليعف عمن ظلمه، ويعط من حرمه، ويصل من قطعه (٢)).

لقد استوجب المنعوتون بهذه الخلال الشريفة والنعوت الحميدة نوعين من الجزاء.

أولهما: ماصدرت به الآية الكريمة الأولى من مغفرة الله تعالى ومن نعيم لا يقدر قدره فى جنة عرضها السموات والأرض أعدها الله تعالى وهيأها للمتقين.

وثانيهما: ماختمت به الآية الكريمة الثانية من الوصول إلى مقام الإحسان الذى فسره مولانا المصطفى الأعظم ﷺ بقوله: (أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك (٣)).

ثم: ثبوت محبة الله تعالى لهم: (والله يحب المحسنين) وهذه المحبة مترتبة على الإحسان الذاتى - المبين فى الحديث الشريف وهو عبادة

---

(١) انظر الدر المنثور للإمام السيوطى ٢/٧٢ - ٧٣ وانظر روح المعانى للإمام الآلوسى ٤/٥٨

(٢) انظر المصدرين السابقين.

(٣) انظر: روح المعانى ٤/٥٩

الشهود والمراقبة ـ وعلى الإحسان الوصفى الذى هو عبارة عن : الإتيان بالأعمال على الوجه اللائق شرعا ، وأيضا على الإحسان بمعنى الإنعام ، لقد تحقق المتقون بهذه الصفات فاستوجبوا محبة الله تعالى .

وهذا نموذج حى للتقوى المجسدة فى ورثه النبى ﷺ من صفوة آل بيته الكرام رضى الله عنهم وعنا بهم وحشرنا فى زمرتهم وفى بعثهم المشرقة فى أعلا عليين : ـ

أخرج البيهقى بسنده(١) عن سيدنا على زين العابدين بن مولانا الامام الحسين رضى الله عنهما : أن جارية جعلت تسكب عليه الماء ليتهيأ للصلاة ، فسقط الإبريق من يدها على وجهه الشريف فشجه ، فرفع رأسه إليها ، فقالت إن الله يقول : (والكاظمين الغيظ) قال : قد كظمت غيظى . قالت . (والعافين عن الناس) قال : قد عفا الله تعالى عنك ، قالت : (والله يحب المحسنين) . قال : اذهبى فأنت حرة لوجه الله تعالى !! إنه الإحسان من معدن الفضل والاحسان .

وأما الصنف الثانى من المتقين ، وهم الدانون مرتبة عن المحسنين : فهم العاملون الذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ـ بما دون الفاحشة من الذنوب الصغائر ـ ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ـ بالندم والتوبة ـ ولم يصروا على ما اقترفوه من الذنوب حالة إستغفارهم وهم عالمون بقبحه .

أولئك المتصفون بهذه الصفات الحميدة جزاؤهم مغفرة من ربهم وجنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ، فضلاً عن امتداح الحق تعالى لهم بقوله سبحانه : (ونعم أجر العاملين) .

---

(١) انظر التخريج : فى الدر المنثور للإمام السيوطى ٢/٧٣ وفى المصدر السابق .

وفى هذا التفصيل القرآنى لبيان المتقين وصفاتهم نستوضح رتبتين - فى التقوى - بينهما فرق كبير وبون بعيد مع اشتراكهما فى الوصف العام بالتقوى ؛ يقول الإمام الآلوسى - رضى الله تعالى عنه - :

(وكفاك فى الفرق بين القبيلين - وهما : المتقون الذين أتوا بالواجبات بأسرها واجتنبوا المعاصى برمتها ، والمستغفرون لذنوبهم بعدما أذنبوا وارتكبوا الفواحش والظلم - : أنه تعالى فصل آية الأولين بقوله سبحانه وتعالى : (والله يحب المحسنين) المشعر بأنهم محسنون محبوبون عند الله تعالى ، وفصل آية الآخرين بقوله جل وعلا : (ونعم أجر العاملين) المشعر بأن هؤلاء أجراء ، وأنما أعطوا من الأجر جزاء لتداركهم بعض ما فوتوه على أنفسهم وأين هذا من ذاك ، وبعيد ما بين السمك والسماك (١)) !!

وعلى الرغم من تفاوت المنزلتين والفريقين فى الرتبة والفضل فلا ريب فى اشتراكهما معا فى استحقاق الثناء الجزيل ، والجزاء العظيم (كل على قدر منزلته) وإن تبيان فضل الأعلى منهما لا ينقص من المفضول حقه فذلك من باب (حسنات الأبرار سيئات المقربين) .

فالمرتبتان المذكورتان ههنا - وفقا لما مر بنا من تصنيف الإمام البيضاوى لمراتب التقوى - هما مرتبتا : تقوى خواص الخواص ، وتقوى الخواص ، وهذه المنزلة الثانية : - المتوسطة بين تقوى الشرك وتقوى ما يشغل عن الله تعالى - : ذكرت فى مواطن عديدة من التنزيل حاملة خصائصها وسماتها المحددة ، فمن ذلك قوله تعالى : (إن الذين اتقــوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون (٢))

---

(١) انظر روح المعانى ٤/٦٤

(٢) سورة الاعراف / ٢٠١ ك

ومنها قوله تعالى : (لكن الذين اتقوا ربهم لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها نزلا من عند الله وما عند الله خير للأبرار (١)) فالمراد بالتقوى هنا : الاتقاء عن الشرك والمعاصى لذكر المتقين فيه فى مقابلة الكفار المذكورين قبله (٢) .

وأما تقوى خواص الخواص - وهى تقوى المحسنين - فلها فى الذكر الحكيم آيات وآيات حافلة بمحامد الصفات ومجسدة لجوانب التقوى ومعالمها فى التنزيل . فمن ذلك قوله تعالى :

(قل أؤنبئكم بخير من ذلكم ؟ للذين اتقوا عند ربهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها وأزواج مطهرة ورضوان من الله والله بصير بالعباد : الذين يقولون ربنا إننا آمنا فاغفر لنا ذنوبنا وقنا عذاب النار : الصابرين ، والصادقين والقانتين والمنفقين والمستغفرين بالأسحار (٣))

لقد عرضت هذه الآيات الكريمات لسلوك الأتقياء الفائزين بالجنة ونعيمها وبما هو أسمى من ذلك وهو رضوان الله الأكبر ، وفيها تبرز معالم التقوى وخصائصها التى يرتفع العبد بها إلى سماء القرب والوصول .

فأول هذه المعالم : الايمان الذى توسل به المتقون إلى ربهم فى دعائهم لنيل مغفرته والوقاية من عذابه الذى يحجبهم عن شهود جنابه .

وثانيها : الصبر على طاعة الله تعالى والصبر عن محارمه .

وثالثها : الصدق فى النيات والأقوال والأفعال

---

(١) سورة آل عمران / ١٩٨ م

(٢) انظر روح المعانى ٤ / ١٧٢

(٣) سورة آل عمران / ١٥ - ١٧ م

ورابعها : القنوت وهو ملازمة الطاعة والعبادة والقيـــام بواجبات العبودية لله تعالى .

وخامسها : الانفاق فى سبيل الله تعالى من رزق الله سبحانه.

وسادسها : الصلاة والإستغفار بالأسحار تزلفا وتقربا للعزيز الغفار.

ولقد استوحى الإمام البيضاوى — رحمه الله تعالى — من هذا النص الكريم الذى تضمن معالم التقوى وأوصاف المتقين: حصر جوانب السلوك طريق الله تعالى. ومقامات السالكين فقال عليه الرضوان :

(.. والصابرين والصادقين والقانتين والمنفقين والمستغفرين بالأسحار):

حصر لمقامات السالك على أحسن ترتيب :

فإن معاملته مع الله تعالى : إما توسل وإما طلب .

والتوسل : إما بالنفس - وهو منعها عن الرذائل وحبسها على الفضائل - والصبر يشملهما .

وإما بالبدن : وهو إما قولى - وهو الصدق - وإما فعلى - وهو القنوت الذى هو ملازمة الطاعة .

وإما بالمـال ، وهو الانفاق فى سبل الخير .

وأما الطلب : فبالاستغفار، لأن المغفرة أعظم المطالب بل الجامع لها(١)

كذلك نجد العلامة البيضاوى يفسر التقوى المأمور بها فى قوله تعالى :

---

(١) أنظر أنوار التنزيل ١/١٣٢

(يا أيها الذين آمنوا أصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون)(١) بمرتبتيها : العليا والوسطى تفسيرا ينم عن نزعته الصوفية العرفانية ويشهد بعظمة تحققه وتذوقه واستغراقه فى أنوار التنزيل فيقول عليه الرضوان :

(.. « واتقوا الله لعلكم تفلحون » : فاتقوه بالتبرى عما سواه لكى تفلحوا غاية الفلاح . أو : واتقوا القبائح لعلكم تفلحون بنيل المقامات الثلاثة المترتبة التى هى : الصبر على مضض الطاعات ، ومصابرة النفس فى رفض العادات ، ومرابطة السر على جناب الحق لترصد الواردات المعبر عنها بالشريعة والطريقة والحقيقة(٢)) .

ثم عن صفات المتقين المحسنين وأحوالهم يحدثنا القرآن الكريم : (إن المتقين فى جنات وعيون آخذين ما آتاهم ربهم إنهم كانوا قبل ذلك محسنين(٣) كانوا قليلا من الليل ما يهجعون وبالأسحار هم يستغفرون . وفى أموالهم حق للسائل والمحروم(٤)) :

لقد أخبر القرآن الكريم عن المتقين بتحققهم بالإحسان الذاتى والصفاتى فى العبادة - كما مر بنا بيانه - ثم قص علينا طرفا من عبادتهم لمولاهم وأحوالهم فيها . فذكر أنهم كانوا يحيون الليل كله قياما واستغفارا لربهم(٥) .

---

(١) سورة آل عمران / ٢٠٠ م

(٢) أنظر أنوار التنزيل ١/١٧٢

(٣) يلاحظ اقتران التقوى بصفة الإحسان كقرينة مميزة للمقام الأسمى فى التقوى .

(٤) سورة الذاريات / ١٥ - ١٩ ك

(٥) ذكر الامام الآلوسى فى تفسير الآية الكريمة : أنه جوز أن تكون (ما) فى (كانوا قليلا من الليل ما يهجعون) : نافية و(قليلا) منصوب بيهجعون ، والمعنى : كانوا لا يهجعون من الليل قليلا ويحيونه كله ، وقد رواه ابن أبى شيبة وأبو نصر عن مجاهد (أنظر روح المعانى ٢٧/٨) .

ولقد كان هذا دأب صحابة النبي ﷺ أخرج الطبري بسنده في تفسيره عن سيدنا عبد الله بن عمر رضي الله عنه أنه كان يحيي الليل صلاة ثم يقول : يا نافع ، أسحرنا ؟ فيقول : لا . فيعاود الصلاة فإذا قال نعم : قعد يستغفر الله تعالى ويدعو حتى يصبح(١) !!

ثم لقد أخبر الحق تعالى عن المتقين بأنهم استوجبوا على أنفسهم نصيباً لله سبحانه في أموالهم تقربا إليه عز وجل وإشفاقا على الناس من سائلهم ومن تعفف عن المسألة . ثم نجد أيضاً : من أعظم شعاب التقوى وخصالها القلبية التي صرح بها القرآن الكريم :

تعظيم شعائر الله تعالى كما قال عز من قائل :(ذلك ومن يعظم شعائر الله فإنها من تقوى القلوب(٢)) .

وشعائر الله تعالى : هي : دين الله تعالى وأعلام دينه التي شرعها سبحانه لعباده(٣) من مناسك الحج ونحوها من كل مايشعر بمحبة الله تعالى وعبادته وتعظيمه . فمن هذا القبيل تعظيم القرآن الكريم وأهله وتعظيم النبي ﷺ - فإنه من رءوس شعب الإيمان - وكذلك تعظيم الكعبة والحرمين وفرائض الحج ومواضع نسكه وكذا البدن(٤) التي تهدى في الحج - باعتبارها من معالمه - إذ المقصود من شرعية إهدائها إنما هو تعظيم أمر الله تعالى والتقرب إليه كما قال عز من قائل : (لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم كذلك سخرها لكم لتكبروا الله على ماهداكم وبشر المحسنين(٥)) .

---

(١) أنظر جامع البيان م/١٠٨ (٢) سورة الحج/٣٢م

(٣) أنظر أنوار التنزيل ٢/٧٢ - ٧٣

(٤) البدن - بسكون الدال - جمع بدنه وهي : الإبل ، وقد سميت كذلك لعظم بدنها (أنظر نفس المصدر) .

(٥) سورة الحج /٣٧ م

ومما هو جدير بالالتفات حقا : ان نرى هذه الشعبة من شعب التقوى — وهى تعظيم شعائر الله — لها فى التنزيل هذه المكانة العظمى : (فإنها من تقوى القلوب) إذ لم تضف التقوى — فى القرآن الكريم — إلى محلها ومنشئها ومصدرها وهو القلب إلا فى هذا الموطن ، وماذاك إلا لمكانة تعظيم شعائر الله فى الدين : انه جوهر التقوى ومنشأ شعابها المختلفة ، ولا يتحقق بهذه الشعبة إلا من امتحن الله قلبه فأخلصه للتقوى وللتقوى امتحان يجتازه المؤمنون الصادقون ويحبط فيه عمل المخذولين المحرومين من استشراف الآفاق العليا للإيمان .

ومن شعائر الله التى يمتحن الله بها عباده المؤمنين ليخلص قلوب المصطفين منهم للتقوى :

تعظيم النبى ﷺ وتوقيره ومراعاة الأدب فى حقه الشريف وغض الصوت فى حضرته وعدم مخاطبته باسمه وكنيته كما يخاطب الناس بعضهم بعضاً : بل إذا كان العرف فى التعامل بين الناس أن يحترم بعضهم بعضا ويتخاطبوا بأشرف الألقاب فما بالك بأشرف الخلق ﷺ ؟؟ إنه امتحان المؤمنين فى تقوى القلوب ينبئ عليها علام الغيوب : (يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبى ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون . إن الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله أولئك هم الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى لهم مغفرة وأجر عظيم)(١) .

وفى تفسير هذا الامتحان يقول الإمام البيضاوى رضى الله عنه : — (جربها للتقوى ومرنها عليها أو عرفها كائنة للتقوى خالصة لها ، فإن الامتحان سبب المعرفة — واللام صلة محذوف أو للفعل باعتبار الأصل — أو :

---

(١) سورة الحجرات / ٢ - ٣م

ضرب الله قلوبهم بأنواع المحن والتكاليف الشاقة لأجل التقوى ، فإنها لا تظهر إلا بالإصطبار عليها ، أو : أخلصها للتقوى ، من امتحن الذهب إذا أذابه وبين إبريزه من خبثه)(١) وبعد اجتياز المتقين لامتحان التقوى وإخلاص قلوبهم بها لله تعالى : لهم من الله تعالى عظيم المغفرة وعظيم الأجر ، ومن هذا المنطلق نخلص إلى :

---

(١) انظر أنوار التنزيل ٢/٣٢٢

ثمار التقوى

أكرم الله تعالى عباده المتقين الذين اصطفاهم واجتباهم وأخلصهم لتقواه من صنوف الجزاء الأوفى مالا يقادر قدره ولا يحاط بمقداره إلا بما شاء من علمه لمن شاء من عباده . وقد سجل القرآن الكريم ألوانا من العطاء وأصنافا من ثمار الجزاء المعد للمتقين فى الدنيا وفى الآخرة . وسنقدم هنا من خلال التنزيل بعض ماأعده الحق تعالى للمتقين وما أكرمهم به من ثمار الجزاء .

١ — ولاية لله تعالى — الخاصة — للمتقين ، وهى قصر عليهم دون من سواهم من عامة المؤمنين قال تعالى : « والله ولى المتقين »(١) وقال عز من قائل : « إن أولياؤه إلا المتقون ولكن أكثرهم لايعلمون »(٢)

٢ ، ٣ ، ٤ — إنتفاء الخوف من لحوق مكروه وانتفاء الحزن لفوات مأمول ، وتحقق البشرى لهم فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ، كما قال جل شأنه

(الا أن أولياء الله لاخوف عليهم ولا هم يحزنون الذين آمنوا وكانوا يتقون لهم البشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة لاتبديل لكلمات الله ذلك هو الفوز العظيم)(٣)

وبشرى الأولياء المتقين فى الدنيا : هى مايبشرهم به سبحانه فى كتابه وعلى لسانه نبيه الأعظم صلى الله عليه وسلم ، ومايريهم من الرؤيات الصالحة وما يجرى على يديهم من الكرامات ومايسنح لهم من المكاشفات وماتبشرهم

---

(١) سورة الجاثية / ١٩ ك

(٢) سورة الأنفال / ٣٤ م

(٣) سورة (يونس) / ٦٢ - ٦٤

به الملائكة عند النزع من النعيم الأبدى .

٥ - العلم اللدنى الذى يعلمه الله تعالى لأحبابه وأصفيائه قال تعالى : (واتقوا الله ويعلمكم الله والله بكل شىء عليم)(١) وهو العلم الذى علمه الحق تعالى لعبده الصالح الخضر عليه السلام وسجله التنزيل فى قوله تعالى (فوجدا عبدا من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علما)(٢)

٦ - الفرقان : قال تعالى : (يا أيها الذين آمنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقانا ويكفر عنكم سيئاتكم ويغفر لكم والله ذو الفضل العظيم)(٣)

وهذا الفرقان هو : نور وهداية فى القلب يفرق به التقى بين الحق والباطل وذكر بعض المفسرين أنه : نصر يفرق بين الحق والمبطل بإعزاز المؤمنين ، وإذلال الكافرين . وقيل : هو مخرج للمتقين من الشبهات ، وقيل : هو نجاة مما يحذره المتقون فى الدارين وقيل . هو ظهور يشهر أمر المتقين ويبث صيتهم ، من قولهم : بت أفعل كذا حتى سطع الفرقان ، أى الصبح (٤)

وأقول : وهذه الوجوه جميعا محققة للأتقياء وفوقها من الله المزيد .

٧ - تقبل الأعمال والطاعات والدعاء من المتقين خاصة لقوله تعالى (إنما يتقبل الله من المتقين)(٥) وأنعم بها من نعمة ينعم الله تعالى بها على عبده التقى ، فكم من الناس يدعو وكم من الناس يطيع وكم من الناس يعمل

---

(١) سورة البقرة / ٢٨٢ م

(٢) سورة الكهف / ٦٥ ك

(٣) سورة الأنفال / ٢٩ م

(٤) انظر أنوار التنزيل ١ / ٣٢٧

(٥) سورة المائدة / ٢٧ م

ولكن : لن يتقبل الله إلا ممن اتقاه وولاه ، ومن هذه الحيثية شرع الله تعالى للمذنب القاصر عن مرتبة المتقين الخراص أن يتوسل بدعائهم وبجاههم عند الله تعالى لقربهم منه بتقواهم ولقصر القبول عليهم بنص التنزيل الحكيم ، فمشروعية التوسل إذاً : باب مفتوح من أبواب رحمة الله الواسعة وجبر لقصور العبد القاصر عن مرتبة التقوى ، ولا يمارى فى مشروعية التوسل إلا المضيقون لرحمة الله القاصرون عن إدراك مرامى كلام الله . وبحسب التقى من ثمار تقواه أن يتقبل الله منه فتلك مرتبة كان يستشرف لها أكابر سلفنا الصالح ، ولقد روى عن فضالة بن عبيد ـ فى الرقائق ـ أنه قال (لأن أكون أعلم أن الله تقبل مثقال ذرة أحب إلى من الدنيا وما فيها)(١)

٨ — صلاح الأعمال بالتوفيق إليها وبالعون فيها وبالانابة عليها وغفران ما قد يقع من ذنب فيها ـ قال عز من قائل :ـ

(ياأيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولا سديدا يصلح لكم أعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزا عظيما)(٢)

٩ ، ١٠ — المخرج من كرب الدنيا والآخرة وغمومهما ومضايقهما ، وارزاق المتقى من حيث لا يحتسب ، قال تعالى (ومن يتق الله يجعل له مخرجا . ويرزقه من حيث لا يحتسب)(٣) .

لقد وعد الحق تعالى ـ فى هذه الآية الكريمة ـ عامة المتقين بالخلاص عن مضار الدارين والفوز بخيرهما من حيث لا يحتسبون(٤)

---

(١) انظر جامع البيان للطبرى ٢ / ٢٠٨ ط الحلبى

(٢) سورة الأحزاب / ٧١ م وانظر تفسير البيضاوى ٢ / ٢٠١

(٣) سورة الطلاق / ٢ ، ٣ م

(٤) انظر أنوار التنزيل ٢ / ٣٨٢

١١ — اليسر وتسهيل الأمور مع التوفيق إلى الخير (١). قال تعالى : (ومن يتق الله يجعل له من أمره يسرا)(٢) ومن اليسر المراد أيضا: التخليص من الشدائد والملمات(٣) .

١٢ — تكفير السيئات ومضاعفة ثواب الأعمال الصالحة كما قال عز من قائل : ـ

(ومن يتق الله يكفر عنه سيئاته ويعظم له أجرا)(٤)

١٣ — النجاة من النار ومن كل سوء وحزن ، قال تعالى(ثم ننجى الذين اتقو ونذر الظالمين فيها جثيا)(٥) وقال جل شأنه : ـ(وينجى الله الذين اتقوا بمفازتهم لا يمسهم السوء ولا هم يحزنون)(٦)

١٤ — الوقاية من عذاب الجحيم والتنعيم بالجنات والنعيم المقيم : قال تعالى (إن المتقين فى جنات ونعيم فاكهين بما آتاهم ربهم ووقاهم ربهم عذاب الجحيم كلوا واشربوا هنيئا بما كنتم تعملون . متكئين على سرر مصفوفة وزوجناهم بحور عين)(٧)

إن الجزاء الإلهى من جنس العمل لكنه أجزل منه كماً وكيفا . فكما يتقى العبد مولاه فى الدنيا يقيه مولاه فى العقبى من العذاب ويجزل له العطاء والثواب ، ومن العطاء أيضا : ـ

١٥— حسن المآب قال تعالى : (هذا ذكر وإن للمتقين لحسن مآب

---

(١) نفس المصدر والصحيفة (٢) سورة الطلاق ٤ م
(٣) انظر نتائج الأفكار القدسية ٢ / ٢٤٥
(٤) سورة الطلاق/ ٥ م (٥) سورة مريم/ ٧٢ ك
(٦) سورة الزمر/ ٦١ ك
(٧) سورة الطورة / ٢٠ ك

جنات عدن مفتحة لهم الأبواب ، متكئين فيها يدعون فيها بفاكهة كثيرة وشراب ، وعندهم قاصرات الطرف أتراب . هذا ماتوعدون ليوم الحساب . إن هذا لرزقنا ماله من نفاد)(١) .

١٦ — المفاز — وهو مكان الفوز فى الجنة(٢) .

قال تعالى : (إن للمتقين مفازا : حدائق وأعنابا وكواعب أترابا وكأسا دهاقا . لا يسمعون فيها لغوا ولا كذابا . جزاء من ربك عطاء حسابا)(٣) .

١٧ — جوار الله تعالى : فى مقعد صدق ، قال تعالى : (إن المتقين فى جنات ونهر فى مقعد صدق عند مليك مقتدر)(٤) .

وأنعم به من جوار وأنعم بها من منزلة . اللهم أنلنا إياها بغير حساب ولا عتاب ولا عذاب ولا عقاب بجاه نبيك سيدنا محمد سيد الأحباب صلى الله تعالى عليه وآله وصحابته المتقين أولى الألباب .

١٨ — معية الله تعالى : بالكلاءة ، والحفظ والإعانة والنصرة ، والتوفيق والتسديد والتأييد ، قال عز من قائل :

(واعلموا أن الله مع المتقين)(٥) .

١٩ — محبة الله عز وجل ومحبوبيته للمتقين ، قال جل شأنه :

---

(١) سورة (ص)/ ٤٩ - ٥٤ ك .

(٢) أنظر أنوار التنزيل ٢/٤٢١ وتفسير الجلالين بهامشه .

(٣) سورة النبأ / ٣١ - ٣٦ ك .

(٤) سورة القمر / ٥٤ - ٥٥ ك .

(٥) سورة التوبة / ١٢٣م .

(أن الله يحب المتقين)(١) ومن أحبه الله كان الله محبوبه لترتب المحبوبية على الحب كما يوحيه نظم قوله تعالى (فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه .)(٢) بيد أن لقوة التلازم بين الحبين جيء بالواو التى هى لمطلق الجمع .

ومحبة الله تعالى لا يكتنه كنهها ولا يتصور وصفها ، وقصارى تفسير العلماء لها هو : الإتيان بلوازمها ومترتباتها من نحو : إرادة الخير والهدى والتوفيق وحسن الثواب فى الدنيا والاخرة(٣) .

اللهم ارزقنا حبك وحب من يحبك واجعلنا محبوبين لك ولرسولك الأعظم ﷺ وسائر أحبابك وارزقنا معيتهم فى الدنيا والاخرة .

٢٠ — الكرامة ورفعة المنزلة عند الله تعالى فى الدنيا والاخرة ، قال تعالى : (إن أكرمكم عند الله أتقاكم)(٤) فالتقوى هى المقياس القرآنى للتفاضل بين الخلق جميعا لأنها مقياس الكمال الذاتى والوصفى اللذين يتم بهما الفضل وعلو المنزلة .

٢١ — التكريم فى الحشر الى الرحمن : قال تعالى : (يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفدا)(٥) .

ومن مظاهر هذا التكريم : ما روى عن سيدنا على كرم الله وجهه ورضى عنه من أنه قال : فى هذه الآية الكريمة : (ما يحشرون والله على

---

(١) سورة التوبه / ٤ .
(٢) سورة المائدة / ٥٤ .
(٣) انظر أنوار التنزيل ١ / ٢٣٦ .
(٤) سورة الحجرات / ١٣ م .
(٥) سورة مريم / ٨٥ ك .

أرجلهم ولكنهم يحشرون على نوق أرجلها الذهب . ونجائب سروجها اليواقيت)(١) !! وبحسبهم أنهم يحشرون إلى الرحمن ، ولاختيار هذا الاسم الجليل ههنا بالذات دلالة عظمى على عظيم التفضل والاحسان .

٢٢ — رحمة الله الخاصة : فقد كتبها للمتقين خاصة كما قال تعالى : (ورحمتى وسعت كل شىء فسأكتبها للذين يتقون . .)(٢) .

والرحمة ههنا للمتقين شاملة للحياتين : الدنيوية والأخروية فهى فى الدنيا : حسن المعيشة وتوفيق الطاعة وفى الآخرة الفوز بالنعيم الأوفر والرضوان الاكبر ، وإنى أرجح شمول الرحمة للحياتين بهذا المعنى — خلافا لمن خصها بالاخرة — لأن الله تعالى أتى بها فى معرض الرد على اليهود القائلين (واكتب لنا فى هذه الدنيا حسنة وفى الآخرة إنا هدنا إليك . .) فهم قد طلبوا الرحمة باسم الحسنة فى الدارين فناسب أن تعمم فى الرد عليهم : للدارين أيضا ، وأما تقييد الرحمة ههنا بالخصوصية : فلأنها وردت جزاء خاصة الله من عبادة فلهم فيها القدر الأعظم والدرجة القصوى التى لا ينالها غيرهم وإن شاركهم العامة فى مطلق الرحمة .

٢٣ — إرث الجنة : عطاء خاصا وعده الله تعالى فى القرآن العظيم لعباده المتقين خاصة قال تعالى شأنه وتقدست أسماؤه : (تلك الجنة التى نورث من عبادنا من كان تقيا)(٣) .

إن التعبير بالارث ههنا له دلالة خاصة نجتليها فى تفسير الإمام البيضاوى — عليه سحائب الرضوان — إذ يقول :-

---

(١) انظر نتائج الأفكار القدسية ٢ / ١٤٥ .

(٢) سورة الأعراف / ١٥٦ ك .

(٣) سورة مريم / ٦٣ ك .

(... وتلك الجنة التى نورث من عبادنا من كان تقيا ، نبقيها عليهم من ثمرة تقواهم كما يبقى على الوارث مال مورثه . والوراثة أقوى لفظ يستعمل فى التمليك والاستحقاق من حيث أنها لاتعقب بفسخ ولااسترجاع ولا تبطل برد وإسقاط .

وقيل : يورث المتقون من الجنة المساكن التى كانت لأهل النار لو أطاعوا ، زيادة فى كرامتهم)(١)

أجل ... إنه نعيم الله لأحبابه المتقين وإصفوته المقربين جعلنا الله ببركتهم فى زمرتهم فى الدنيا ويوم الدين . اللهم آمين .

---

(١) انظر أنوار التنزيل وأسرار التأويل ٢ / ٣٠

الخاتمة

الحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله والصلاة والسلام على سيدنا محمد أكرم رسل الله وآله وصحبه ومن والاه وبعد : ـ

فقد عشنا فى أنوار التنزيل ماشاء الله لنا فى رحاب الإيمان والتقوى اللذين هما دعامتا الولاية لله عزوجل لتتكامل لدينا - بقدر ما - رؤية بناء الولايه فى القرآن الكريم مشيدا على أرسخ الأسس وأقوم الدعائم وماأظننى بعد قد شارفت الغايه فحاشا لله أن يكون لمرامى كلامه نهايه ، وإنما هى خطى وئيدة على طريق العلم الذى لانهاية له ، وسبحة قصيرة فى بحر علوم التنزيل الذى لاقرار ولا ساحل له !!!

أسأل الله متشفعا بحبيبه الأعظم سيدنا محمد صلى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلم أن يجعل هذا العمل - على الرغم من أمانى النفس الأمارة - خالصاً لوجهه الكريم وأن يجعله فى صحيفتى نورا فى حياتى الأخرى وأن يجعله سبحانه علما ينتفع به ليظل ثوابه مددا متصلا فى الحياة وبعد الممات وأسأله جلت قدرته أن يحققنى به عملا وحالا كما قدره لى علما ومقالا وأن يحشرنى به فى زمرة العلماء العاملين مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا والحمد لله رب العالمين .

وصلى الله تعالى على رحمته للعالمين سيد الأنبياء والمرسلين وقائد الغر المحجلين إلى جنات النعيم سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما بقدر عظمة ذات الله فى كل وقت وحين والحمد لله رب العالمين ؟

فهرس الكتاب

الموضوع	الصفحة
تقديم وتمهيد :	٤ — ١٠
مدخل الى التفسير الموضوعى	١١ — ٤٦
حول التعريف العلمى للتفسير	١١ — ١٥
النشأة والمسار التاريخى للتفسير	١٥ — ٢٩
نشأة التفسير الموضوعى للقرآن الكريم وتدرجه التاريخى	٣٠ — ٣٩
تعريف التفسير الموضوعى وبيان نوعيه	٣٩ — ٤١
منهج البحث فى التفسير الموضوعى	٤٢ — ٤٦
الايمان فى القرآن الكريم	٤٧ - ٢٤٨
حقيقة الإيمان وعلاقته بالإسلام وبالإحسان فى إطار الدين	٥١ — ٦٥
زيادة الإيمان ونقصانه	٦٦ — ٦٩
أركان الايمان	٧٠ — ١٥٧
الإيمان بالله تعالى	٧٢ — ٨٧
الإيمان بالملائكة	٨٨ — ١٠٢
الإيمان بالكتب المنزلة	١٠٣ — ١١٩
الإيمان برسل الله عليهم الصلاة والسلام	١٢٠ — ١٢٦
الإيمان باليوم الآخر	١٢٧ — ١٤٢
الإيمان بالقدر	١٤٣ — ١٥٧
شعب الأيمان	١٥٨ — ١٨٠
القسم الاول : شعب أعمال القلب	١٦١ — ١٧١

الموضوع	الصفحة
القسم الثانى : شعب أعمال اللسان	١٧٢ — ١٧٤
القسم الثالث : شعب أعمال البدن	١٧٤ — ١٨٨
مقاييس الأيمان وصفات المؤمنين	١٨٩ — ٢١٢
النوع الأول : المقاييس الشرطية	١٩٠ — ١٩٥
النوع الثانى : المقاييس الحصرية	١٩٥ — ٢٠٥
النوع الثالث : المقاييس الوصفية	٢٠٥ — ٢١٠
من مقاييس الإيمان فى السنة النبوية الشريفة	٢١٠ — ٢١٢
ثمرة الأيمان فى الدنيا والآخرة	٢١٣ — ٢٢٨
الثمار المتحققة للمؤمنين فى الدنيا	٢١٣ — ٢١٨
الثمار المتحققة للمؤمنين فى الدارين معاً	٢١٨ — ٢٢٣
الثمار الموعودة للمؤمنين فى الآخرة	٢٢٣ — ٢٢٨
مثل عليا ونماذج رفيعة للمؤمنين والمؤمنات فى القرآن الكريم	٢٢٩ — ٢٤٨
أولا : مثل ايمانية من الأمم السابقة	٢٣٠ — ٢٣٧
ثانيا : مثل إيمانية رفيعة من الأمة المحمدية	٢٣٧ — ٢٤٨
• • •	
التقوى فى القرآن الكريم	٢٤٩ — ٢٩٩
علاقة التقوى بالإيمان فى القرآن	٢٥٠ — ٢٥١
حقيقة التقوى وبيان منزلتها من الدين	٢٥٢ — ٢٦٨
الحقيقة اللغوية للتقوى وورودها بها فى التنزيل	٢٥٢ — ٢٥٥
الحقيقة الشرعية للتقوى واتجاهات العلماء والمفسرين فى تحديدها	٢٥٦ — ٢٦٤

الموضوع	الصفحة
منزلة التقوى من الدين	٢٦٤ — ٢٦٨
مراتب التقوى ودرجاتها	٢٦٩ — ٢٧٥
جوانب التقوى وشعابها	٢٧٥ — ٢٩١
ثمار التقوى	٢٩٢ — ٢٩٩
الخاتمة	٣٠٠
فهرس الكتاب	٣٠١ — ٣٠٢

رقم الإيداع بدار الكتب

٢٠٢٦ / ١٩٨١ م